147
أنيس منصور
http://www.maktbtna2211.com/
الخبز والقبلات
مكتبتنا
كنوز من المعرفة
Ahmed Mady
دار الشروق

« . . إذا تكررت كلمة « قرد » كثيرا فى هذا الكتاب، ففى استطاعتك أن تضع مكانها أى « إنسان » . . ففى إمكانك أن تقول : أنا وأنت وهو وهى ونحن جميعا « قرود » .

« وهذا الكتاب يغريك بأن تنظر باحترام إلى كثير من الحيوانات، فليست هذه الحيوانات إلا بشرا بلا حياء . . وبلا كذب . . ولذلك يخجل الإنسان أن يراها أو يحن إلى رؤيتها . . ولكنه لا يستطيع أن يغمض عينيه عنها .

« ولا يكفى أن ننظر، ولكن يجب أن نطيل النظر إليها . . سنجدها مسلية وممتعة . . ومهما بدت هذه الحيوانات مضحكة، ففى وسعك أن تفتش بين أصدقائك وزملائك وأعدائك، لتجد من يشبهها فى كل شىء .

« ونحن جميعا حيوانات ! أمام الخبز والقبلات . . أى عند البحث عن الطعام والجنس، عن الرغيف والقبلة » .

من مقدمة هذا الكتاب الذى يسجل رحلة عقلية نفسية عميقة . . فكاتبنا الكبير أنيس منصور الذى حصل بفضل ملايين القرّاء على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٣، وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٢ وأول عربى يحصل على جائزة « التأليف والإبداع » بين كل مؤلفى العالم الثالث سنة ١٩٨٣ .

وفى كل سطر من سطور الكتاب : علم وفن . . معلومة وابتسامة وإضافة إلى رصيد الفكر والأدب العربى الحديث .

أنيس منصور

الخبز والقبلات

دار الشروق

كلمة أولى..

لم يترك الانسان صفة من الصفات لم يضفها إلـى نفسـه.. فهـو وصف نفسه بأنه حيوان، وبأنه جماد وبأنه نبات وبأنه نصف إلـه. وبأنه إله أيضا..

وعندما قال الفيلسوف الألمانى ليبنتس أن الذى يقدر على العزلة: اما أن يكون حيوانا أو إلها، جاء الشاعر الألمانى جيته فقـال: أو.. هما معا!

أى الانسان هو الذى يوصف بأنه إله وحيوان فى وقت واحد.. به صفات العقل وبه غرائز الحيوان..

والتاريخ، هو الذى سجل مجد الانسان وصفحة مهـارته أيضـا، يصور لنا كيف كان الانسان عاقلا ومجنونا، مبدعا ومدمرا، بلا عقل.. أو أنه كان يستخدم عقله فى القضاء على عقله أيضا!

وحاول الانسان أن يجعل أجداده من سكان السماء... وأنه هبـط إلى الأرض..

والأديان تقول لنا أن آدم كان «فوق» وأن حواء التى هى ابنته وزوجته قد نزلت به إلى «تحت».

وأنه من ذلك اليوم قد انغمس فى «تحت» ويحاول أن يتسامى إلى «فوق»..

والدراسات الأثرية الحديثة تقول لنا أن الانسان ليس إلا كائنا عاقلا هاجر من كواكب أخرى إلى هذه الأرض*

وبعض العلماء يرى أنه لا داعى لأن نبحث عن أصل الانسان، وإنما أن نتجه إليه هو.. فهو عقدة العقد... وأن نستعين بالحيوانات الأخرى على فهمه. ففى داخل الانسان كل ما حوله من حيوانات أخرى.. فهو ثعلب عند اللزوم وهو ذئب وهو ثعبان وهو حمامة سلام وهو مجرم حرب..

ولكن لا يزال القرد بالذات هو أقرب الحيوانات إلينا.. ولكى نفهم الانسان يجب أن نتجه إلى القرد.. فهو أستاذنا والذى يفعله القرد بغير عقل، هو الذى نخفيه نحن بمنتهى العقل، ولذلك إذا أردنا أن نرى صورنا الخفية فعلينا أن نذهب إلى حديقة الحيوان وأن نتفرج على أنفسنا فى الأقفاص وفى «جبلاية القرود». (وجبلاية القرود هو تعبير مصرى نطلقه على المناطق التى تعيش فيها القرود فى حديقة حيوانات الجيزة.. فهى ليست جبلا ولكنه جبلاية - أى جبل صغير. وقد أقمنا هذا الجبل الصناعى لعل القرود أن تجد نفسها فى بيئة طبيعية. مع أن الحديقة هى سجن صنعناه للقرود. ولذلك فهذه القرود

---

* انظر كتابى «الذين هبطوا من السماء».

تتصرف كما يتصرف أى سجين بلا أمان ولا راحة ولا صحة. ولذلك تمرض.. وتنقرض حيوانات كثيرة فى هذا المنفى وهذا الزحام المخيف).

والدراسات الممتعة التى أصدرها الكاتب الانجليزى دزموند موريس هى أروع ما عرفنا - فى السنوات العشر الأخيرة - وأنا لم أرفع عينى عن مؤلفاته.. ولذلك فأنا شديد الاعجاب به والامتنان له..

فقد عاش هذا الكاتب الانجليزى هو وزوجته يتابعان سلوك الحيوانات: القرد وحيوان الباندا الصينى سنوات طويلة. وصدرت لهما دراسات رائعة. وهو يستمتع بقدرة هائلة على الملاحظة الدقيقة. وبراعة فى التعبير وفى المقارنة بين الانسان والحيوان.

وكذلك ما كتبه زميله ليال واطسون مدير حديقة حيوان جوهانسبرج بجنوب إفريقيا فقد صدر له كتاب عن عادات الانسان فى الأكل والشرب وهو أيضا لم يرفع عينه عن الحيوانات الأخرى. أما كتابه فعنوانه: «القرد الذى يأكل كل شيء» وهذا القرد ليس سوى الانسان طبعا. فالحيوانات جميعا تقتصر على أنواع محددة من الطعام. فمنها النباتى والحيوانى. ولكن الانسان يأكل النبات والحيوان. والحمار يأكل البرسيم والفأر يأكل الجبن والقط يأكل السمك.. ولكن الانسان يأكل الجميع وفى كل وقت. بل ان ساعات الراحة عند الانسان ليست إلا فترات بين وجبات... ثم أنه لا يوجد عنده موسم للرغبة الجنسية.. فهو يشتهى على مدار السنة.. وأنثى الانسان تلد فى أى وقت.. ومعدة الانسان تتلقى وتهضم ما يساوى طنا كل سنة.

وعنده هذه القدرة على التكيف فى الطعام والشراب ومع البيئة ومع الحيوان ومع الناس ـ ولذلك عاش وماتت وانقرضت حيوانات أخرى كثيرة!

والذى يحدث فى «جبلاية» القرود يقع فى كل بيت.. وكل مصنع وكل جمعية. ولكن بصورة أعمق.

فإذا تكررت كلمة «قرد» كثيرا فى هذا الكتاب، ففى استطاعتك أن تضع مكانها أى إنسان.. ففى استطاعتك أن تقول: أنا وأنت وهو وهى.. ونحن جميعا..

وهذا الكتاب يغريك بأن تنظر باحترام إلى كثير من الحيوانات. فليست هذه الحيوانات إلا بشرا بلا حياء.. وبلا كذب.. ولذلك يخجل الانسان أن يراها أو يحن إلى رؤيتها.. ولكنه لا يستطيع أن يغمض عينه عنها..

ولا يكفى أن ننظر ولكن يجب أن نطيل النظر.. فى النظر إليها أشياء مسلية وممتعة.. ومهما بدت هذه الحيوانات مضحكة ففى استطاعتك أن تفتش بين أصدقائك وزملائك وآبائك وأعدائك من يشبهها فى كل شىء..

وكلنا حيوانات عند: الخبز والقبلات.. أى عند البحث عن الطعام وعن الحب..

عن الرغيف وعن القبلة.. عن الذى تملأ به المعدة وتملأ به القلب..

ويحدث كثير أن نجد الحب ولا نجد الرغيف.. أو نجد الجنس ولا نجد الحنان..

وفى زحام المدن يتولد الاصطدام، ويتولد الخوف والكراهية والمنافسة حتى الموت.

وهذا هو العذاب الذى يعانيه الانسان.. فى كل عصور التاريخ..

فى المدن وفى القرى.. وعندما يكون وحده وعندما يكون مع الناس كيف؟

تفضل واقرأ هذه الصفحات!

أنيس منصور

زحام .. زحام
زحام في كل مكان !

الدبابيس والصمغ والسلاسل..

(١)

زحام على المحطات وعلى سلالم الاتوبيس وفى داخله وعند النزول. فى الذهاب والاياب. وفى الملاعب والملاهى والملاجئ والمستشفيات والجنازات. الناس يدوسون بأقدامهم أيديهم وبأيديهم يسحقون رءوسهم وبمعداتهم يضغطون على قلوبهم.

وبعقولهم يفسدون كل شيء. ويتخاطفون لقمة العيش وقطرة الماء والدواء. ويتعجلون الحياة ويستعجلون الموت. وفى المدن الكبرى لا يبالى أحد بأحد. ولا يرى ذلك ضروريا. ويشكون من الزحام ويتوجعون من مرارة الوحدة. ويتقاربون ويتلاصقون ويتثاءبون من الملل.

ونقول فى أسى، تعليقا على حالنا : لقد أصبحنا غابة، الكبير يأكل الصغير والصغير يسرق الكبير. وأنت وشطارتك؟

وهذه الرؤية صحيحة، ولكن التعليق عليها هو الخطأ.. أكبر خطأ. ومن هنا يبدأ المفكر الانجليزى العظيم دزموند موريس السطور الأولى من كتابه الرائع (حديقة الانسان) ولا أعتقد أن مفكرا استطاع أن يدرك بذكاء

وعمق أوجاع الحياة الانسانية وأسبابها فى العصر الحديث، كما فعل هـذا المفكر الكبير.

وكل ما أطلبه من القارئ أن يتأنى فى القراءة، وأن يفكر، لأنها مسألة جادة. ولأننا ـ نحن قراء الصحف ومستمعى الاذاعة ومشاهدى التليفزيون ـ قد اعتدنا على السرعة فى القراءة وفى الكتابة وفى الكلام وفى الطعام. ولكن من الواجب أن نعتاد أحيانا على أساليب أخرى. فالحياة جادة، ولا يمكن أن يتقدم الانسان، أو المجتمع، إذا لم يكن جادا فى عمله وفى لعبه أيضا..

وبهذا التنبيه أكون قد دخلت فى قلب الموضوع الذى أكتب عنه. ومن المناسب أن أرجع قليلا لأبدأ من البداية..

فنحن تحت ضغط الحياة اليومية الحديثة ننظر إلى المدينة الكبرى على أنها غابة من الأسمنت المسلح. وهذا التعبير ليس دقيقا. لأن الغابة ليست كذلك. فالحيوان فى الغابة لا يعرف القتل بالجملة. ولا الشذوذ الجنسى ولا قتل الأطفال .ولا قرحة المعدة ولا تكديس الأشياء وتقديس الأشخاص. فهل معنى هذا أن الحيوان لا يفعل ما يفعله الانسان الآن فى المدينة؟

والجواب: يفعل الحيوان كذلك. ولكن فى.. «حديقة الحيوان» فقط. فالحيوان فى أقفاص الحديقة يمارس كل أنواع الشذوذ. ولذلك فالمدينة ليست غابة، وإنما هى «حديقة حيوان».. ولذلك فنحن يجب ألا نقارن بين ساكن المدينة، وساكن الغابة، وإنما بين ساكن المدينة وساكن أقفاص الحديقة. والانسان فى المدينة ليس مسجونا فى قفص، وإنما سجين عادات وتقاليد ولوائح ونظم وقوانين. وهو الآن يعانى من فزع هائل: هو أن يقتل نفسه بنفسه. هو أن يقضى على عقله بعقله؟

فالحيوان فى الحديقة يختلف عن الحيوانات فى الغابة. فالحديقة قد وفرت له الكثير من الوقاية والعلاج والطعام. أن الحديقة مثل أبوين قد دبرا كل شىء.. وحيوان الحديقة أصبح عنده متسع من الوقت. ولا يدرى ما الذى يصنعه فى هذا الانتظار الطويل.. بعض الحيوانات يتمدد فى كسل فى الشمس. بعض الحيوانات ينام، وبعضها يروح ويجىء فى قلق مستمر. كأن هذه الحيوانات لم تفقد الأمل فى تحررها من هذه الأقفاص وعودتها إلى الغابة، والمدينة قد وفرت للانسان الطعام والعلاج والحماية وأصبح عنده متسع من الوقت.. ولكن الانسان لا يطيق هذا الكسل. فهو حيوان يريد أن يعرف وأن يجرب وأن يخترع.. وكلما حاول الانسان أن يجرب ويغير دخل فى إطارات جديدة. ونظم جديدة وخطط جديدة: فى قيود جديدة وأقفاص جديدة؟

وتاريخ الانسان ليس إلا قصة الصراع المستمر لدفع التقدم ومواجهة نتائجه بعد ذلك. فنحن ضحايا ما نعمله.. نحن ضحايانا؟

ولا يمكن أن يدعو أحد إلى العودة إلى الغابة وإلى الكهوف.. فالانسان بعبقريته قد حقق المعجزات. وهذا واضح لنا. والانسان قد أصبح قويا، هذه هى نقطة الضعف الوحيدة فيه. وسوف يزداد الانسان قوة، ويزداد ضعفا أيضا ولا أحد يتصور أن هذه المباراة الطويلة يمكن إنهاؤها (بصفارة الحكم) فيخرج اللاعبون ويخطف المتفرجون الكرة. فحياتنا مباراة: نحن اللاعبون والمتفرجون والكرة والصفارة والمتعة والخوف وتكرار المتعة والخوف بعد ذلك. وإنما كل ما نريده هو أن نبحث عن طريقة أخرى للعب، ونستأنف المباراة.. دون أن نقضى على الانسانية كلها؟

أرجو أن تتابعنى فى الاقتراب من موضوعنا أكثر وأكثر..

دعنا نتخيل قطعة أرض مساحتها مائة ألف فدان. هذه الأرض غابة بها حيوانات كبيرة وصغيرة. ثم لنتخيل جماعة من الناس أقاموا وسطها. وليكن عددهم مائة شخص مثلا. ولتكن واحدا من هؤلاء الناس: فردا فى هذه القبيلة، والأرض حولك ممتدة، والرجال يطاردون الحيوانات.. والنساء يجمعن الثمار والأطفال يلعبون فى صخب. ثم تتوالد هذه القبيلة وتظهر قبائل أخرى..

دعنا نتخيل نفس المساحة من الأرض وقد تحضرت، ظهرت البيوت والشوارع والمصانع والمؤسسات والهيئات وأصبح عدد السكان عشرة ملايين نسمة وأنت واحد منهم. ثم انظر إلى الصورتين وقارن بينهما. إن هذا التغيير لم يحدث فى ليلة، وإنما فى ألوف السنين. وهذا يدل على أن الانسان قد توافق مع البيئة وسيطر عليها. ولكن الانسان لم يتغير من الناحية الجسمية والنفسية فهو مايزال ذلك الانسان «القبلى» الذى نراه فى الصورة الأولى. ولا بد أن الحياة كانت قاسية معه وعليه. ولابد أنه بذل جهودا هائلة لكى يصل إلى ما نحن عليه الآن..

فالانسان الصياد. انه مايزال صيادا. تغيرت ملابسه وأسلحته. ولكن ماتزال عنده نفس الرغبة، ونفس الفرحة بالضحية.. ولو أخذنا طفلا من العصر الجليدى. أى طفلا عاش من عشرات الألوف من السنين، وربيناه بيننا الآن، فإن أحدا لن يدرك الفرق بينه وبين بقية الأطفال. ثم انحسر الجليد فى الشمال، وذهبت معه الحيوانات ذات الفراء.. وبقى الانسان صيادا أيضا. والنقوش فى الكهوف تدل على ذلك.

وبنهاية عصر الجليد ظهر عصر الزراعة عند ملتقى قارات آسيا وأفريقيا وأوربا. والانسان قبل عصر الزراعة كان يأكل عن طريقين: الحيوانات التى

يصيدها الرجال، والثمار التى تجمعها النساء وفى هذه المنطقة من العالم ظهر القمح والشعير والماعز البرية والأغنام والخنازير التى جذبتها المزارع، جاءت لتأكل وليأكلها الانسان أيضا.. وتعلم الانسان استئناس الكلاب ولم يأكلها. وإنما جعلها حارسا ورفيقا. وبشىء مماثل لذلك حدث فى مكانين آخرين: فى جنوبى شرقى أسيا ظهر الأرز، وفى أمريكا الوسطى ظهرت الذرة. وبعد ذلك تحولت هذه الحيوانات التى استأنسها الانسان، والنباتات التى ألفها الانسان، إلى طعامه الرئيسى.

وإذا كان الانسان أيام الغابة يأكل ما يحصل عليه، فإنه فى عصر الزراعة اعتاد أن يكون لديه فائض من الطعام. هذا الفائض أو الحرص عليه هو الذى فتح للانسانية أبواب الحضارة. لأن القبيلة أصبح لديها ما يزيد على حاجة أفرادها أى أنه ليس من الضرورى أن يعمل كل أفرادها. ومعنى ذلك أن القبيلة فى استطاعتها أن تكبر دون خوف. وأن يقوم بعض رجالها بأعمال أخرى غير البحث عن الطعام، لا بعض الوقت ولكن كل الوقت.. لقد ولد عصر التخصص؟

ومن هذه البدايات الصغيرة ولدت (المدينة).

وهذه المدينة.. قد اجتازت طريقا عسيرا. فهى لم تظهر من تحت الرمال فى ليلة. وإن كانت هناك حياة بدائية ماتزال قائمة حتى الآن على أطراف الصحارى الرملية والجليدية. وهذه المدن ظهرت أول الأمر متباعدة متفرقة فى جنوب شرقى أسيا وحول الأرض المزروعة.

وأقدم مدينة عرفها الانسان هى مدينة أريحا فى فلسطين، التى ازدهرت منذ ثمانية آلاف سنة. وأقدم حضارة عرفها الانسان هى حضارة «سومر»

فى العراق التى عرفت الادارة والعمارة والطب والمواصلات. وكانت المدن السومرية صغيرة تضم ما بين سبعة وعشرين ألف نسمة. وفى هذه المدن تحولت القبيلة الصغيرة إلى قبيلة أعلى. والفرق بين القبيلة البدائية والقبيلة العليا: أن العلاقات بين أفرادها أصبحت غير شخصية.. فقط علاقات الجوار أو الزمالة فى العمل أو العضوية أو الاقامة فى مدينة واحدة؟ وهذا التغير الجوهرى سيكون ينبوع العذاب للانسان ألوف السنين. فنحن لم نتغير نفسيا وحيويا لمواجهة هذا العدد الهائل من الغرباء.. الذين هم فى نفس الوقت أفراد قبيلتنا الكبرى. فنحن مازال نعيش معهم وبهم وضدهم. نعاونهم ونحاربهم، سرا وعلنا.

إنها بداية الشعور بالغربة والغرابة والضياع.

ولما كبرت القبيلة كان لابد من وضع القيود عليها، لحراستها وضبطها. ولذلك ظهرت القوانين، أى الأقفاص الحديدية والحريرية فى نفس الوقت.

ومن الواضح فى الحضارة الفرعونية والاغريقية والرومانية حرصها على القانون والتشدد فى التطبيق. ولم يكن أبناء هذه الحضارات كبيرى العدد. فأهل بابل كان عددهم سنة ٦٠٠ق.م لا يزيد على ثمانين ألفا، وأهل أثينا لا يزيدون على ثمانين ألفا.. وربع هذا العدد فقط كان يسكن مدينة أثينا. أما بقية سكان دويلة أثينا فمن التجار الغرباء والعبيد والفلاحين.. ومدينة أثينا اليوم تقرب من المليونى نسمة.

وكانت مثل هذه «الدويلات» تضاعف مواردها بالتجارة أو بالغزو. روما نفذت الاثنين وكان اهتمامها بالغزوات أكثر، وفى نفس الوقت تفوقت فى الادارة وفى الفنون العسكرية حتى أصبحت أكبر مدن العالم فى ذلك الوقت.

فقد بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة. وأصبحت نموذجا لـدول كثيـرة زمنا طويلا.

وبعد ذلك كبر المجتمع وتشابك وتعقـد. وأصـبحت العقـدة أعقـد. والجماهير أكثف. والأقلية الأرستقراطية أقل. والعلمـاء أعلـم والضـغط أعنف، والحرمان أوجع والعلاقات الانسانية أقل إنسانية. والعلاقات غيـر الشخصية اتسعت واستقرت. حتى أصبحت اللامبالاة قـانونا يبـالى بـه الناس. وكل ذلك يؤكد عظمة الانسان، إذ كيف استطاع رغم هذا كلـه أن يصل إلى ما وصلنا إليه؟!

والانسان لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بالقيود والتحرر منها، والدخول فى قيود جديدة. والانسان يعطى قيادته لواحد من أبنائه. ومن المألوف فى عالم القرود أن نجد أقوى الذكور يحكم القبيلة. وعلى الرغم من قسـوته، فإنه فى ساعة الخطر يتقدم الجميع لحماية أفراد القبيلـة وإذا تضـخمت القبيلة انفصلت منها جماعة تكون قبيلة أخرى. ولم نجد فى عالم القـرود، قردا واحدا يعيش بمفرده. ومن المألوف عند القرود أيضا أن نجد الذكور تختلف فيما بينها ولكن إذا هوجمت القبيلة اتحدت القـرود، وإذا انتهـى الغزو عادت الذكور إلى خلافاتها التى لا تنتهى.

وإذا عدنا إلى الانسان نجد أن الانسان يتعـاون فى مـواجهة الخـطر الخارجى، ويتنافس فى مواجهة الخطر الداخلى، فالتعاون والتنافس قـوتان تشدان الانسان وتتحكمان فيه والانسان عندما تحول إلـى صـياد كان فى حاجة إلى التعاون فى مواجهة الوحوش. ولكنه بعد ذلك يتنافس فى الحصول على فائدة أكبر. ومنذ فقد الانسان العلاقات الشخصية بين أفراد قبيلتـه، وهو يواجه ضرورة التعاون وضرورة التنافس بصورة مهلـكة، ولأن معـظم

الناس لا تربطهم صفة شخصية، أصبح التعاون جادا والتنافس حادا، وهذا التنافس أتاح الفرصة لقيادات وزعامات أقوى وأخطر. وكلما ظهر أقوياء جدا، ظهر ضعفاء جدا. وإذا كانت القسوة تفسد، فإن الضعف يفسد أيضا. والضعفاء ينظر إليهم المجتمع على أنهم من قبيلة أخرى. على أنهم غرباء. وهؤلاء الضعفاء يسلمون بهذه الصفة، ويعتدون على المجتمع باعتباره غريبا عنهم، هو نبذهم فنبذوه.

فالذى يسرق مثلا، لماذا؟ لأنه يقع تحت ضغط المجتمع الكبير. يعانى من التعب والظروف العجيبة. ويواجه الغرباء من الملايين الذين لا يرتبط بهم بأية صلة شخصية. فاللص لا يسرق أحدا يعرفه. وإنما يسرق من لا يعرف، أى أنه عندما يسرق فهو لا يعتدى على أحد أقربائه. أو على قبيلته. وإنما يعتدى على شخص خارج أسرته.

لذلك كان لابد أن يصدر قانون.. ونحن كثيرا ما نتحدث عن «كلمة الشرف بين اللصوص».. أو «قانون الليل» أو «قانون ما تحت الأرض»، وهذه التعبيرات وغيرها تدل على أننا ننظر إلى اللصوص والمجرمين من أبناء القبيلة العليا على أنهم أبناء مجتمع آخر. جنس آخر. ونعامل المجرم على أنه كذلك.. فنضعه فى سجن مع مجرمين آخرين علاجا مؤقتا، ولكن وجوده مع المجرمين يقوى صلته بهم. ويخلق من الجميع قبيلة أخرى متماسكة متضامنة لها قانون هو: الاعتداء على المجتمع الكبير.

فهناك قانون دائما للبقاء «فى» المجتمع، وللخروج «عن» المجتمع.

وهناك قانون آخر اسمه «قانون العزل» فنحن نلاحظ بين المواطنين ثقافات مختلفة، واهتمامات متنوعة وديانات وألوانا سياسية ورياضية وفنية.

وكل فئة، لها أسلوب ولها لغة ولها مصطلحات، وكل ذلك يعزلها بعضها عن بعض، ويجمعها حول شيء.. حول اهتمام. ويشابه بينها. وفى نفس الـوقت يباعد بينها وبين الفئات الأخرى..

وإلى جانب مثل هذه القوانين هناك العادات والتقاليد. فمثـلا هنـاك شعوب ترتدى الأسود فى أيام الحداد. وشعوب ترتدى الأبيض أو الأصفر، لا خلاف بين هذه الشعوب. ولكنها جميعا تتفق فى شىء واحـد : هـو أن هناك زيا خاصا أو لونا خاصا يميز بين بعض الناس أحيـانا ويعزلهم عـن غيرهم. وهذا يتضح.. أكثر فى الاحتفالات والأعياد والمناسبات القومية.

ومن ضمن القوى الاجتماعية : اللغة. ونحن نتحدث عن اللغة باعتبارها وسيلة مواصلات بين الناس، هى بالفعل كذلك. ولكنها فى نفس الوقت تعزل الناس عن الناس. فأبناء كل مهنة لهم مصطلحات. لغة. وبعض المحاكم فى أوربا كانت تصدر أحكامها بالفرنسية. وبعض المطاعم ماتزال تضع قـوائم الطعام بالفرنسية أو الانجليزية.

والدين أيضا : قوة تجمع بين الناس، وتفرق بينهم.. والدين له قـواعده وقوانينه التى يجب أن يطيعها الناس بلا تفكير أو بتفـكير.. وفى داخـل الدين الواحد توجد مذاهب.. هذه المذاهب فرقت بين أهل الدين الـواحد وجمعتهم حول اهتمامات خاصة. فكأن الدين جمع الناس وفرقهم أيضا.

وإلى جانب القانون والعادات واللغة والدين هناك الحـروب. والحـرب تربط بين الناس وتجمعهم. وتذيب الفوارق بينهم.. وتجعلهـم يسـتهينون بالخوف والمرض والجوع.. فلا شىء يقوى الناس مثل الخطر الخارجى.

ففى مواجهة «هم» يقوى هذه القوة التى تمسك المجتمع وتهزه هـى الدبابيس والمسامير والصمغ الذى يمسك الناس ويشدهم ويوجعهم أيضا.

هذه القوة خلقت زعماءها : الادارى والقاضى والسياسى والزعيم ورجل الدين والقائد. وهذه القيادات تجمع عادة فى يدى حاكم واحد.

وحتى لا يحس الانسان أنه مسلوب الارادة، فإنه يبدى رأيه أحيانا فى اختيار زعمائه وقادته. وهذا الاختيار يجعله يشعر بأنه ينتمى إلى هذه الأسرة، وأنه وحده قادر على تدميرها وتغييرها. وفى انجلترا حاولوا أن يعرضوا مناقشات مجلس العموم على شاشة التليفزيون ليشارك الشعب أكثر وأكثر.. ولكن مجلس العموم رفض هذا المشروع لأنه خشى من أن يتدخل الشعب فى القضايا المتخصصة. وانطفأت هذه الفكرة..

ولأنه لا يمكن السيطرة على كل المجتمع، كان لابد من تقسيمه إلى هيئات ونقابات وجماعات وجمعيات واتحادات. وهذه إعادة جديدة للنظام القبلى القديم. والانسان حريص على هذه التنظيمات لأنه يواجه شيئا رهيبا هو: الضياع فى مجتمع الغرباء.. مجتمع الملايين من أبناء القبيلة الواحدة والذين لا يعرفهم وإنما يزاحمهم فى كل يوم. وعلى الرغم من التقارب والترابط والاتحاد بين الناس، فإنهم متباعدون. ممزقون والحرب تجمعهم، ولكن السلام يفرقهم من جديد.

ولا يزال الانسان يحلم، نعم يحلم، بوحدة الأرض كلها. بالأسرة الانسانية. ولكن يبدو أن هذا الحلم لن يتحقق إلا إذا واجهت الأرض خطرا من أحد الكواكب الأخرى. ومادام هذا الخطر لا وجود له، فسيبقى هذا الحلم حلما أو وهما أو هذيانا أبديا؟

وكان هناك حلم آخر: أن يتحد الناس أمام الشاشة الصغيرة.. وأن تكون هناك وحدة تليفزيونية. فالناس يريدون نفس البرامج ونفس الأحداث. ولكن بحسب هذه الوحدة أنها وحدة من جانب واحد. جانب الناس.

فلا يوجد حوار أو جوار أو اتصال بين الذين يظهرون على الشاشة وبين الذين يتفرجون عليهم، فلا سلام ولا كلام ولا علاقة شخصية. ومن المؤكد أن التليفزيون نافع وممتع. ولكن هذه الصلة من طرف واحد

وعلى الرغم من هذه المحاولات الخائفة القديمة للجمع بين القبيلة الواحدة وبين كل القبائل الانسانية فمايزال الانسان «قبليا» يتعصب لأسرته ولشارعه ولمزاجه ولمذهبه ودينه ولغته وأرضه وعرضه. والانسان ليس مثل «النمل الأبيض» الذى يتحد فى الخلية الواحدة. والانسان يريد فى نفس الوقت أن ينغمس فى الضياع ـ أى فى «القبيلة العليا» ليعرف ويفهم ويناقش ويبحث عن شىء جديد. أن هذا الانغماس يثيره ويفتح شهيته للحياة الاجتماعية، وبعيدا عن المجتمع. وكما أن هناك طيورا بحرية لا تتوالد إلا معا على شاطئ ما فكذلك الانسان لا تتوالد أفكاره وأحلامه إلا فى هذا الضياع.. أى فى «التواجد معا».. فالمدن هى مستعمرات للتوالد الجماعى. وهذا هو السبب الوحيد الذى يبقى على التماسك بين أفراد القبيلة رغم ما فيه من عيوب وآلام..

وعلى الرغم من أن سكان المدن الكبرى يعانون الضوضاء والهواء الملوث والزحام والتوترات العصبية والوحدة والملل، فإنهم يحرصون على هذه المدن ويهربون إليها، بنفس السرعة التى يهربون منها. صحيح أننا نشكو من كل مصائب المدينة ونهرب منها إلى الريف أو إلى البحر. ولكننا نعود إلى الزحام بعد ذلك إلى الهواء الملوث والضوضاء والسجائر والقهوة والزحام والشكوى من الناس. ولكن هذا الزحام هو الذى يحرق الأعصاب.. والأعصاب إذا احترقت أضاءت للناس سبلا جديدة للتفكير وللتغيير وعاد الناس من جديد إلى عزلتهم.. تماما كالحيوانات فى الحديقة. كل واحد فى

شقته. لا يعرف اسم جاره ولا يعنيه ذلك ويشكو من ضيق المكان ومن اللامبالاة ومن العزلة ومن الملل ومن التعاسة.

وعندما يحاول الانسان أن يصلح هذه الأخطاء، فإنه يقيم الحدائق العامة، ليذهب الناس إليها. وفى ذهاب الناس زحام جديد.. ويخلق الملاعب وفى الملعب زحام. وعلى الشواطئ زحام.. فكان الانسان يهرب من مدينة من الأسمنت المسلح إلى مدينة أخرى من الرمال أو من الأشجار.

هذا الزحام والتزاحم والضغط والتضاغط والانفجارات النفسية والاجتماعية والأخلاقية، هى التى أدت إلى ما يعانيه الانسان. وسوف نعرض فيما بعد، محاولات الانسان ليتكيف مع هذه الظروف القاسية فى حديقته المسلحة بالخرسانة وبالقانون وكيف نجح.. وكيف فشل أيضا؟

لم يأخذوا علاوة فقتلوا كلابهم!

(٢)

البنطلون له زراير. الجزمة لها رباط والساعة لها أسورة. والشوارع لها علامات حمراء وخضراء. والملاعب مرسومة بالجير.. والسيارات لها أرقام وأصحاب السيارات لهم رخص لها أرقام أيضا هناك دائما علامات وخطوط وأرقام وقيود وأصول وقواعد وهى جميعا من صنعنا. صنعناها وجنسنا أنفسنا فى داخلها..

وإذا ولد الانسان «قيدنا» اسمه فى دفتر المواليد، وإذا مات «قيدنا» اسمه فى دفتر الوفيات.. فهو مقيد حيا وميتا!

والناس يقولون إن الانسان القوى يأكل الضعيف، أنها غلبة.. الوحش الكبير يبتلع الوحش الصغير.

ولكن هذا الذى نقوله إهانة للغابة.. فليس فى الغابة كبير يأكل الصغير، بل إن الوحوش نفسها لا تأكل الانسان إلا نادرا، وليس فى الغابة معارك وحشية، ولا شذوذ جنسى، وإنما الوحشية كلها نراها فى حديقة الحيوان فى أقفاص الحيوانات، حيث وضعنا الحيوانات فى أقفاص، من حديد تزاحمت

الحيوانات وتقاربت، وتحت الضغط تضطرب أعصابها وتثور وتخاف وتخيف، ويعتدى بعضها على بعض، والحيوانات ـ فقط ـ عندما تكون فى أقفاصها تشبه الانسان فى بيوته وفى مدنه، الجميع فى أقفاص من حديد أو من اسمنت أو من طين.. الانسان فى قيوده المادية والمعنوية.. والحيوانات فى أقفاصها.. فى حدائقها.. هذه مجتمعات الزحام والتزاحم والضغط والتضاغط..

وقد شاء الكاتب الأمريكى العظيم يوجين أونيل فى نهاية مسرحية «القرد كثيف الشعر» أن يجعل أحد أبطاله يدخل قفص القرود. يقف أمام القفص أولا، ويتساءل: اختبر ذكاءك.. أيهما القرد.. الذى أمام القفص أو الذى فى داخله؟ الجواب طبعا: كلاهما قرد.. فكلاهما فى قفص.. ثم عندما دخل أحد أبطال مسرحيته قفص القرود، كان قردا للمرة الثانية.. فهو فى داخل قفص من صنعه، ثم فى داخل قفص آخر.. أنه قرد مرتين!..

ولابد أن يكون هذا هو شعور الانسان عندما يذهب إلى حديقة الحيوانات.. فهو فى حديقة من القيود.. وهو عندما يدخل حديقة الحيوانات يكون مربوطا فى عقله وبعقله وفى قلبه، ومربوط الحذاء والبنطلون والقميص والساعة واليد والرجل. يجب ألا يمد يده.. وألا يمد رجله.. فكل شىء يحذره من ذلك.. ولكن عندما يرى أقفاص القرود فإنه يشعر بأن هذه القرود شبيهة به، دون أن يقول ذلك، ولعله عندما يرمى هذه القرود بالفاكهة أو حتى بالطوب.. فلانها تذكره بنفسه.. ولأنه يكره أن يرى نفسه هكذا.. وهو عندما يرميها بالطوب كأنما يطلب إليها أن تثور، ولكن تثور على من: تثور على الذى قيدها.. أى على الانسان.. لعله هو الآخر يقلدها فيثور على نفسه.. على قيوده!..

وليس غريبا ما يحدث فى حدائق الحيوانات من اعتداء الناس على الحيوانات.. انه موقف شاذ، ولكنه مفهوم.. فهو موقف متناقض: لأن الانسان الذى يطالب الحيوانات بأن تهرب من أقفاصها ينسى أنه هو الذى وضعها فى الأقفاص.. وينسى أيضا أنه هو نفسه عاجز عن أن يهرب من أقفاصه هو!!

فما الذى يحكمنا جميعا: هذه الأقفاص.. فالحيوانات فى حديقة.. والانسان فى الأقفاص..

وقديما جدا سئل الشاعر الجاهلى امرؤ القيس:

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر ... ولا لسان فصيح يعجب الناس

وقال أنه أجاب:

تلك «الموازين» والرحمن أنزلها ... رب البرية بين الناس مقياسا!

ولو لم يجب امرؤ القيس لعرفنا ان هؤلاء الحاكمين بلا سمع ولا بصر هى القوانين والقواعد والأصول والقيود..

ففى داخل جبلاية القرود حيث القرود بالمئات، زحام شديد حول زعامة هذه القبيلة، أى أن هناك تزاحما بالأيدى والذيول على من الذى يكون زعيما ومن الذى يكون من الحاشية، والسلم لأنه ضيق، فالعراك دموى، القوى يصعد وينتصر والضعيف يموت فى دمه، وفى القتال على السلالم، ومن أجل القمة، تضيع الصغار، ولا تكون أبوة ولا أمومة، وإنما يجد الذكور فى القبيلة أنهم أمام هذه المعادلة: السلالم أو الأسرة.. الذكور الذين عندهم طموح يدوسون قلوبهم وصغارهم من أجل درجة واحدة على السلم الصاعد، أو من أجل وضع أحسن، أو موقع أفضل، أو خطوة أقرب من الزعيم.

وهناك قواعد ذهبية لتكوين الزعامة بين القرود يتبعونها دون أن يعرفوا ذلك، ومن المناسب أن أنبه الآن بسرعة، أن اختيار القرود ـ ليس معناه أن الانسان أصله قرد. ولكن معناه أن أجداد أجدادنا كانوا يعيشون فى الغابات الشاسعة، وأن الحضارات قد نقلتهم إلى المدن التى هى أقفاص أنيقة، وكل ما حدث لهم ويحدث، يشبه ما يجرى للقرود فى أقفاصها.. ولابد أن يكون سلوك القرود أوضح إذا أردنا أن نفهم الانسان أيضا، وعليك أن تنظر أمامك ووراءك لتفهم ما الذى تفعله : أمام الأقفاص أو فى داخلها سوف تجد صورتين لمعنى واحد !

أما هذه القواعد الذهبية فهى.

١ ـ يجب على زعيم القبيلة أو الحريص على هذه الزعامة أن يظهر قوته، أو يتظاهر بها، والتظاهر بها مهم جدا، فالقرد الزعيم يجب أن يكون رشيق الحركة، منسق الشعر الغزير، هادئا، راسيا راسخا، لا يدخل فى معركة لأى سبب، فإذا أقدم على المعركة يجب ألا يظهر عليه القلق أو التردد، كأنه واثق من النتيجة وأنها لصالحه.

ونرى زعيم القبيلة يجلس بعيدا وعلى مكان مرتفع ، ويجلس حوله أفراد حاشيته، قريبين منه، وفى نفس الوقت بعيدين عن بقية القرود وهو يجب أن يكون أعلى مقاما، وأن يؤكد لهم دائما أنهم دونه.. وهذا أوضح عندنا ـ عند البشر ـ فى ملابس الحكام والعروش التى يجلسون عليها أو المقاعد الكبيرة العالية ذات الشكل الخاص، وفى ملابسهم ونياشينهم، وفى انحناء الناس للحكام.. وهذا الانحناء معناه أن الناس حريصون على أن يبدوا أقل طولا، وأن يظل هو أكثر طولا.. وهذا واضح فى السلام والتحية والانحناء وتقبيل اليد..

ولا يزال القضاة يضعون الشعر المستعار فى المحاكم، والقواد يضعون النياشين، والقساوسة يرتدون الملابس الفضفاضة.. وكذلك الملوك، وكذلك المحامون، والأساتذة يلبسون الأرواب ويقفون على منصات عالية.. ولا يكفى أن يكون الانسان كبيرا، ولكن من الضرورى أن يشعر بذلك وأن يتظاهر بذلك أيضا.. أى أن يبالغ فى ذلك.. فالناس العاديون لا يرون إلا ما هو واضح ولا يسمعون إلا ما هو صارخ ولا يتذوقون إلا ما هو لاسع.. وفى جبلاية القرود يحدث ذلك كله أيضا.

٢ ـ على الزعيم أن يهدد معاونيه من حين إلى آخر حتى يكونوا على حذر، أو فى حالة خوف. نظرة واحدة تكفى، رفع اليد، أو تحريك الذيل وبذلك تشعر الحاشية، إنها حاشية وأنها ليست الزعامة نفسها.. وزعيم القرود يفعل ذلك كثيرا، وبالغريزة، وهو موقف حكيم، فالقرود كالناس لا تخاف إلا بالعين.. بشرط أن يكون الزعيم قادرا على التخويف ـ دون أن يظهر عليه أى تأثر، فإن التأثر يجعل القرود تحس ـ غريزيا ـ أنه هو أيضا مثلها يتألم.. (أن حادثة المكتشف الانجليزى كوك معروفة. فقد ظن أهل هاواى أنه إله أشقر ذهبى الشعر أحمر البشرة، وأنه لا يموت.. فلما ضربوه بالسهام وسالت دماؤه، أدركوا أنه هو أيضا مثلهم، فتشجعوا وقتلوه!)*

٣ ـ فى حالة المعارك الجسمية يجب أن يكون الزعيم وحاشيته قادرين على النصر..

ولكن المعارك بين قبيلتين من القرود تبدأ عادة بتهديد من قبيلة أخرى. وعندما يفشل التهديد النفسى، يبدأ التهديد الجسمى، وبتقديم زعيم قبيلة

* راجع كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» وكتابى «أعجب الرحلات فى التاريخ»

من زعيم آخر، هنا فقط ينتصر الزعيم الأهدأ، وينتصر أيضا هو ومعاونوه، ولكن يجب أن ينتصر هو عليهم أولا.. فإذا أنهزم أمامهم انضموا إلى أعدائه.

ولذلك نرى فى جبلاية القرود أن التهديد أفضل من الاشتباك، لأن التهديد يؤدى إلى أن تقف قبيلة بعيدا دون أن يحدث اشتباك ودون أن يحدث سقوط لمواقع القوة فى الجانبين.. ومن المعارك المشهورة فى جبلاية القرود فى طوكيو اقترب قرد شاب من زعيم القبيلة وكان وراء القرد الشاب عدد من الاناث والصغار.. ولم يكد الزعيم الكبير يرى ذلك حتى راح يسقط الأحجار من فوق، وشاءت الصدفة أن تسقط الطوبة على رأس القرد الشاب ويموت، مجرد صدفة، وعندما مات أدارت الاناث ظهورها للزعيم وانتهت المعركة !.

٤ ــ ويظل زعيم القرود على رأسهم جميعا إذ كان اذكاهم، أى إذا كان لا يعتمد على العضلات فقط وانما على الأعصاب أيضا. فيكون سريع الحركة. سريع رد الفعل. قاسيا غاشما لأنه هو الذى سوف يتخذ القرار النهائى، وفى جبلاية القرود أيضا، لا يهم شكل القرار الذى سوف يتخذه الزعيم، ولكن المهم «طريقة» اصدار القرار.. والقرار الخاطئ الأنيق أفضل عند أفراد الجبلاية، من القرار السليم السخيف.. المهم دائما «صورة» القرار وليس القرار نفسه.. ولذلك تجد زعيم القبيلة عندما يقرر الدخول فى معركة أو التهديد بها، فإنه يقوم بحركات تقنع رعاياه، حركات أنيقة قوية غريبة، تبهر رعاياه، ولا يهم بعد ذلك ما الذى يفعله ولا كم عدد الضحايا !..

٥ ـ الغريزة هى التى علمت زعيم القـرود أن يبـدأ بـالقضاء علـى الخلافات بين معاونيه. ومن الغريب أن يفتعل زعيم القرود معركة تـافهة بين معاونيه.. وهنا فقط يدخل أفراد الحاشية فى معارك فرعية، وقد يقتـل واحد منهم الآخر، ويظل الزعيم يتفرج، فإذا طالت المعركة فإنه يحسـمها فورا بالقضاء على أقوى الذكور فى حاشيته وخصوصا إذا كان شابا، فزعيم القبيلة حريص على أن يؤكد للشباب أنه القوى، وهو حريص أيضا علـى أن يغرس فيهم الخوف فى سن مبكرة.. وفى نفس الوقت حريص على بقـاء القبيلة، لأنه لا بقاء لها بغير شباب من القرود، وأهـم مـن ذلك كلـه أن الزعيم يريد أن يحدد نشاطهم، وأن يجردهم من أية رغبة فى القيام بمعارك بعيدا عنه أو قريبا منه أو ضده!.

٦ ـ وزعيم القرود يكافئ معاونيه وحاشيته من حين إلى حين.. أى أنه يؤكد لهم أن الوجود بالقرب منه مفيد وأنهم يستحقون الامتياز عن غيرهم من القرود. والموقف يحتاج إلى براعة ويقظة، فإن أعطاهم كثيرا اعتادوا على ذلك، واحسوا انهم يأخذون ما يستحقون، وأنه لا يتفضل عليهم بذلك، وأن منعهم، أحسوا بالمرارة والضيق. ولذلك فالموقف يحتاج إلى براعة من زعيم القرود، يجب أن يمنح بحساب وأن يمنع بحساب.. ويجب أن تـكون هناك مسافة بينه وبين أقرب الذكور إليه.. ولذلك فالزعيم عادة بلا أصدقاء وهو يفضل أن يكون بلا أصدقاء، من أن يكون له أصدقاء يتربصون بـه.. ويفضل أن يكون مخيفا على أن يكون محبوبا، وأن يموت من البرد فى قمة الجبلاية، على أن يتراخى فى دفء الصداقة والمحبة..

ويروى أحد العلماء أنه حدث أن وضع عدد من القرود فى سيارة انتقلت بهم من احدى الولايات الأمريكية إلى ولاية أخـرى، وكان عـدد القـرود

كبيرا، ففتح للقرود فتحة صغيرة فى سقف السيارة، وكان المطر غزيرا، باردا، وتجمعت القرود كلها فى مكان واحد، ولكن زعيم القرود ظل واقفا فوق صندوق خشبى تحت الفتحة مباشرة، ولم تكد تصل السيارة حتى وجدوا القرد الزعيم ميتا من البرد.. وكان فى موته تأكيد لهذه النظرية، ولكن كان الثمن فادحا لأن القرد كان من نوع نادر!

٧ ـ حول الزعيم تتجمع اناث القبيلة، والاناث والصغار هم الجانب الضعيف، وفى نفس الوقع هم مستقبل القبيلة، وإذا وقع أى عدوان على الضعفاء فإنه يرد عليه بعنف. وهى فرصة لاستعراض قوته. وفى نفس الوقت حرص غريزى على كيان القبيلة وتأديب لكل الشبان المتمردين فى داخل القبيلة.

٨ ـ زعيم القبيلة هو الذى يقرر ما يراه مناسبا لأفراد قبيلته.. إذا وقف وقفوا.. وإذا أكل أكلوا، وإذا نام ناموا.. وهذا ما لا يستطيعه شعب أو زعيم بين الناس. ولكن على زعيم جبلاية القرود أن يثير رعاياه من حين إلى حين، ليؤكد للقبيلة أنه موجود وحتى لا يعتاد أفراد القبيلة على الهدوء الذى يؤكد أن وجوده مثل غيابه، لا أحد يشعر به، ومن العجيب أن بعض زعماء القرود يثيرون المعارك فى داخل القبيلة، فإذا تحولت إلى معارك دموية يتدخل الزعيم ليفضها، فكأن المطلوب هو تحريك المشاعر فقط.. ومن المواقف المدهشة أن تجد زعيم القبيلة قادرا على افتعال الغضب والقسوة، دون أن يكون هناك أى مبرر.. أنه استعراض لقوته. وتثبيت لأفراد القبيلة: كل فى مكانه البعيد عن عرش الزعامة!.

٩ ـ وكثيرا ما نجد زعيم جبلاية القرود يصادق أحد الذكور من معاونيه بعض الوقت ثم يتركه ويتجه إلى ذكر آخر.. إن هذه الحركة سياسية أو

دبلوماسية بارعة، أنه يثير الغيرة بين الذكور ويقربهم إليه ويبعدهم عنه ويجعل الطمع فى رضائه: أعز أمانيهم.

ولا يتردد زعيم أى قبيلة فى أن يكون زعيما لقبائل أخرى، والمثل يقول: السمكة فى بحيرة صغيرة تفضل أن تكون سمكة كبيرة فى بحيرة كبيرة أيضا ـ كذلك زعيم الجبلاية الواحدة..

وأنت حر بعد ذلك فى أن تكتفى بالنظر إلى جبلاية القرود لتجد معنى لهذا كله. أو تنظر فى المرآة، فترى نفسك وغيرك، أنه نفس الشىء..

ومهما اتسع المجتمع، ومهما تقدمت وارتقيت فأنت محصور أو مقيد فى مجموعة من العلاقات: لك أصدقاء شخصيون ومعارف، ولك مجتمع من الزملاء فى العمل، ولك حرفة أو عمل خاص، ثم لك أنواع من اللعب والتسلية.. وكل نشاط، وكل علاقة، تضعك فى إطار، أو فى قفص.

وليس من الصعب أن يكون كل إنسان أو حيوان زعيما. ولكن الأقلية فقط هى القادرة على ذلك..

ولكن هناك عددا أكبر حريصون على أن يتظاهروا بأنهم زعماء، أو على أبواب الزعامة أو قريبون منها.. وإذا كانوا لم يصلوا إلى نهاية السلم فإنهم يتوهمون ذلك.

فلننظر إلى ما تفعله الحشرات..

هناك حشرات سامة. هذه الحشرات السامة تلسع طبعا.. وجسمها مغطى بلون أسود وخطوط صفراء كالدبور مثلا. وهذه الدبابير قد لسعت القرود وغيرها من الحيوانات كثيرا. فعرفت القرود أن هذه الحشرات بألوانها الصفراء والسوداء ضارة، فابتعدت عنها واحترست منها..

وأهم من ذلك أن حشرات أخرى قد استعارت ألوان الـدبور الصـفراء والسوداء ودون أن تكون سامة، أصبحت مخيفة للحيوانات.. واستطاعت أن تعيش وتتكاثر تحت ستار هذه الألوان المخيفة. وبذلك تجنى هذه الحشرات ثمرات جهود حشرات أخرى.

وهذا ما يحدث فى المجتمع الانسانى، أى حديقة حيوان الانسان. فالذى يبحث عن موقع أو عن مركز مجتمع فإنه يستعير أساليب الأقوياء. وان لم يكون قويا. وليس من الضرورى لكل حشرة سامة، لكى تؤكد أنها سامة، أن تلسع كل الحيوانات.

يكفى أن تهدد بذلك. وليس من الضرورى لأى إنسان أن يكون قـويا فـإذا كان، استعرض قوته.. ولكن فى استطاعته أن يتظاهر بأنه قوى. وأنه له صلات وعلاقات وأنها أسلحة وألوان تخيف غيره من الحيوانات الأخرى فى الحديقة!

ففى سنة ١٣٦٣ قرر البرلمان الانجليزى تنظيم الزى لـكل الـطبقات الاجتماعية. بحيث يظهر الأغنياء بين الفقـراء. ويبـرز الأقـوياء بيـن الضعفاء.. فلا يستعير أحد أزياء أحد..

وفى عصر النهضة فى أوربا وجدنا أن المرأة التـى لا تـرتدى مـلابس طبقتها يضعون عنقها فى طوق من الخشب.. عقابا لها وفضيحة لأهلها..

وفى الهند نجد أن كل طائفة لها طريقة خاصة فى لف عمامة الرأس، بما يتفق مع مركزها وقوتها..

وفى عصر الملك هنرى الثامن فى انجلترا كان محرما علـى كل سـيدة لا يستطيع زوجها أن يتبرع بحصان للملك أن تضع على رأسها برنيطة من القطيفة أو تضع فى عنقها سلسلة ذهبية.

وفى بعض الولايات الأمريكية منذ مائتى عام كان محرما على المرأة أن تضع على رأسها «إيشاربا» من الحرير إلا إذا كان زوجها يملك أكثر من ألف دولار.

فلا يحق لأحد أن يستعير ملابس أحد. أو يستعير مظاهر القوة والثراء من أحد.. على عكس ما تفعل بعض الحشرات.

ولكن اليوم، بعد أن ذابت الفوارق بين الطبقات، وبعد أن أصبح الأقوياء يستمدون قوتهم من الضعفاء والفقراء، وبعد أن أصبح الحاكم يفخر بأنه من الشعب وليس من السماء، فقد اختلطت الملابس والأزياء والأسلحة، وإذا كانت هناك سيدة تضع فى عنقها عقدا من اللؤلؤ الطبيعى.. ففى استطاعة الملايين من النساء أن يضعن عقودا من اللؤلؤ المزروع.. وإذا كانت سيدة ثرية تستطيع أن تضع خاتما من الماس ففى استطاعة سيدة أخرى فقيرة أن تضع خاتما من الزجاج فى حجم ولون الماس.. لقد ساعد العلم الحديث كل الفقراء أن يكونوا أقل فقرا، وجعل الأغنياء أقل قوة.

وإذا كان بعض الأغنياء يصيدون الطيور، ففى استطاعة الفقراء أن يقتنوها محنطة.. وإذا كان بعض الأغنياء يشترون اللوحات الفنية النادرة، ففى استطاعتنا جميعا أن نعلق على جدراننا صورا أنيقة ودقيقة لها.. وإذا كان القادرون يذهبون إلى الحفلات الغنائية والموسيقية، فعندنا هذه الحفلات مسجلة على اسطوانات.

وإذا كان العلم الحديث قد جعلنا نشارك القوى والغنى، فإن الصراع من أجل السلم كان ثمنه فادحا. فقد كانت الأسرة هى الضحية أو الأطفال على الأصح.

ودون أن ننظر إلى الأب المشغول أو المستغرق فى عمله. فإنه مـأخوذ مسلوب مسحوب من كل حواسه خارج البيت. وهو يجىء إلى البيت ليستريح قبل أن يستأنف الجولة التالية فى الصراع من أجل الدرجة أو العلاوة أو المركز. وقد يرتفع. يصعد درجة. أو يرتفع به السلم درجة ولكن أطفاله الصغار لا يرون فى هذا الذى يعمله الأب شيئا ذا قيمة. أنهم صغار. وفى عدم تقديرهم له، عقوبة لا يستحقها ومع ذلك لو خيرنا الأب بين الدرجة أو المركز وبين أولاده، لاحتار، ثم اختار السلم الاجتماعى!.

وهذا المجتمع الذى نعيش فيه، لا يختلف عن جبلاية القرود : ضغط إرهاب. خوف من النجاح وخوف من الفشل أيضا. وقد ينجح الانسان فى صعود السلم ويفشل فى البيت. وقد يسقط على السلم كما سقط فى البيت أيضا.

فماذا يحدث بعد ذلك؟

نعود إلى الحيوانات. نلاحظ أن الحيوانات ـ القرود دائما ـ عندما تدخل فى معركة. فإنها تضرب وتهدد ثم فجأة نجد واحدا من هذه الحيوانات قد هجم على أنثى فمزقها أو على قرد صغير فضربه حتى الموت. ما علاقة هذا القرد الصغير بالمعركة؟ ما ذنبه؟ ما علاقة أب لم يأخذ علاوة بأن يلقى بكلبه من النافذة. أو بأن يضرب خادمته أو زوجته أو يلقى بالطعام على الأرض.. هناك علاقة طبعا. وهى أن الانسان أو الحيوان عندما يغضب فإنه يوجه غضبه إلى ناحية أخرى.. وبذلك يخفف من حدة التوتر. فبدلا من أن يضرب زعيم قبيلة أخرى، فإنه يضرب الأنثى أو قردا صغيرا.. وبدلا من أن يضرب رئيسه فى العمل يضرب خادمته، أو زوجته أو يكسر طبقا أو بعض أصبعه.. بعض الحيوانات تقطع يدها.

أو تمزق نفسها. فهى لا تستطيع أن تعتدى على عدوها أمـام الأقفـاص الحديدية ولذلك تعتدى على نفسها.

وربما كان الانتحار قريبا من هذا المعنى. فالذى ينتحر هو إنسان أراد أن يقتل إنسانا آخر، ولكنه لم يستطع فقتل نفسه. صحيح أن هناك بعض الناس ينتحرون هربا من الألم. كالمريض مثلا الذى ينتحر فهو لم يقتـل نفسه لأنه فشل فى قتل الميكروب أو الطبيب ولكنه قتل نفسه تخفيفا للألم. وقضاء عليه بالقضاء على نفسه!.

ونسبة الانتحار فى المدن أعلى من القرى، أى حيث تـكون المنـافسة أشد، وحيث يكون الزحام أعنف. والانتحار بين الرجال، أكثر من الانتحار بين النساء.. ولكن بعد أن دخلت المرأة ميدان العمل ونافست وزاحمـت وتوترت وتعصبت، ارتفعت نسبة الانتحار عند النساء ــ أحسن!.

وحيث تكثر الجرائم يقل الانتحار، كأن المجتمع له حصة معينـة بيـن الموتى. أى الذين يقتلون أنفسهم أو الذين يقتلون غيرهم. والانتحار غيـر موجود بين الحيوانات. ولذلك فالانسان عندما يصف نفسه بـأنه حيـوان فريد فى نوعه، لا يكون مبالغا فى ذلك!.

وبعض الناس يقتل الفتاة التى يحبها ثم يقتل نفسه. أو يقتل أطفاله ثم يقتل نفسه. والموقف هنا غريب. فهو أولا قرر أن ينتحر وفى نفس الـوقت لا يريد لأطفاله وزوجته أن يتعذبوا من بعده. فقتلهم ثم قتل نفسه، وهـو يقتل نفسه بعد ذلك بسرعة.. لماذا؟ لأن عملية قتل أولاده وزوجته وحبيبته تخفف توتره الشديد.. ولو سكت بعض الوقت لاستراح وعدل عـن قتـل نفسه.. ولذلك فهو يسارع بأن يقضى على نفسه!.

وكلما كان هناك ضغط وكبت في أى مجتمع، كان الناس حريصين على رؤية العنف في الكتب أو على الشاشة. ولذلك انتشرت قصص الجرائم، وأفلام الدم والرعب. ولا يزال مؤلفو القصص المخيفة هم أكثر الأدباء انتشارا وأكثرهم مالا أيضا !.

وهذه القصص وهذه الأفلام «تحول» كتبهم وكبتهم من وجهة إلى وجهة أخرى.. هذه الأعمال العنيفة على الورق وعلى الشاشة تقوم (بتحوير) و (تحريف) و (تجنيب) للضيق الموجود عند الناس — ولا يزال هذا المثل الشعبي صحيحا : من لا يقدر على الحمار، يقدر على البردعة.

ويبدوا أن الانسان يجد متعة في القسوة على إنسان آخر أو على حيوان آخر.. وعندما حاول بعض الناس الطيبين أن يؤلف جمعية للرفق بالحيوان فإن البابا بيوس التاسع قد اعترض على ذلك. وقال : لا حقوق للحيوانات إنها ضحية الانسان هكذا خلقها الله !.

وكان الرومان يطلقون الوحش على المجرمين ويتفرجون ويصرخون بمنتهى المتعة.. ولا يزال الأسبان يطلقون الأبطال على الثيران حتى الموت، موت الثيران غالبا. ولهم أعياد سعيدة.!

ونحن عادة لا نقتل الحيوان إلا لأربعة أسباب : الطعام أو للقضاء على الأوبئة. أو عند استخدامها في التجارب العلمية أو للمتعة.

إلى أن جاءت نظرية داروين «هذه النظرية ردت للحيوانات اعتبارها» ووضعتها في بداية السلم. وجعلت أجدادنا قريبين منها أو شبيهين بها. أو هي أصلنا. وفي نفس الوقت أرغمت الانسان على التواضع أو جعلته منحطا.

وما دامت الحيوانات فى الأقفاص، والنــاس فى المــدن وفى المصــانع والمكاتب وما دام هذا الزحام كان العنف أسلوب الحيــاة. وكان الخــوف نتيجتها. وكانت الأسرة هى الضحية ولكن رغم هذا كلــه فــإن الانســان استطاع أن يكون أقوى من ظروفه.. وأعلى من عقباته. وســيد مصــيره. فكأن الانسان قد خلق العقبات ليجتازها.. والمشاكل ليحلهــا.. والقيــود ليتحرر منها.. ويتحرر بها أيضا..

ليس الجـــوع
ولكنه الملل !
(٣)

حالا سأحدثك عن اهتماماتنا بالجنس الآخر.

فعندما انتقل الانسان من الغابة إلى المدينة، حدثت له انحرافات أخرى فى سلوكه. فإذا وجدت إنسانا يأكل، فليس هذا دليلا على أنه جـائع. وإذا وجدته يشرب، فهذا لا يدل على أنه عطشان. فهناك أشياء كثيـرة نـأكلها دون أن يكون السبب هو الجوع : اللب والسودانى والحمص والشـيكولاتة وغيرها نأكلها لا لأننا جائعون.

وكل أنواع العصير والمشروبات الغازية والكحولية. كلها نتناولها لا لأننا عطشانون.

وننام أيضا لا لحاجتنا إلى النوم ونمشى فى الشوارع سـاعات دون أن يكون عندنا مشوار، أو يكون هناك هدف لهذا المشى كله.

وإنما يأكل الانسان لا لأنه جائع، ولكن لأنه عصبى.. لأنه فى حالة زهق أو قرف أو ملل.. كذلك يشرب، ويمشى فى الشوارع دون هدف.

ومعنى ذلك أن للاكل والشراب والمشى والنوم وظائف أخرى غير الاحتياج الضرورى لها.. أو الاحتياج الحيوى، وإنما لأن لها وظائف أخرى جديدة. هذه الوظائف الجديدة قد ظهرت بسبب البيوت المقفلة وبسبب المكاتب والمعامل والمصانع والورش، وبسبب الخوف من اليوم ومن الغد والخوف من الآخرين. والخوف دون أن يكون هناك سبب محدد.

وإذا نحن اسرفنا فى هذا النوع من الطعام تعبنا، وإذا أكثرنا من هذه المشروبات تفجرت أكبادنا. وكان الرومان يسرفون فى الطعام لدرجة أن الواحد منهم يضع ريشة دجاجة فى حلقه ليخرج الطعام من معدته.. ثم يتناول طعاما أفضل ـ بعض أبناء الريف يفعل ذلك!.

وما حدث لوظيفة الطعام، حدث لوظيفة الجنس أيضا.. أى ـ للعلاقة الجنسية بين رجل وامرأة، أو بين ذكر وأنثى فى حديقة الحيوان وفى جبلاية القرود بصفة خاصة.

فوظيفة الجنس الأساسية أن تستمر هذه الحياة، ويتوالد الانسان والحيوان. ومعروف أن العلاقة بين رجل وامرأة ستؤدى حتما إلى ظهور أطفال. ولم تعرف الانسانية إلا فى وقت متأخر تحديد هذا العدد من الأطفال وكل الديانات القديمة تحاول أن تجعل الغرض من لقاء رجل وامرأة هو أن يكون عندهما أولاد. والديانة المسيحية كانت ترى فى التقاء الجسدين قذارة. وكان الرجال والنساء يلتقون فى فراش واحد بالملابس كاملة. وكان بعض رجال الدين ينادون بعدم تنظيف الجسد حتى ينفر منه الناس، رجالا ونساء. وعلى الرغم من أن رجال الدين، رهبانا وراهبات، ينادون بأن الجنس من أجل استمرار الحياة فانهم أنفسهم يرفضون الزواج وان كانوا يخفون علاقاتهم الجنسية!.

ثم ظهرت حبوب منع الحمل لتوقف هذا الانفجار السكانى فى العالم وهو أسلوب ضرورى لانقاذ البشرية من الجوع والمرض أو التدمير الذاتى.. وأن كانت بعض فئران الحقول تستطيع أن تعوض ما تخسره بأن تتناسل بسرعة. وفى نفس الوقت تستطيع أن تتخلص من هذه الزيادة الهائلة بالانتحار الجماعى فهناك ملايين الفئران التى لم تنتحر فهى بسرعة تقوم بتعويض ما مات منها!.

ولحسن حظ الانسان أنه لا يفعل ذلك وإنما تقوم الحروب بهذه المهمة.. فالحروب هى نوع من الانتحار الجماعى انتحار الانسان مستخدما أحدث الأسباب العلمية للقضاء على نفسه. ثم تجىء التطورات الطبية الحديثة بانقاذ الأطفال من الموت.. ويتكاثر الناس من جديد!.

وسوف يجىء الوقت الذى يجب أن يحصل فيه الانسان على تصريح بأن يكون أو لا يكون له أولاد. وبذلك يتزايد عدد السكان فى أى دولة، وفقا لخطة علمية موضوعة، فيكون الأطفال حسب الطلب. ولا يجىء الطفل غير مرغوب فيه.. غير مرغوب فى جوعه أو مرضه أو مزاحمته لأطفال آخرين. وإلا كان ذلك نوعا من تسجيل هدف تسلل فى «شبكة» المجتمع!.

ويمثل اللقاء الجنسى عند كل الحيوانات أيضا ـ ضرورة الزمالة بين ذكر وأنثى أو التلازم بين الجنسين. مهما كانت الظروف وكل ما يفعله المجتمع هو عادة.. أن يتساءل عن طبيعة هذه العلاقة.. هناك مجتمعات تسمح بالعلاقة إلى أى مدى. وتضع العبء على كتف الزميلين. ولكن هناك مجتمعات أخرى تحتم أن تكون الزمالة شرعية. خطبة أو زواجا. وهذه العلاقة لابد أن تكون شرعية، لحماية الاثنين معا.. أو لحماية الأطفال.

وحتى إذا لم يجد الانسان زميلا أو رفيقا أو صديقا، فانه يحلم به، يتخيله ويراه، ومن الممكن أن يتحقق له نوع من الاشباع الجنسى أثناء النوم. وهذا طبيعى عند الجنسين بل أن بعض الحيوانات المنزلية تفعل ذلك، من النظر إلى الكلاب أو القطط فى البيت نجد أنها تحلم وأنها تثار جنسيا أثناء النوم.

حتى القديسة تريزة نفسها فى اعترافاتها وفى تسجيل أحلامها لم تكن بعيدة عن هذا المعنى. فهى تقول: رأيت ملاكا عملاقا يحمل سهما ذهبيا. وفى نهاية السهم قطعة من نار، والسهم نفذ إلى أمعائى.. وشعرت بألم رهيب، ولكن بعد ذلك أحسست براحة ومتعة، ولم أفهم كيف أن العذاب مقدمة لاحساس لذيذ تمنيت أن يطول حتى الموت!.

وليس من الصعب على علماء النفس أن يضعوا كلمات أخرى لهذه المفردات التى استخدمتها القديسة تريزة. وكل أحلام الشبان والشابات تدور حول أشجار وثعابين ومظلات وأعمدة وأوراق وموز وتين وحدائق وأنهار وجبال وسلالم وسكاكين.. وكلها ذات معنى واحد: إن هذه الأحلام جنسية فى الدرجة الأولى.

وإذا عدنا إلى حديقة الحيوانات. فسنجد أن السجن الطويل للحيوانات قد دفعها إلى الانحراف الجنسى. فليس الجنس عندها للنسل وإنما لأسباب أخرى جديدة. لم تكن معروفة أيام حياتها فى الغابة.

وكثيرا ما وجدنا قردا ذكرا يتمسح فى الجدران وفى أغصان الشجر.. وكذلك يفعل الفيل بخرطومه.. وتفعل القنافد عندما تمشى على ثلاث أرجل.. وكذلك تفعل الاناث عندما تتمسح بعضها فى بعض أو تستعين بالأحجار أو الأشجار.. أما الدرفيل فإنه يعرض نفسه لنافورات المياه.. والقطط والكلاب فى البيوت تتمسح فى أصحابها طويلا وفى الجدران أيضا.

وقد تعلم الانسان أنه إذا رأى الأنثى فانه لا يهجم عليها. ان الحضارة قد وضعت لذلك الكثير من القيود. لذلك فــالذى لا يلمس بيــده يلمس بعينــه.. والذى لا يلمس بعينه يلمس بأذنه.. أو يقرأ فى كتــاب عــن الجنس.. أو يتفرج على فيلم أو على مسرحية.. وكل ذلك نوع من الاســتطلاع الجنسى. أى الاقتراب من بعد، أو الاقتراب جدا، والابتعاد جدا فى نفس الوقت.

وإذا كان الصيد عند الانسان القديم كان يحتاج منه إلى الاســتطلاع فيعرف مكان الفريسة. وكيف يمكن أن يصيدها، فان الاستطلاع قد أصبح بعد ذلك أسلوبا فى الحياة. فالانسان يريد أن يعرف عموما. أن يعــرف كل شيء. ولذلك يسأل ويتابع ويلاحظ. وقد بدأ الاستطلاع جنسيا ثم أصــبح عاما. كما تنوعت أساليب المشى، فأصبحت جريا ومشــيا علــى الحبــل وسباحة وانزلاقا ومشيا على اليدين.. فكذلك الاســتطلاع الجنسى أصــبح أشكالا وألوانا.. وقربا وبعدا من الجنس الآخر.. ومتعة وحــرمانا فى نفس الوقت. فالمتعة أن ترى والحرمان ألا تتذوق. والمتعة أن يصــبح الــواقع خاليا من الجنس الآخر والعذاب أن تكون الأحلام هى المليئة.

ومن أشكال الاستطلاع: الزمالة والصداقة.. والحب .ولكن إذا حــاول الانسان أن يتخطى حدود الاستطلاع، فإن المجتمع يتدخل ويضع العقبات. والعقبات تغرى بالوقوف أمامها أو التغلب عليها أو الاستسلام لها. وعنــد الاستسلام للقيود الاجتماعية تلتقى قوة المجتمع وإرادة الفرد.

وحياة المدينة أو جنون المدينة. هو الذى دفع الانسان إلى أن يتخــذ الجنس وسيلة للقضاء على الملل. فقط لأن يخفف التوتر النفسى الشديد.. وهذا الملل هو الذى جعل الانســان ينــوع فى أشــكال وألــوان الجنس وأوضاعه. ولابد أن يكون الأديب الفرنسى الشاذ المــركيز دى صــاد كان

يعانى من الملل الشديد، ولذلك درس الجنس وأوضاعه وأشـكاله.. وليس من الصدفة أن يؤلف أهم كتبه الجنسية وهو فى داخل السجن.

وقد أجريت تجربة على عدد من الشبان: وضعوا فى تـوابيت منفصـلة وارتدوا ملابس واسعة. ووضعوا فى أيديهم جوانتيات. وتركوا وحدهم بضعة أيام، لقد ضاق هؤلاء الشبان حاولوا أن يتحركوا، فلم يستطيعوا، حـاولوا أن يفعلوا أى شىء لم يتمكنوا راح بعضهم يغنى. وبعضـهم راح يتـذكر الحانا معروفة ويرقص. ولكن بعد ذلك غمرهم الملل واكتسحهم. وهربوا من هذه الأقفاص. لقد ثاروا على الملل. وليس الملل معناه: ألا يجد الانسان ما يفعله. ولكن معناه أيضا أن يجد الانسان ما يفعله ويضيق به ويضـيق بنفسه أيضا!.

وبعض القرود تهرب من الملل بأن تقطع أظافرها أو ذيـولها أو تضرب رءوسها فى الجدران أو تلعب فى آذانها أو أنوفها أو أصابعها ـ كثيـرون مـن الرجال يفعلون ذلك ـ وبعضها ينكش شعره.. ثم إن هذه الرغبة تثيـرها جنسيا. وينفردون بالاشباع الجنسى، دون الحاجة إلى أنثـى ـ كذلك كان يفعل الأديب الفرنسى جان ـ جاك روسو!.

ويمكن ملاحظة ذلك بصفة واضحة إذا وضعنا قردا ذكرا مع قردة أنثى وكل منهما من فصيلة مختلفة تماما. وتكون النتيجة أن يـظل القـرد فى مكان بعيد، وكذلك الأنثى. ويحاول كل منهما أن يثير نفسه جنسيا دون أن يتجه إلى الآخر. كأن الواحد منهما ليس موجودا. أو تمـاما كمـا يعيش الانسان فى عالم من صنعه.. من خياله، ثم يثير نفسـه، ويحقـق رغبـاته بنفسه أيضا!.

وكثير من رجال الأعمال يشعرون أثناء انشغالهم الشديد برغبة جنسية شديدة أيضا. وبعض هؤلاء الرجال قادر على أن يجد الـراحة بسرعـة.

وبعضهم يترك عمله من أجل هذا الغرض ثم يعود بعد حين. وفى نيـويورك وفى لندن قد اهتدى رجال الأعمال إلى حلول سريعة ففى إمـكان أحـدهم استدعاء اية واحدة من الجنس الآخر ويستأنف نشاطه التجارى بعد ذلك.

وفى جبلاية القرود من الممكن أن تجد ذكرا ثائرا هائجا، يتقـدم نحـو ذكر آخر، والخطوة التالية هى أن يشتبك الاثنان فى معركة دمـوية ولـكن يحدث أن يوجه واحد منهم غضبه إلى شىء آخر.. كان يعض قـدميه، أو يضرب قردا صغيرا، أو يجد شيئا فى الأرض يأكله.. أما إذا ظهرت أنثـى فقد هدأت الأزمة. فيتجه واحد منهما إلى الأنثى. وبعد ذلك ينسحب، لأنه يكون قد خمد نفسيا.

وقد أصبح الجنس الآخر تجارة : دعارة.

والدعارة معناها أن يكون هناك لقاء جنسى مقابل مبلغ مـن المـال أو يكون هناك زواج مقابل فلوس أو مركز أى من أجل حماية الأنثى. دون أن يكون هناك حب أو تفاهم أو اتفاق فإذا كان الجنس علاقة لها ثمن : فهى دعارة.

والانسان قادر على أن يختار للأشياء والأفعال أسماءها وأن يختار لها أسماءأخرى أيضا. فالرقص العريان والتمثيل العريان : كل ذلك نوع مـن إثارة الاستطلاع الجنسى مقابل مبلغ من المال، ولأن العمليـات الجنسـية لا تكون كاملة أثناء الاستعراضات الراقصة. أو المسرحية أو السـينمائية، فإن اللقاء بين الرجل والمرأة يكون مبالغا فيه.. فالقبلات طويلة والأحضان طويلة وعريضة وعميقة.. والملابس عارية أكثر مما هو مألوف.. كأن هـذه الاستعراضات تعوض المتفرجين عن كل ما ينقصهم.. أو كأنها تقول لهم : إذا لم تلمسوا بما فيه الكفاية، ففى استطاعتكم أن تروا بما فوق الكفاية !

وإلى جانب الراقصات وممثلات الاغراء، هناك موديلات التى يـرسمها الفنانون.. إنها تتعرى بثمن.. ولهذا نظير فى حديقة الحيوان أيضا. فكثيرا ما تجد أنثى القرود تستسلم لذكر لأنها فقط تريد أن تأكل أو لأن أمـامه وجبة غنية.. فيفاجأ الذكر بأن الأنثى قد أعطته ظهرها .. وهى حيل يلجأ إليها الجائع بين الحيوان والانسان. ومن الممكن أن نجد الأنثى الـواحدة تفعل ذلك لأكثر من ذكر لكى تطعم ابنها الصغير أيضا وقد تقع معركة بين ذكرين. وتنتظر الأنثى من الذى يفوز. وهى عادة التى تفوز. بالطعام لهـا ولطفلها وبنفس الثمن!

والذكر فى الانسان والحيوان. هو الذى يسود، والأنثى هى التى تسـتسلم. والاستسلام معناه أن ترضى وتقبل. وإذا ظهر ذكران بين القرود علـى وشـك القتال. فإن واحدا منهما يستسلم للآخر، كالأنثى وينتهى الاشكال. وبـالنسبة للاناث أيضا: فإن واحدة منهما تستسلم للأخرى بنفس الطريقة. ويكون هـذا هو الحل. والذين يذهبون إلى حديقة الحيوانات ويتفرجون على جبلاية القرود يظنون أن القرود لا تشبع من تعاطى الجنس والحقيقة أن هذا غير صـحيح. وإنما القرود فى حالة خوف من الناس. وفى حالة خوف من بعضها البعض وليس الذى يستسلم فيها من الذكور دائما!.

ولابد أن الفراعنة هم أول من وقع فى هذا الخطأ. فقد جعلـوا القـرد الذكر رمزا للفتوة الجنسية.. ولذلك احتفظت التمـاثيل والنقـوش المصريـة بالقرد فى حالة هياج جنسى كأن هذه الحالة تنتقل بالعدوى لكل من يراه أو يلمسه!.

ولا يزال الجنس مسيطرا تماما على أفكارنا فى العصر الحديث. ولا تزال القوة معناها: القوة الجنسية.. ومن المؤكد طبيا وتاريخيا أن نابليون كان

ضامر الرجولة وأن هتلر ناقص الرجولة. ولكن رغم ما ـ يستمتع به هذان الرجلان من قوة، فقد كان كل منهما حريصا على أن يشتهر بالقوة الجنسية أيضا. وفى غينيا الجديدة تجد أن رجال القبائل عندما يحاربون فإنهم يضعون اسطوانات من المعدن فى مقدمة أجسامهم ويربطونها فى أعناقهم وفى ذلك إظهار وتهديد بالقوة الجنسية.. وفى أيام روما القديمة كانت تقام الحفلات للذكورة.. وكانوا يحملون تمثالا عاليا لعضو الذكر، وكانت النساء تلف حوله الورود.

وكانوا يضعون تماثيل لعضو الذكر على المعابد وعلى مداخل الكنائس منعا للحسد. ولا تزال قرون الأبقار التى يضعها بعض الناس فى بيوتهم وفى مداخل البيت، لها نفس المعنى وفى أعمالنا اليومية اشارات جنسية ـ ولكننا ننسى دلالتها: فاخراج اللسان، ورفع الأصبع الثالثة من اليد، ورفع الأصبعين الرابعة والثالثة على شكل ٧ دليل على النصر، كلها ذات معان جنسية من أيام الرومان.

ومعظم الشتائم ذات دلالة جنسية.

والنكت النابية التى ترويها للجنس الآخر: هى محاولة للاقتراب منه وتشجيعة وتعريته.. فهى نكت ذات معنى هام: هو الاستطلاع الجنسى والعدوان فى نفس الوقت.

واستدراج المرأة إلى رؤية النساء العاريات فى الكباريهات لها معنى خاص. فنحن نحاول أن نعرض على المرأة احدى بنات جنسها عارية. وربما كان جسمها أجمل وأروع. ومعنى ذلك أن التى أجمل منها وأروع تعرى جسمها للجميع وبثمن تافه فلماذا لا تفعل ذلك، ولا يوجد عندها

سبب معقول للامتناع. ثم أننا نريدها أن تشعر بالخجل وبالعار من بنات جنسها. وفى ذلك تعذيب لها ومتعة لنا!.

فالذهاب إلى الكباريهات فيه عنف.. ولكن لا تسيل له الدماء.. تعرية الراقصات بعنف وفضح المتفرجات فى نفس الوقت!.

وعندما تغضب امرأة وتستقل سيارة طويلة عريضة وتنطلق بسرعة فإنها تحس بالضبط ما قالته «فرنسواز ساجان» أديبة فرنسا: كأننى القيت بنفسى فى حضن رجل، وأصبحت آمنة!.

حتى أشكال السيارات فيها عينات كبيرة.. ممدودة.

طويلة ناعمة وتخترق الطرقات وتخيف السيارات الأخرى والمشاة. وإذا توقفت السيارة - أية سيارة فيها رجولة صارخة، وخصوصا سيارات السباق. فسوف تجد الاعلانات على جانبى الطريق: كلها جنسية.

كل ذلك جديد على الانسان.

لأنه ترك الحياة البسيطة فى الغابة وأقام فى المدينة.. فى بيت كأنه قفص قرود فى حديقة الحيوان. وهو يحاول أن - «يتفلفص» فيتلوى، وينحرف بوعى.. أو من غير وعى!.

مشكلة.. « هم »
ومشكلة.. « نحن »
(٤)

ماهو الفرق بين رجل زنجى تقتله جماعة من البيض، ورجل أبيض تقتله جماعة من السود؟

والجواب: بالنسبة للقتيل لا فرق طبعا!.

لأن رجلا قد مات فى الحالتين!.

ولو كان أحد الوحوش هو الذى قتل الأبيض أو الأسود لاتحدنا ضد الوحش. ولكن ما الذى نفعله إذا كان القاتل إنسانا والقتيل أيضا؟ إننا نشعر بالأسى لما حدث. ولكن ما هو الجانب الذى نقف عنده ونؤيده؟ إن السؤال يتضمن الاجابة. فنحن لابد أن نقف إلى جانب أحد.. إلى جانب جماعة ضد جماعة. لأن الانسان متعصب بطبعه. ولكن لو أمكن أن تقف الانسانية كلها جماعة واحدة، ضد قوى الطبيعة التى تهلك الانسان، لكسبت الانسانية كلها وتقدمت.. ولكانت المشكلة الوحيدة التى تواجه الانسانية هى كيف تحد من توالد أبنائها.. كيف لا يلد الانسان ١٥٠ ألف طفل يوميا. كيف يكون أقل من ذلك. ومعنى ذلك أن تحتفظ الانسانية بهذا

العدد : ثلاثة آلاف مليون نسمة تعيش على قاراتها الخمس. ثم كيف تجعل هذا الرقم مقدسا !.

ولكن إذا حدث صراع، وقامت جماعة ضد جماعة، فليس من السهل على البشرية أن تعوض خسائرها فى الأرواح بسرعة. إن بعض الأسماك تفعل ذلك فى «مشوار» واحد بين جانبى المحيط الأطلسى. فقد تتعرض الأسماك فى هجرتها إلى الوحوش المائية.. ولكن بسرعة تقوم الأسماك بتعويض هذه الخسائر فى ليلة واحدة. أما الانسان فمختلف تماما. إن الانسان يحتاج إلى عناية أطول. إنه يحتاج إلى عشرين سنة على الأقل ليصبح قادرا على حياة مستقلة وفى هذه العشرين سنة يظل تحت عينى الأبوين. فطفولة الانسان أطول والانسان ليس كالأسماك يتكاثر بالكم، ولكنه يتقدم بالكيف. وتقدم الأسماك بالأرقام، أما تقدم الانسان فمزايا وتطور.. ولا بد أن يبلغ الانسان العشرين من عمره لكى يصبح مناسبا لأن يقتله إنسان آخر !.

ففيما بين ١٨٢٠ و ١٩٤٥ مات أكثر من ٩٥ مليون نسمة فى المعارك الداخلية والخارجية. فى الصراع بين جماعة وجماعة. ودولة ودولة.. وسياسة وسياسة ودين ودين !.

ومن الغريب أننا نصف هذه الأعمال التى قامت بها الانسانية فى ١٢٥ سنة بأنها «حيوانية» ووحشية. ولكن أين هو هذا «الحيوان» ـ الذى يفعل مايفعله الانسان لو وجدنا حيوانا يفعل بصغاره ونسائه وإخوته ما يفعله الانسان، لكان من الواجب أن نصف الحيوان بأنه إنسان موحش !.

وليس معنى ذلك أن الانسان يجب ألا يدافع عن نفسه. بل من الضرورى أن يدافع عن ثلاثة أشياء : نفسه وأسرته وقبيلته أما الانسان فلم

يتغير منذ أيام الغابة ولا الأسرة تبدلت ولكن الذى تغير وتبدل هو القبيلة.. أو الجماعة التى ينشب إليها فقد أصبحت للجماعة أسماء أخرى: المدينة.. الدين .. الحزب.. الهيئة.. المهنة.. الطبقة.. الدولة!.

فكأن الانسان عندما انتقل من الزراعة إلى الصناعة قد اتخذ الخطوة السليمة نحو الألم. فقد تضاعفت آلامه وتكدست أوجاعه ومخاوفه.

ففى عالم القرود نجد أن القبيلة أو الجماعة من القرود تأوى إلى مكان له خصائص نباتية أو مائية. والمكان ليس محدودا. وإنما هو مكان واسع ليست له معالم ولا خطوط مرسومة. ولكن إذا تقدمت قبيلة أخرى إلى هذا المكان وقع الصدام الدموى. وبعد ذلك تنسحب إحدى القبيلتين أو الاثنان معا إلى أماكن أخرى. ولأن القبيلة صغيرة العدد، فإن زعماء القبائل يتقدمون الصفوف دفاعا عن الجميع.

وعندما انتقل الانسان إلى المدينة، اقترب من الفرن الذى يحرق أعصابه ويثيره ويحطمه ويعذبه بالقتل. وظهر شىء آخر اسمه: التخصص.. والتخصص معناه أن المجتمع يستطيع أن يجعل بضعة آلاف من أبنائه يتخصصون للقتال والقتل. وتكفينا نظرة واحدة إلى تاريخ البشرية لنعرف هذا الطريق الذى ساد فيه الانسان من كارثة إلى مأساة إلى حرب إلى دمار..

ومن الدمار تستأنف الانسانية خطواتها وتعلو سلم التقدم.. وبعد ذلك تجىء حروب أكثر تدميرا.. ويجىء بعدها تقدم أكثر ازدهارا.. كأن الحروب قوة دافعة مهلكة ولكن إلى الأمام!.

ويمكن أن يقال أن الحضارة هى تطوير الانسان لأدوات البناء والهدم، لأدوات الحقل وأجهزة القتال!.

ومن العجيب أن الانسان عنده مقدرة على النهوض إذا وقع، وعلى أن يداوى نفسه إذا جرح.. وأن يمتص دمه، ويشرب عرقه ودمعه.. ويقف من جديد.. أقوى مما كان !.

فإذا قويت «جماعة» فإنها لا تسكت.. وإنما تتجه إلى غيرها.. وتبتلعها. أو تتحرك تحت شعارات غاية فى الرقة والانسانية وتساعد الجماعات الأخرى الصغيرة. ومعنى ذلك أن الجماعة تتعرض لضغط من الداخل، ولابد أن تستريح من هذا الضغط بأن توجهه إلى الخارج، وإلى معاداة جماعة أخرى لأى سبب. وهذا الاتجاه إلى الخارج يصرفها عن الحرب الأهلية. حتى الحروب الأهلية والثورات هى : صورة من صور الضغط الذى يحتاج إلى الانفجار، لكى يستريح الجميع.

والامبراطورية الرومانية عندما انهارت، كان ذلك بسبب الضغوط والتمزقات الداخلية.. والتمزقات الخارجية أيضا.. والتمزق فى الداخل والخارج هو صورة النهاية لحضارة من الحضارات. وفى أسبانيا عندما اضطرت إلى العدول عن أن تكون استعمارية لتقلصات داخلية مزقتها، وهدمتها.

فهناك دائما طاقة عدوانية يجب أن نجد لها مخرجا. والشعوب المتوازنة هى القادرة على أن تمتص طاقتها العدوانية فلا تتجه إلى أحد فى الداخل والخارج !.

ولكن كيف تتكون جماعة ضد جماعة.. كيف نقول «نحن» ونقول عن غيرنا، هم.. نحن نفعل .. ونحن لا نفعل.. وهم يفعلون.. وهم لا يفعلون.

من السهل أن ينقسم العالم بسرعة إلى : نحن وهم.. يكفى أن يكون هناك «اختلاف» ليكون هناك «خلاف».. فمثلا : خلاف فى الرأى.. فى اللون.. فى لون الشعر.. فى المهنة.. فى الموطن الجغرافى.

ونحن عادة لا نكتفى بصنع الخلاف إننا نبالغ فيه. ولذلك يحاول الأطباء أن يتكلموا بالانجليزية.. ويحاول الصحفيون أن يرووا الأخبار والنوادر والأسرار.. فإذا قال واحد منهم نحن.. كان معنى ذلك أنه قد صنع جماعة خاصة، وانضم إليها، وتحدث بلسانها.. ووقف بها فى وجه جماعة أخرى وأحس فى الحال أنه أفضل.. وأن لديه كل المزايا، ولدى الجماعة الأخرى كل العيوب.

أما إذا كانت الاختلافات فى الرأى، فأمرها سهل، ولكن إذا كانت فى لون البشرة أو فى المذهب أو فى الدين أو فى القومية، فالموقف فى غاية الصعوبة.. ويغرى بالتحدى وبالعداء والتعصب.. وهى جميعا مقدمات ضرورية للكراهية، والكراهية : أم الحرب !.

وليس أسهل من ميلاد حقد.. مثلا تقول : إن هذا الرجل ذا الشعر الأكرت قد ضرب طفلا.. ثم نقول : هذا الرجل ذو الشعر الأكرت شرير !.

ـ كل الذين شعرهم أكرت أشرار !.

ـ ذو الشعر الأكرت عدو لكل إنسان !.

ـ أمامك رجل شعره أكرت، اضربه قبل أن يضر بك !.

ـ أمامك الآن دليل قاطع : كل رجل شعره أكرت شرير !

اضرب كل الذين لهم شعر أكرت !.

هذا التطور السريع عن حادث فرد، حدث أو لم يحدث، ينتهى عادة إلى هذه النهاية العجيبة والمضحكة أيضا.

وإذا حاول واحد شعره أكرت أن يدافع عن نفسه، وهذا طبيعى، فالناس يقولون أنه قاتل.. اقتله قبل أن يقتلك !.

وأمامك طريقتان لكى «تنفد» بجلدك من الناس :

ألا يكون لك شعر أكرت. أما إذا كان شعرك أكرت، فمن الضرورى أن تكون معروفا مقربا من كل الذين ليس شعرهم أكرت، وأن تؤكد لهم باستمرار أنك إنسان مختلف عن ذوى الشعر الأكرت ـ هذا إذا استطعت.

وهناك علامات واضحة تميز جماعة عن جماعة : اللون !.

فعلى الأرض يوجد الجنس القوقازى، والجنس المغولى والجنس الزنجى..

أى الأبيض والأصفر والأسود.. والبيض عددهم ١٧٥٧ مليونا.. والصفر عددهم ١١٧١ مليونا والسود عددهم ٢١٦ مليونا.

ولكن لا توجد فواصل قاطعة بين هذه الجماعات المختلفة والمتميزة. هناك تداخل. هناك هجرات. وتقارب وتناسل. ولذلك تقاربت الألوان والأديان واللغات والطبقات والمصالح..

وكل التقدم الانسانى قد استخدم للابقاء على هذه الفواصل الملونة وفى نفس الوقت لتذويبها.

ففى الوقت الذى ننادى فيه بالحرية والمساواة.. وفى الوقت الذى يحصل الزنجى الأمريكى على نفس حقوق الأمريكى الأبيض تقع المعارك بين السود والبيض ويطالب السود باستقلالهم !.

ففى القرن السادس عشر والتاسع عشر تم شحن ١٥ مليونا من زنوج أفريقيا إلى أمريكا. وتم هذا الشحن تحت شعارات مزورة : دينية وتجارية وإنسانية.. ولم ير العالم كله إلا أن اناسا عراة قد عبروا المحيط. وأن

الذين نقلوهم كانوا مــن البيض ذوى المــلابس وذوى البشرة البيضــاء والعيون الزرقاء والشعر الأشقر!

والتصقت فى عيون الناس وذكرتهم أن أهل إفريقيا حفاة عراة وحــوش وأن استعبادهم رحمة بهم. وأن الرجل الأبيض يستحق التكريم لأنه تفضل مشكورا فنقل الزنوج من القارة السوداء إلى العالم الجديد.. إلى أخر هذه الأوهام والأكاذيب!.

فالبيض عندما جاءوا إلى إفريقيا لم ينقلوا الحقيقة كاملة.. وإنما اكتفــوا بأن قالوا: نحن كل شىء و«هم» لا شىء!.

وقد وصف رحالة هولندى كيف وجد غرب إفريقيا منذ ٣٥٠ عاما قال: المدينة نظيفة. الشوارع مخططة مستقيمة. بل أنها أوســع مــن شــوارع امستردام البيوت منسقة. متراصة فى نظام. وبيت الملك واسع. له حــديقة وله شرفات.

ولكن هذه العبارة التى جاءت فى مذكرات الرحالة الهولندى لا يعرفها إلا الباحثون المتخصصون. ولكنك لا تجدها فى أى كتاب. إلا إذا حاول واحد أن يقف إلى جوار العدل وينصف «هم» من «نحن»!.

وظهرت نظرية عملية تقول: إن السود من أب والبيض من أب آخــر.. ونظرية أخرى تقول: بل من أب واحد.. ولكن السود تخلفوا لأسباب غيــر معروفة أو لأسباب معروفة أنهم مختلفون فى تكوينهم العقلى!.

وهذه النظرية تعود بنا إلى نظرية أخرى متعصبة تقول: إن الاختــلاف فى الشكل أساسه اختلاف فى العقل والاستعدادات الأخرى!

وربما جاءت نظرية دارون نوعا من العدل القاسى: فالنظرية تحاول أن تقول أن هناك تشابها بين الانسان والقرد.. أو أن الانسان أصله قرد: الانسان الأبيض والأسود.

ومعنى ذلك أن الناس على اختلاف ألوانهم من أصل واحد.. ولكن هذه النظرية لم ترض الرجل الأبيض لأنها ساوته بالأسود. ولم ترض الأسود لانها ساوته بالقرد!.

وهذه النظرية تحاول بالقوة أن تلغى الخلاف الحاد بين الألوان.. تحاول أن تفعل بالمنطق ما تحاوله القوة فى أمريكا الآن. ولذلك سوف يلجأ السود فى أمريكا إلى مزيد من القوة.. إلى حرب أهلية.. حتى لايشعروا بالهوة الهائلة بين «هم البيض» و«نحن السود».

ويحاول البيض فى أمريكا أن يمدوا أيديهم عبر هذه الهوة وأن يبالغوا فى ذلك. ولكن المبالغة فى التودد، هى مبالغة فى الكذب أيضا!.

وقد عبر أحد الممثلين الزنوج عن ذلك عندما صفق له البيض طويلا فقال: سوف تشعرون بالخجل إذا اكتشفتم أننى لست أسود وإنما أنا أبيض صبغ وجهه فقط!

فكأنهم يصفقون له من من باب الاسراف فى التشجيع.. لكى يؤكدوا للسود ولانفسهم أنهم مصابون بعمى الألوان.. فلا يرون إلا اللون الأبيض فقط!

ولكن المعنى عميق فى نفوس البيض؛ إن الذى يختلف عنى، ـ يتخلف عنى!

وهناك أوهام قومية : أى هناك أوهام تخلقها «نحن» فى مواجهة «هم».

فالألمانى يصف نفسه بأنه شغال ومنظم، والايطالى عاشق وعاطفى والأمريكى استعمارى مرح، والانجليزى ثابت بارد، والصينى خبيث غامض والأسبانى مغرور وأنفه فى السماء، والسويدى لطيف محبوب، والفرنسى عصبى ثرثار.

وهى جميعا صفات مبالغ فيها.. صفات تعطيها الشعوب. وتحاول أن تذهب إلى أبعد من ذلك فتقول الشعوب أنها طبيعتها، وأن تكوينها منذ البداية هكذا. وهذه الشعوب مختلفة فى أعماقها بعضها عن بعض إمعانا فى توسيع المسافة بين «هم» و «نحن»؟

وقديما قال الحكيم كونفوشيوس : الشعوب متشابهة، عاداتها مختلفة فقط!

وربما تشابهت الشعوب فى صفة أخرى : هى قدرتها على الابداع.. إبداع أساليب للحب وأساليب أخرى للكراهية.. ومن ضمن أساليب الاختراع والابداع : الكذب. وكل الشعوب تخلق لنفسها أكاذيب عميقة هذه الأكاذيب ستار يحميها، ويضلل عنها غيرها. وأكثر الشعوب ضحايا لأكاذيبها. كما أن بعض الحيوانات ضحايا دروعها وأحجامها. فالفيل ضحية حجمه. والسلحفاة ضحية العظام التى تحملها وتخنق فيها وتحتها!

نعود مرة أخرى إلى أقاربنا من الحيوانات..

فالحيوانات فى الغابات.. لايقتل بعضها البعض إلا نادرا ــ ولكن هذه الحيوانات عندما انتقلت إلى أقفاص الحديقة، تماما كما انتقل الانسان إلى شقق المدينة تتقاتل حتى الموت! وكذلك الطيور. وفى استطاعتك أن

تلقى بعصفور غريب فى قفص ملىء بالعصافير من فصيلة واحـدة. إنهـم يعزلونه حتى الموت جوعا أو ألما!

مثلا: ذلك النوع من السمك الذى اسمه أبو شوكة. أن الذكر هو الذى يحمى العش من الذكور الأخرى. فإذا كانت الأعشاش فى نهر من الأنهـار فإن الذكر النادر أن يخرج للقتال أو للدفاع. فلا خوف عليه من أحد. ولكن إذا تقاربت أعشاش الذكور فى أحد أحواض تربية الأسماك خرجت الذكور للقتال حتى الموت. فما الذى جرى؟ أنها تقاربت حتى أوشكت أن يغتـال بعضها بعضا. إنه المكان.. تقاربت أماكن السكن. ومورد الرزق. والزحام. والخوف من الكبار على الصغار. والخوف من الكبار على الكبار. والخـوف من كل شىء بوضوح ومن غير وضوح!

وربما كانت الحيوانات أكثر صراحة.. فى سـلامها وفى حـربها. ولـكن الانسان أكثر تعقيدا فى الذى يريده، وفى الذى لا يريده. فى الذى يـكشفه، وفى الذى يخفيه..

والعلم الحديث الذى يحمى الطفل من الموت. ويقيه المرض ويحول دون الجنين ودون الولادة بحبوب منع الحمل، هذا العلم هـو الـذى يعـطى للانسان سلاحا يهدد بالقضاء على الحضارة الانسانية.. وليس مسـتحيلا أن تلتف حول الأرض سحابة ذرية تقضى عليها.. ولن يبقى من الانسان إلا هؤلاء الزنوج سكان الغابات.. وهؤلاء هم الذين سوف يستأنفون الحيـاة على الأرض.. وبذلك يرد إليهم اعتبارهم بأنهم أقدر الأجناس على البقاء.. وبذلك تنتصر «نحن» السود على «هم» البيض!

الإنسان حيوان..
إهـانة للحيوان!
(٥)

يقال أن قابيل عندما قتل هابيل هرب من الله إلى المدينة.. ويقـال أن برج بابل الذى تجمع فيه الناس من كل لون ولغة، كان يوصف بأنه مدينة الانسان الذى يتحدى السماء. فالمدينة ــ إذن ــ هى المكان الذى تـأوى إليه الجريمة والمجرمون ويتزاحم فيه الناس ويتلاصقون دون أن يتفاهموا. ولا يزال سوء الفهم هو الأب الشرعى للجريمة!

والانسان قد ترك الغابة وراءه، وأقام لنفسه المدينة، ليأوى إليها ويهرب منها، بعيدا عنها.. حتى لا يكون قابيل أول ضحية له!

وهناك أسباب كثيرة تجعل من الانسان مجرما أو منحرفا، من بين هذه الأسباب: البيئة.. الظروف.. الجو.. النشأة.. أو ما يحـدث لـلانسان فى حياته كل يوم منذ الطفولة. فالمخ الانسانى به ١٤ ألف مليون خلية. هذه الخلايا تسجل له كل ما يدور حوله أو ما يدور فى داخله. والمخ لا يحتفـظ بكل شىء وإنما يحتفظ بكل ما هو ضرورى أو له أثر قوى.. فما أكثر مـا حدث وما يحدث فى حياة أى إنسان أو حيوان. وليس مـن الـطبيعى أن يحتفظ المخ بكل ما جرى لنا وإلا كان المخ مختـلا. لأن معنـى ذلك أن

الهام والتافه على نفس الدرجة من الأهمية.. وفى هذه الحالة لا تكون هناك أهمية لشىء.. فهناك فارق كبير بين هاتين التجربتين: إرضاع الأم لطفلها.. وشرب كوب من اللبن المسموم والقىء ولمرض وحافة الموت.. وهناك فارق بين أن يشرب الطفل كوبا من الماء وبين أن يغرق فى حوض سباحة..

فهناك أحداث تعبر المخ. وهناك أحداث تنطبع فيه.

فالطفل الصغير يرتبط بأمه.

وعندما يكبر يرتبط بواحدة أخرى من بنات جنسه..

ومن الممكن إذا لم يجد الطفل سوى خادمة فى السنوات الأولى من حياته أن يرتبط بها فترة طويلة.. أو يرتبط بخالته بعد وفاة أمه، أو ارتبط بجدته بعد وفاة أمه، أو بعدها عنه.. ولكنه بعد ذلك يعود إلى الارتباط بالام إذا وجدها فالارتباط بغير الأم، قد خلقته الظروف..

وبين العصافير ــ مثلا نجد أن العصفور عندما يخرج من البيضة فإنه يتجه إلى البحث عن الام. ولو وجد العصفور أو الكتكوت أى جسم كبير يتحرك فإنه يمشى وراءه ظنا أن هذه هى الأم.. ويظل كذلك بضعة أيام. إلى أن تظهر له الأم، فيمشى وراءها. وهذه التجربة هى التى دلت على أن الارتباط بالأم ليس بسبب حاجته إلى الغذاء أو الدفء أو الحماية. أو أن هذا الارتباط نوع من كلمة الشكر لهذه الأم على أنها أطعمته أو تولت حمايته.. ويظل العصفور يمشى وراء أى جسم كبير، بضعة أيام ثم يستقل.. ويهرب من أى جسم كبير. وعندما يكبر هذا العصفور أو الكتكوت يعرف أمه. يعرف نوعها. ويقترب من العصافير أو الكتاكيت التى من نوعه. ويختار من بينها شريكة له. ومن نفس الفصيلة..

وهناك بعض الحيوانات تربيها حيوانات أخرى فترتبط بها أول الأمـر، وعندما تكبر تتجه إلى الحيوانات التى من نوعها ومن نفس الفصيلة.. ومن النادر أن تجد تزاوجا بين حيوانين من فصيلتين مختلفتيـن. ولا نعـرف حتى الآن لماذا يحدث ذلك؟ ولماذا لا يحدث أيضا!

فهناك نوعان من السلوك.. السلوك الفورى الذى يقوم به الحيوان وهـو صغير. والسلوك السليم الذى يؤديه الحيوان عندما يكبر.

وفى حديقة الحيوان يحدث ذلك كثيرا..

فالحمام عندما يعيش بين اليمام، فانه يتجه عادة إلى اليمام. ولا يتجه إلى الحمام. وكذلك اليمام الذى يفقس ثم يعيش بين الحمام، فانه يتجـه إلى الحمام.. ويترك اليمام تماما!

والطاووس الذى اعتاد على السلاحف منذ خروجه من البيضة إذا اتينا له بطاووس آخر، ذكرا أو أنثى، فإنه يتفاداه حرصا على السلاحف التـى ألفها، واعتاد عليها.. وهذا هو السلوك الخاطىء..

فأى حيوان انعزل عن بيئته الطبيعية، بأن وضعناه فى الاقفاص فـإنه يتجه عادة إلى الحيوان الآخر الذى اعتاد أن يعيش معه.. وهذا واضح فى القطط والكلاب والطيور التى تقفز على يد الانسان وعلى رجليـه وتـظل تتمسح فيه وتلعقه ـ وكلها أشكال وألوان من السلوك الجنسى ـ وهـو سـلوك خاطىء.. لأن الصحيح هو أن تتجه جميعها إلى أبناء وبنـات فصـائلها. ولكن الصحيح هو أن تتجه جميعها إلى أبنـاء فصـائلها. ولـكن لأنهـا لا تجدها فإنها تنحرف إلى أى بديل آخر.. ويكون الانسان فى هذه الحالة!

وقد عرفت نساء روما هذا السلوك من القطط والكلاب والحمام، منذ أكثر من الفي سنة. وكان من المألوف أن نجد نساء روما فى الحمامات، وقد تركن الطيور تقف على أذرعتهن، وتدور حول أعناقهن.. ساعات طويلة. وكانت نساء روما يرين فى ذلك نوعا من الرقة والحنان لا تجده الطيور عند الانسان.

ولكن نساء روما لم يكن يعرفن المعنى الحقيقى أو التعويض الذى اهتدت إليه الطيور.. أو اضطرت إليه..

فقد اعتادت هذه الطيور على حياتها مع الانسان. فإذا اتينا لهذه الطيور بطيور من نفس فصيلتها فإنها لا تهتم بها، ولا تتناسل معها..

وقد عرف العالم كله فى العام الماضى، والعام الأسبق ماذا حدث للباندا ـ أو الدب الصينى. ففى خارج الصين يوجد ذكر وأنثى فى العالم كله. الأنثى فى حديقة حيوانات موسكو. والذكر فى حديقة حيوان لندن. وقد قام العلماء بمحاولات علمية معقدة للتزويج بين الاثنين. ونقلوا الذكر إلى الانثى فى موسكو. وظل الاثنان فى القفص متباعدين. ونقلوا الأنثى إلى الذكر فى لندن.. وظل الاثنان متباعدين. وقيل أنه موقف سياسى. وحاولوا تدفئة الجو. حاولوا تجويع الأثنين. حاولوا تضييق القفص. استخدموا الموسيقى. ابعدوهما تماما عن الناس.. توقفوا عن رصدهما بالعدسات ليلا ونهارا. ولكن ظل الذكر والانثى متباعدين طول الوقت. عاد العلماء يبحثون ويدرسون ويتناقشون.. وأعادوا كل واحد منهما إلى مكانه. ثم اختاروا أوقاتا مختلفة من السنة.. ولكن ظل كل من هذين الدبين بعيدا عن الآخر.. ولا يهتم به. وقالوا أن هذا موقف غير إنسانى من الحيوانين. وسجلت الصحف حركات الاثنين معا، متباعدين، وتارة تقف الصحف النسائية إلى جانب الذكر، وتارة أخرى إلى جانب الأنثى. ولكن ماذا جرى لهما؟

إن كلا منهما قد عاش فى بيئة إنسانية. واعتاد عليها. اعتاد على مداعبة الحراس وعلى رؤية الحراس. وعلى تناول الطعام من الأيدى. وعلى التمسح فى قضبان القفص. وعلى التمسح فى أيدى الحارس.. سنوات طويلة. حدث هذا فى لندن. وفى موسكو. فلما ظهر حيوان آخر من نفس الفصيلة، لم يكن له أى معنى. فقد اعتاد كل منهما على الأسلوب والجو والمعاملة الانسانية فى الطعام والوقاية..

والديوك الرومية أيضا.. نلاحظ أن الديك الرومى يهاجم السيدات. ولا يهاجم الرجال. بل أنه يدور حول الرجال، ويقفز على أرجلهم ويتمسح فيهم. أو إذا أعطيناه الوقت فإنه يقفز على أكتافنا ويلف عنقه حول اعناقنا.. نوع من العناق كأننا اناثه لماذا؟ لأن ملابس السيدات ملونة. ولأن ذيول الفساتين مفتوحة تشبه أجنحة الديوك الرومية. ولذلك يخيل للديك أن هذا ديك آخر له نفس الألوان وله أجنحة مفتوحة. ولذلك يهاجم المرأة ويعاديها.

هذه الطيور وهذه الحيوانات قد انحرفت عن سلوكها الطبيعى. لأن الانسان قد حبسها. وقد عودها على يديه وعلى لمساته.. وعلى أسلوبه هو فى الحياة.. فتنكرت لأبناء جنسها من الطيور والحيوانات..

وهناك تجربة الشمبانزى الهزاز.. هذا الشمبانزى عاش وحده مع الحراس ومع زوار الحديقة فترة طويلة. ثم وضعوه فى قفص. وأتوا له بأنثى من فصيلته. وظل الاثنان عشر سنوات فى قفص واحد. ومن الغريب أنه لم يقربها ــ لم يلمسها.. وأكدت البحوث أن هذا الحيوان سليم تماما. وأن الأنثى كذلك. وفى بعض الأحيان نجد أن الذكر عنيف قاس على هذه الانثى.

والسبب واحد : ان هذا القرد الذكر لم يعاشر هذه الأنثى. وإنما فوجئ بها بعد سنوات من حياته مع الانسان.. ولذلك لم يعد يستجيب إليها.. ولا شيء يريد إلا الأيدى الانسانية التى تمتد إليه عبر الأسلاك وإلا منظر الحارس وهو يقدم له الطعام ويداعبه.. أما بنات جنسه فلا وجود لها فى حياته..! (بعض الذين يعيشون فى الخارج، يتجهون إلى الفتيات الاجنبيات ويتعايشون ويتخذون موقفا معاديا لبنات جنسهم.. أو لمواطنيهم عموما!).

وقصة نمرة السيرك معروفة فى كل الكتب العلمية.. فقد جاءوا بنمرة من نمرات السيرك ووضعوها فى قفص مع نمر ذكر من نفس الفصيلة.. اقتربت منه راحت تشمشم فيه – وتدور حوله. ثم تشمشم فيه. وبعد ذلك اختارت ركنا من القفص. بعيدا عنه. ففى أول الأمر، ابتعدت ثم امتنعت عن الطعام بضعة أيام. ثم امتنعت تماما عن الطعام. وأبعدوا عنها الذكر.. وظلت ممتنعة عن الطعام وأخيرا عادت إلى حياتها الطبيعية بصعوبة شديدة. وراحت تنتظر عودة الحراس ورؤية الزوار. وكانت لا تأكل إلا إذا جاءها الحارس وراحت تتمسح به..

والكلاب عندما نربيها.. ففى استطاعتنا أن نجعلها ملتصقة بنا إذا نحن عودناها على ذلك منذ اليوم السادس حتى اليوم الستين. أما إذا ربيناها وحدها وبعيدة عن أبناء فصيلتها، فإنها تصبح شرسة أو متوحشة. فإذا اعتادت علينا أصبح من الصعب عليها أن تعايش كلابا أخرى..

الأطفال المساكين لايجدون الحنان الضرورى، ولا الحب الضرورى ولا العناية.. ولا الأب ولا الأم. ولذلك كانت طفولتهم شقية قلقة. ورجولتهم أيضا. ولا تنسى الصحف البريطانية ذلك الطفل الصغير الذى نقلوه أثناء الغارات الجوية إلى أمريكا. فلما سألوه فى المطار : من أنت؟ قال : لا أحد.. ولا شيء!

فهذا الطفل قد فقد أبويه.. واحتضنته إحدى الأسر.. ثم نقلوه من بين أحضان هذه الأسرة إلى حيث لا يدرى ولا يعرف.. فكأن الطفل إنما يتحدد وجوده واسمه ورسمه بوالديه.. بذراعين من الحنان. والطفل الانسان – عادة – يرتبط بأمه. لأن طفولته طويلة.. ولأنه فى حاجة إلى الطعام والمأوى سنوات طويلة. بل أن الطفل إذا ماكبر وبلغ العشرين من عمره. وأصبح إنسانا مكتمل الخلقة، وقادرا على أن يكون أبا، فإنه يظل مرتبطا بوالديه ينفقان عليه ويعنيان بأمره.. ويعاملانه على أنه كذلك. والطفل الذى يجد الأبوين، يختلف عن أبناء الملاجئ من اللقطاء واليتامى. إن هؤلاء عرايا بلا حنان ولا أبوين.. أحس أنه لا أحد ولا شىء!

والحب من أول نظرة ليس وهما ولا أكذوبة. ولا موضة قديمة. وإنما هو استمرار لتجربة الحنان. والحاجة إلى إنسان فكأن الطفل يظل طوال الوقت يبحث عن الحنان – عن الذراعين عن الأبوين.. وتظل هذه الرغبة عميقة فى نفسه.. وفجأة يستجيب لها من أول نظرة.. أو كأن هذه الرغبة تفتح قلبه بالقوة.. وهنا فقط يستأنف الطفل، أو الطفل الذى أصبح رجلا تلك الرغبة القديمة.. ويكون الحب من أول نظرة!

ويحدث بين الانسان ما يجرى بين الطيور أيضا.

فإذا جعلنا ذكور البط تعيش معا، فإنها تعتاد على هذه الحياة لدرجة أننا لو أتينا لها ببعض الاناث فإنها تنفر منها.. وترى الذكور تتعامل بعضها مع بعض كما يتعامل الاناث والذكور.. وكذلك الحمام. بل من الملاحظ إننا لو وضعنا البيض أمام ذكور الحمام، فإنها بسرعة تنام عليه.. ظنا أن هذا هو بيض الذكر الآخر.. ويظل الذكر نائما على البيض حتى يفقس.. فإذا فقس البيض فإن الذكور تعنى بالصغار.

وعندما لا يجد الانسان أمه، لسبب ما، فإن غزالا يستطيع أن يـرضعه وقد حدث ذلك أكثر من مرة: الانسان الغزال فى صحراء فلسطين والانسان الغزال فى أسبانيا. وفى الفلسفة الاسلامية «قصة حى بن يقظان» وهى قصة طفل صغير أرضعته غزالة، وظل يعيش معها بين الغزلان بعيدا عن الانسان.. بل وهاربا من الانسان!

وفى حالات نادرة وجدنا الذئبة ترضع طفلا. فإذا كبر الطفل. فإنه ظل يعيش بين الذئاب. يأكل طعامها ويعوى مثلها.. ويهرب من بنى الانسان أيضا.. وكذلك الغزال الذى اعتاد أن يرضع اللبن من زجاجة فى يد انسان.. واعتاد على الطعام من الأيدى، عندما نقل إلى احدى حدائق الحيوان، مع عدد آخر من الظباء، ارتبك، وامتنع عن الطعام ومرض. ولما أبعدت الظباء وامتدت الأيدى إليه، عاودته الحياة والحيوية والمرح واللعب.

ومن المعروف الآن أن الانسان حريص على أن تكون هذه الحيوانات مثل أطفاله.. أى مثل أطفال الانسان. ولذلك فإنه اختار الحيوانات الصغيرة ليدللها. ويظل يحب هذه الحيوانات مادامت صغيرة. ويعاملها على أنها أطفال. فالكلاب التى يحبها الانسان هى الصغيرة جدا، أو ذات الحجم الكبير والأقدام الصغيرة، أى التى تبدو كأنها عاجزة عن الحركة وفى حاجة إلى مساعدة الانسان. ولذلك نجد أن الذين يشتغلون بتربية الكلاب وتناسلها يحرصون على خلطها بعضها ببعض من أجل الحصول على سلالات أصغر حجما وأكثر اعتمادا على الانسان..

هذه الحيوانات والطيور لا تعرف الانحراف والشذوذ إلا عندما يدخل الانسان فى حياتها. وينقلها من أوكارها إلى أقفاصه، ومن غاباتها إلى حظائره.. ومن الطبيعة إلى السجن النظيف فى حديقة الحيوان. هنا فقط

عرفت الجريمة والقتل والعنف.. هنا فقط أصبحت للحيوانات صفات إنسانية. ولذلك إذا قيل أن الانسان حيوان، كانت إهانة للحيوان. وإذا قيل أن الحيوان إنسان، كانت هذه شتمة للحيوان أيضا.

والانسان نفسه عندما انتقل إلى المدينة التى بناها وجملها ووسعها ورفعها، كان هو أيضا حبيسا للغرف الضيقة، والمكاتب الخانقة والمصانع المدوية والمصاعد المرتجفة، والسيارات السامة.. أنه هو أيضا ليس أحسن حالا من الحيوان، أن الذى سجن الحيوان، قد سجن نفسه أيضا.. وأصبحت حياته انحرافا من سلوك إلى سلوك ومن طريق إلى طريق.. أصبح الرجال أقل رجولة، وأصبح الأطفال أكثر طفولة.. وأصبح الناس أطفالا يرعون الأطفال ويكرهونهم.. ويكرهون أنفسهم أيضا!..

أنت تعمـل ...
وزوجتك تتشاجر
هـذه ضرورة !
(٦)

كل إنسان قرفان من حياته.

اما لأن حياته مرهقة له وهو يريد أن يستريح، واما لأن هـذه الحيـاة تافهة لا معنى لها ولا قيمة.. فإذا جلس فى البيت أو على المقهى قد يجد المعنى أو يستريح من البحث عن معنى لحياته.. أو يـكون المـوت هـو المعنى الأخير لها.

وكثيرا ما نسمع أناسا يقولون : ياريت تنتهى خدمتى وأحال إلى المعاش لعلى أستريح.. أجلس فى الشمس جنب الحيط. ويا دار ما دخلك شر.. كاف خيرى شرى.. وودن من طين وودن من عجين.. والحمد لله على كده!.

ولكن ليس هذا صحيحا.

فالذى يحال إلى المعاش سوف يعانى مشكلة خطيرة، وهى أنـه قـد اعتاد على حياة مليئة بالناس الذين يضايقونه أو يضايقهم. أنه قد رتب كل مشاعره عليهم.. على حبهم أو على الفرار منهم.. لقد ملأوا حياته.. وهو فى كل لحظة يفكر فيهم.. أو يستعد للقرف منهم. وفى اسـتطاعتك أن تـراقب حركاتك منذ اللحظة الأولى التى تخرج فيها من بيتك إلى عملك.

فإن كانت ليلتك مريحة فأنت تخرج من البيت مستريحا ـ هادىء الخطوات، ـ واسع الصدر.. ولا تكاد تتجه إلى الشارع الذى ستنتظر فيه الأتوبيس حتى يبدأ «فيلم القرف اليومى».. سأفترض أنك وجدت مكانا فى الأتوبيس.. وأنك وجدت الكمسارى وكان معه فكة، وركبت ونزلت بسلامة الله. وعبرت الشارع وإن كان هذا صعبا بعض الشىء خصوصا إذا كنت تعمل فى وسط القاهرة. وبدأت تدخل باب المؤسسة أو الشركة أو الهيئة أو الوزارة. هنا فقط يجب أن تراقب حركاتك.. ولو كانت معك مرآة لوجدت التكشيرة قد علت وجهك.. وبشكل غريب جدا قد التوت شفتاك وظهر بسرعة شىء على لسانك.. أما هذا النقر فى الجانب الأيسر من البطن فليس عفريتا.. وانما هو المصران الغليظ، وهذا الضيق المفاجىء فى التنفس ليس سببه انسحاب الأوكسجين من الهواء بسرعة. وانما سببه أن لديك شعورا غريبا أن كل زملائك فى العمل يزاحمونك فى التنفس.. وأنهم لا يأخذون من الهواء نفس نصيبك، انهم يأخذون أكثر منك قليلا.. فهم يسحبون الهواء من صدرك !.

وإذا كنت قد وصلت الآن إلى مكتبك.. وجلست بسرعة، وامتدت يدك إلى الدرج، وأنا أستبعد فلأنك تريد أن تضع همك فى الورق.. أو فى سندوتش قد حملته معك وتريد أن تأكله أو تمزقه بأسنانك.. لعل هذا السندوتش يرمز إلى شىء أو إلى أحد.. يعمل معك أو يعمل ضدك.. أو أنت تعمل له وهو لا يدرى بك.. ولا يشكرك أو لا يمتن لك : زوجتك.. أولادك.. إخوتك.. أو أنت شخصيا لا تحمد الله ولا تشكره على ما أعطاك !.

وفى هذه اللحظة يدخل مواطن.. ولو كانت هناك كاميرا سحرية لكان وجهك هكذا : اللقمة الآن على شفتيك.. بين أسنانك.. ولقمة أخرى وقفت فى

حلقك.. وسوائل معدتك تتخبط كأمواج البحر على صخرة كريهة اللون والرائحة - ولكن سرعان ما تعاود الأكل بقليل من الاستطعام، لأن هذا المواطن لا يريدك وإنما يريد زميلا لك لم يحضر، ولأنه لم يحضر فقد ارتفع صدرك وسقط بسرعة، فهذا الموظف الذى لم يحضر محظوظ أنه ليس متزوجا.. وليس عنده أولاد.. مع أنك تعلم أنه ينفق على إخوته وعلى أمه. ولكنك تقول لنفسك: ياريت. كانت لى أم واخوة.. ولم يكن لى أولاد ولا زوجة.

ومعنى هذا أنك انتهزت هذه الفرصة لتحقد عليه.. وتؤكد سخطك على نفسك !.

وغير ذلك من الأشخاص والمشاعر التى تتكرر كل يوم مئات المرات فى المكتب وفى الشارع وفى الطريق إلى ومن المكتب.. عشرات السنين وكل ذلك سوف يتوقف مرة واحدة، إذا أنت أحلت إلى المعاش !.

تماما كما يتوقف الأتوبيس مرة واحدة ويسقط الناس من النوافذ والأبواب على أرضية الشارع.. حيث لا حركة. وإنما أرضية الشارع الباردة فى الصباح والحارة فى الظهيرة.. ووحدك على الأرض.. أليس فى عينيك إلا ظلال الناس وفى أذنيك أصداؤهم، وفى نفسك قرفهم، أو القرف منهم !.

والانسان يضيق بحياته إذا كانت صارمة طوال الوقت، أو خامدة طوال الوقت.. فالذى يعمل على ظهر مركب يتمنى لو عاد إلى الشاطىء وانحنى على الأرض يقبلها، وربما تاب عليه من اهتزاز المركب، وصخب الأمواج والرياح.. أنه يريد أن يستقر على الأرض.. والذى يعمل على الشاطىء، قد

زهق من الركود والمكان الواحد، ويريد من الله أن يحول الأرض إلى موج، والهواء إلى عواصف، وتتحرك به ومن تحته هذه الدنيا لعله يجد لونا وطعما وراحة أحسن وأجمل.

والذى يجلس إلى جوار راديو صارخ دائما، لا يطيقه.. والذى يجلس إلى راديو هامس لا يطيقه.. وكل واحد يريد أن يرفع الهامس، ويخفض الصارخ، لكى يصبح قادرا على تذوق هذه الحياة.. والتكيف معها.. ثم يعيش.

والانسان هو هذا الحيوان القادر على أن يتكيف مع ظروفه، أو يكيفها.

وأجدادنا كانوا فى حالة صراع مع البيئة. فهم فى حاجة إلى جهد هائل لكى يعيشوا. فهم الذين يصيدون الحيوانات ويذبحونها ويطهونها. وهم الذين يبنون البيت ويدافعون عن الزوجة والأولاد ولكن الانسان ليس فى حاجة إلى كل هذه الطاقات فغيره يتولى له صيد الحيوان وذبحه. وغيره يصنع له الخبز ويأتى له بالماء. ويبنى له البيت ويعلم الطفل ويعالجه.. ويحرس الجميع..

وهناك نوعان من الحيوانات، أو نوعان من السلوك الحيوانى فى مواجهة البيئة. حيوانات فى غاية الكسل وحيوانات فى غاية النشاط والانتهازية.. فهناك حيوانات لا تأكل إلا النمل، وحيوانات لا تأكل إلا ورق الصفصاف مثل الكوالا، وهناك الثعابين والنسور لا تأكل إلا العصافير وبيض الطيور.. فإذا وجدت هذه الحيوانات طعامها. رضيت به وأكلت ونامت واسترخت. والنسر سعيد جدا فى قفصه فى حديقة الحيوان مادام يغرس منقاره فى دم أرنب جديد كلا يوم.

أما الحيوانات الانتهازية فهى الكلاب والذئاب والقرود والانسان طبعا فهى تأكل كل شيء. وهذه الحيوانات تضع أى «سهم» ف (قوس) الحياة والعيش!

ولكن إذا وجد الانسان أو الحيوان ما يحتاج إليه من الطعام والشراب، فالمفروض أن يهدأ ويسكن.. وخلاص. ولكن يبدو أن هذا ليس صحيحا فالانسان محتاج إلى إثارة مستمرة.. ومحتاج أن يرد على هذه الاثارة. بل ان البيئة لو هدأت حوله، فإنه يحركها ليتحرك هو أيضا. يهزها ليهتز.. يريد أن يحولها إلى كرة ليشوطها أو إلى نار ليخمدها.

وهذا ما يفعله القط ف البيت.. فإذا أنت أعطيته طعاما، فإنه يضربه برجله.. ويلقى به بعيدا.. ثم يذهب إليه، يهجم عليه. وينقض ثم يأكله. وأحيانا يأكله ويمزقه بعنف.. كأن الطعام يقاومه. أن القط يفتعل معركة ليقوم فيها بدور الصياد. ثم يقتل الفريسة. والكلب يفعل بالكرة أو بأدوات البيت نفس الشيء.. أنه يهجم عليها.. ويفتعل معركة ويصيد الكرة ثم يعيدها إلى صاحبها. وينتظر أن تداعبه مرة أخرى.. أو أن تختلق له الجو المناسب للصيد.. كما لو كان ما يزال مفترسا ف الغابة.

هذه الحيوانات عندما نقلت إلى بيئة هادئة. إلى البيوت أو إلى حدائق الحيوانات. فإنها اضطرت إلى هذا السلوك الغريب. أو الجديد. وهى لا تفعل كذلك ف الغابة.!

وهناك حيوان الراكون من أكلة اللحوم ويعيش ف أمريكا الشمالية.. هذا الحيوان تصفه الأساطير بأنه لا يأكل طعامه إلا إذا غسله بالماء.. ولكن هذا الحيوان لا يأكل طعامه مباشرة.. أنه يظل يلقى به ف الماء ويصيده

كأن الطعام هارب منه.. مرة بعد مرة.. وفى هذه الأثناء يكون طعامه قد أصبح نظيفا والحقيقة أنه يفتعل المعارك ليفترس طعامه!

وبعض الحيوانات القوارض تقشر الفاكهة.. وبعد أن تقشرها تعود فتأكل القشور مرة أخرى.. فهذا الحيوان يأكل الفاكهة عادة. ولكن ما الذى يفعله بالوقت الكثير. ما الذى يفعله فى هذا الركود الرهيب فى حياة الحديقة.. لابد أن يشغله بشىء.. أن يحركه.. ولذلك يقشر الفاكهة، ويلقى بقشرها ثم يعود فيأكلها من جديد!.

انظر إلى ما تفعله الزوجة فى البيت.. عندها وقت كثير. والمكالمات التليفونية مهما طالت فانها غير قادرة على القضاء عليه. إذ لابد أن تنتقل من غرفة إلى غرفة — وتعيد تنظيم ما نظمته بالأمس. أو تعيد لخبطة ما لخبطته بالأمس. أنها التنظيم والمساعدة والاشراف على الغسيل والطبيخ. كل هذا روتين ممل. يجىء دور الخدم فى البيت. لا يمكن أن يكون سبب هذا الشجار اليومى والخلاف والخناقات اليومية فى كل بيت إلا هذا المعنى: تحريك الخمول والخمود والرتابة.. لابد من هز الحياة اليومية بعنف لعلها تتغير.. لابد من «تغيير الدم». دم سيدة البيت أو خادمتها.. ولا توجد سيدة واحدة لا تشكو من الخدم.. وخصوصا خادمات هذه الأيام.. أما ما الذى حدث هذه الأيام فجعل الخادمات مختلفات عن خادمات زمان، فلا شىء قد حدث!.. وإنما كل ما حدث هو أن سيدات البيوت ليس عندهن ما يفعلنه.. ليس عندهن ما يشغلهن.. فقد توافرت لهن لقمة العيش والبيوت والراحة والفلوس. ولا يهم من أين تجىء .. أو كيف يأتى بها صاحب البيت، فهو حر فى عمله وفى حياته المهم أن تجىء. وصاحبة البيت عندها مشكلة بعد ذلك: — أنها تريد أن تهز كل شىء حتى

لا تشعر بالملل.. وإذا لم تكن الخناقة مع الجارة من الشباك أو من البللكونة أو فى التليفون أو مع الخادمة، كافية للقضاء على الملل اليومى.. فإن سيدة البيت عندها فرصة لا تعوض وهى أن تتشاجر مع الزوج. ولا يحلو ذلك إلا عندما يكون الاثنان معا فى غرفة أو فى سرير.. تماما كما تفعل حيوانات الحديقة.. فى الأقفاص.. وهذه الخناقات تعطى لسيدة البيت فرصتها الذهبية فى أن تبكى. وفى بكائها راحة لها من كل مضايقات حياتها اليومية.. فهى قد تشاجرت مع الجارة والصديقة والخادمة ولم تستطع أن تنفس عنها فتبكى. وإنما زوجها هو الذى أعطاها هذه الفرصة العظيمة - ومع ذلك لا يستحق الشكر على شىء!.

فالعمل ليس ضروريا عند بعض السيدات، لأن هناك من يعمل لها - وهى فى هذه الحالات مثل كبار الأغنياء. أنهم لا يعملون. ولكن. هناك من يعمل لهم، ولذلك فهم يبحثون عن التسلية، وعن الاثارة. وعن العنف الذى يوقظهم من سبات الراحة والهدوء!.

أما إذا كانت الحياة نفسها غير مثيرة للحيوانات فى الأقفاص فإنها عادة تبالغ وتسرف جدا فى أفعالها.. فمثلا نجد أن القردة تأكل كل ما يلقيه لها الانسان من طعام. على الرغم من أنها لا تحتاج إلى هذا الطعام ولكنها تحاول أن تقوم بأى عمل. تحاول أن تجتذب الانسان إليها.. ولذلك تأكل القردة أكثر مما تحتاج إليه. فيزداد وزنها أو تمرض.

نحن نرى أن النعام يأكل حتى المعادن.. المسامير والمفاتيح والحجارة وعلب الصفيح.

وقد لوحظ أن فيلا واحدا فى حديقة الحيوان قد أكل فى يوم واحد ١٧٠٠ حبة سودانى و١٣٠٠ قطعة حلوى وألف قطعة سكر و٨٠٠ قطعة

بسكويت و٢٠٠ فص برتقال و٢٠ تفاحة و٢٠ قطعة ورق ورباط جزمة.. وجوانتى أيضا وهناك حيوانات كثيرة فى الحديقة تموت من التخمة.

وبعض الحيوانات تأكل طعامها، ثم ترجعه ثم تأكله مرة أخرى — كما كان الرومان يفعلون من ألوف السنين وبعض أبناء الريف يفعل ذلك أيضا.. ففى حديقة لندن غوريلا تفعل ذلك كل يوم. وبعض الدببة.

وهناك حيوانات تظل تنظف نفسها لأنها لا تجد ما تفعله — بعض السيدات أيضا — فالقط يظل يلعق نفسه. والطيور تنظف ريشها.

أما الانسان فهو يشرب ما لا يحتاج من المياه الغازية والعصير والخمور فليس الانسان عطشان ولكنه الملل. وهو يأكل الحلويات والتسالى، مع أنه ليس جائعا. ولكن ما الذى يفعله بالملل اليومى.. ما الذى يفعله بهذا الوقت الطويل والتدخين كذلك. ويحدث للانسان ما يحدث.. للحيوان. فالاسراف نفسه قاتل يهلك المعدة والكبد.

والطفل الصغير يمص أصابعه.. أنه اعتاد على الرضاعة. فان ابتعدت الأم، أو أبعد عنها، كان لابد أن يقوم بما كان يفعله من قبل.

حتى الحيوانات إذا لم تجد ما تفعله أو ما تأكله فإنها تعاكس الزوار.. ان أسدا فى إحدى الحدائق انتهز فرصة وجود عدد كثير من الناس وتبول عليهم.. فثار الناس وهربوا.. واندهشوا.. والتفوا حوله.. فى اليوم التالى.. أتى الأسد بشىء جديد.. فقد تبول على القريبين من القفص.. فلما ابتعدوا عنه.. تبول على الذين يقفون وراءهم.. أنه هو نفسه الذى يستدرج الجمهور لاثارته.. أنه هو الذى يتصيد الناس ليثيروه.. وبعض القردة لا تكاد ترى الناس حتى تتشقلب وتتشاجر ليجىء الناس ويتفرجوا.

والفيلة تمد خراطيمها إلى الناس.. وكلب البحر يرش الناس بالمياه.. والتمساح يبكى إذا تزاحم الناس.. وأحيانا يدمع ليروا دموعه وهو يأكل.. كأن التمساح يعرف ما يقوله الناس عن «دموع التماسيح» فهى لا تبكى إلا من فرحتها بالطعام.. فهى لا تبكى على الطعام وإنما تبكى بسبب الطعام.. ويتفرج الناس !.

إن هذه الحيوانات الأخرى تتسلى، كما نتسلى بكرة القدم والشطرنج — وافتعال المعارك والأحزان والحماس.. ويكون الوقت هو الكرة التى يتزاحم الجميع على ضربها ومتابعتها.. ثم الراحة بعد ذلك من أجل البحث عن لعبة أخرى.. وكذلك كل الفنون: إنها تسلية وقتية.

والحيوانات فى الأقفاص ضاقت الأرض تحت قدميها. ولذلك تقطع المكان ذهابا وإيابا.. أو تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف كأنها فى مشوار فالحيوانات إذا لم تجد المكان فإنها تتصرف كما لو كان هناك مكان واسع طويل جدا لا تستطيع أن تأتى على نهايته ولذلك فهى تمشى طوال الوقت.. مع أن ضيق المكان يغيرها بالهدوء.

والانسان يجد الطعام. ولكنه لا يهدأ. إنه يحاول أن يأكل أكثر أو يحاول أن يأكل طعامه بشهية أو شره كأنه لا يجد ما يكفيه. أو كأن هناك خوفا لا يجد ما يأكله. ولذلك يضع على طعامه شطة.. ويجعل العطور أكثر تركيزا ليشمها بشراهة.. والانسان يجد الفراش الذى ينام عليه.. ولكنه يجعل الفراش من القطن أو من الحرير أو الكاوتشوك لكى ينام أكثر.

والاثارة المستمرة تصيب الانسان والحيون بالمرض.. بالانهيار.. بالسقوط. فالحيوانات فى الحديقة إذا نحن نقلناها من قفص إلى قفص ثم أدخلت معها حيوانات غريبة.. وجعلت الناس يتفرجون عليها، فان هذا

يرهق الحيوانات. فهى فى حالة خوف وقلق. وغير قادرة على الهرب وغير قادرة على أن تختفى وتتوارى، كل ذلك يحطم احساسها وأعصابها.. إن بعض النمور تظل تروح وتجىء ثم تحك أنوفها فى أسلاك القفص حتى يسيل دمها.. وبعض القردة تظل تتشقلب وتعض نفسها حتى يسيل دمها أيضا.

والانسان إذا كانت حياته مثيرة دائما فان المرض هو الحل الوحيد لهذه الاثارة. ويصبح السرير هو المخبأ الوحيد الذى يأوى إليه من غارات الحياة اليومية ـ ولكن بعد أن أصيب فى أماكن مختلفة من جسمه.. فى رأسه على شكل صداع أو فى مصرانه الغليظ على شكل التهاب وهناك إصابات أعنف وأشد. فى القلب مثلا، إذا كان عمله عقليا. ومن الغريب أن كل أنسان يعمل بقلب، يصاب فى قلبه ولكن أن يقال: إن كل إنسان قلبه على شغله هو الوحيد الذى يصيبه شغله فى قلبه مع الأسف!.

هذه الأمراض اليسيرة التى تصيب الانسان بسبب الاثارة المستمرة، ليست مرضا وإنما هى إشارة خطر إلى احتمال الاصابة بأمراض أقسى وأعنف.. وهى إشارة من صديق لا إشارة من عدو.. ولكن الانسان يشترى الاثارة بكل متاعبها، لأنها أهون الملل بكل حلاوته. ولذلك يشرب الناس القهوة رغم أنها تلهب المعدة، ويتعاطى الناس المنبهات رغم أنها تكسر الرأس وتوجع العين.. ويتعاطى الناس المثيرات الجنسية رغم أنها توجع القلب.. بل أن الانسان يتفنن فى إثارة نفسه جنسيا.. انظر إلى ملابس المرأة.. أن كل هذه الملابس ما الذى تفعله: انها تتركز حول مناطق الاثارة الجنسية.. أو أنها تحرك مناطق الاثارة.. فهى تبرز الصدر والأرداف وتعرى الساقين.. والملابس طالعة نازلة ووراءها عيون الرجل..

أما ملابس الرجال فهى رياضية.. والملابس الرياضية معناها أن صاحبها رجل غنى قادر.. وأن لديه وقتا لكى يلهـو ويلعـب.. فهـو ليس عـاملا ولا محتاجا إلى العمل. وانما هو إنسان قد فرغ من العمـل، وهـو الآن يستمتع بحياته.. وكل موضات الرجال هى موضات الملابس الرياضية وكان الناس قديما يركبون الخيول ويصيدون بالكلاب والصقور. أمـا الآن فهـم يرتدون ملابس الرياضيين فقط. وكذلك ملابس المرأة ــ الآن هى مـلابس رياضية. فالمينى جيب هو بنطلون.. وجيب لاعبة التنس فى سنة ١٩٣٠ وفى سنة ١٩٤٠.

والاعلانات تؤكد أن تكون السيقان طويلة، أو أطول مما يجب.. فهـذا ما يثير الرجل، والمرأة تضع المساحيق لتجعل بشرتها أنعم. وهذا شـىء مثير وتجعل بشرتها أفتح. وهذا يؤكد أنها لا تتعرض إلى الشمس. وانمـا هى ــ ست بيت ليست فى حاجة إلى العمل. وانما هى غنية قـادرة. وكل ما تطلبه هو أن تكون محبوبة مرغوبة.. وإذا جلست المـرأة فى الشـمس فلابد أن تبدو مختلفة. ولذلك لا تترك للشمس أن تحرق بشرتهـا. وتضـع لذلك السوائل التى تعطى للبشرة لونها برنزيا لا تحرقه الشمس، ولا تقـدر عليه الفتيات الفقيرات.

ولابد أن يكون الفلاح هو أسعد الجميع حالا.

فكل شىء من حوله هادىء وهو يريد أن يحركه بهـدوء. أو ليس مـن الضرورى أن يتحرك. وأقصى ما يفعله الفلاح هـو إقـامة حفـلات غنـاء وموسيقى وبعد ذلك يأكل وينام.. وليس من السهل اقناعه بأن ينظم النسل. فما الذى يفعله ما دامت الشمس تغرب مبكرا. والليل طويل لابد أن ينام. وتجىء الأطفال فى الليل !.

وليس صحيحا ما يقال عن الرجل التركى الذى أحيل إلى المعاش فأتى بعدد من القلل. وراح يأمر الناس: اشرب من هذه.. اترك هذه.

ونحن نضحك من هذا الوضع. ونقول لابد أن يكون الرجل تركيا ليفعل ذلك. لأن الأتراك يحبون أن يأمروا الفلاحين.. وأن يتحكموا فيهم.. ولـكن لماذا لا نسأل أنفسنا: وكيف يقبل الفلاحون كيف لا يفكر واحد منهـم فى كسر القلة.. أو كسر رقبة هذا التركى؟ إن الاحتفاظ بهذه القصـة علـى ما هى عليه يؤكد أننا رضينا بهذا الوضع. ولا يغفر لنا أننا نضحك منه.. فالتركى يأمر ونحن نشرب من القلل؟.

ولكن كل إنسان إذا ما أحيل إلى المعاش، أو أدخل أحد أقفاص حديقة الحيوانات هو هذا التركى.. يأمر وينهى ويشغل نفسه.. لأنه قـد انعـزل تماما عن حياة الاثارة.. فلابد أن يخلق الاثارة وإلا مات.

ماهذا
الشيء العنيف
في التاريخ؟!

هـــل..
يولد الانسان مجرما؟
(١)

هناك شعوب نمت.. وهناك شعوب تنمو.. ومصيبة الانسانية هى هــذه الشعوب التى نمت.. أى التى أصبحت قادرة على إنتاج ما تحتاج إليه من الطعام وزيادة. وقادرة على إنتاج ما تحتاج إليه من أسلحة الدمار وللقضاء على الطعام ومصادر الطعام وعلى الذين يحتاجون إلى الطعام.. والـــدمار ليس ظاهرة حديثة.. إنه من أهم علامات الطريق بين الشعوب والحضارات من ألوف السنين.. حتى يمكن أن يقال أن الانسان مجرم بطبعه قاتل. ولد ليقتل غيرة أو فهو إما قاتل أو قتيل.

والحقيقة أنه القاتل والقتيل.

فلماذا؟ هناك رأيان فى تفسير الجريمة الانسانية.. أو فى تفســير العنف والعدوان بين الشعوب.

رأى يقول: إن الانسان ولد مجرما. فالجريمة فيــه.. ورأى يقــول: إن الانسان لا يولد مجرما، وإنما يصير مجــرما. فــالجريمة ليســت فيــه. وإنما الجريمة مفروضة عليه.

ومنذ ألف سنة نرى ما يؤيد الرأى الاول. فقد رأينا فى الشعر الصينى القديم أن أحد الشعراء يشكو من الامبراطور.. فقد قتل نصف مليون من الرجال دون أن يتساءل: ومن الذى يحرث الأرض؟ ولكن سيدة شاءت أن تجيب عن هذا السؤال. فبعد مقتل زوجها حملت الفأس وذهبت إلى الحقل.. وفى هدوء الليل كانوا يستمعون إلى بكائها.

وفى القرن الثانى عشر أعلن مؤرخ صينى عن السبب الوجيه الذى يجعل اللصوص وقطاع الطرق ينتشرون فى الريف. فقد لاحظ أنه على أثر المجاعات والأوبئة والفيضانات وبرودة الجو ينتشر اللصوص. ويخطفون الطعام من أيدى الفلاحين، والحيوانات من الحقول، إنه الجوع الذى يحول المواطن إلى لص.

فالجوع إذن هو الذى يدفع الناس إلى العنف: أى إلى خطف الطعام، فإذا قاوم الناس سالت الدماء.. وانتصر القوى.

وعلى أيام هارون الرشيد كان الديك يصيح فى الموصل فيسمعه الناس فى البصرة ـ أى على مسافة ٧٠٠ كيلو متر فقد كانت المسافة عامرة بالبيوت، وعلى البيوت وقفت الديوك تتلقى الصياح وتطلقه.. ويقال: كان سكان العراق ثلاثين مليونا.. فماذا حدث بعد ذلك.

وهذا الوادى الأخضر من مراكش إلى بلاد التركستان حيث الأنهار والوديان وحقول القمح والأرز وحيث بداية الحضارة الانسانية. وحيث قامت الحروب الكثيرة، فأهل البدو كانوا يهاجمون أهل الوديان.. وأهل الخيام يهاجمون أهل البيوت.. ثم أشعة الشمس.. ثم المستنقعات التى أطلقت الملاريا على الناس.. ثم حروب الفتوحات الاسلامية.. ثم غزوات المغول والحروب الصليبية.. ثم الضرائب الفادحة التى تحتمها ضرورات الدفاع..

ثم الحروب التى تجعل الناس ينشغلون عن الزراعة والرى والصرف..كل هذا العنف الاجتماعى قد أدى إلى خراب الأرض والقضاء على أهلها.. واحتاجت إلى مئات السنين حتى تستقر البذرة فى الأرض.. وحتى تثبت يد الفلاح على الفأس.. وحتى يطمئن إلى طعام يومه وغده.. وحتى يكتفى الناس بديك واحد يؤذن فى الراديو فيسمعه الناس فى كل مكان.

وفى أمريكا تخصصت الولايات الجنوبية فى زراعة القطن، وعاشت على القطن وعاشت له. إذا ارتفع سعر القطن، ارتفعت معنويات الناس.. وإذا انخفض انحط الناس إلى ما دون الحيوانات. وكان الزنوج هم الضحية ـ فهم الأضعف ـ وقد قتل عشرات الألوف من الزنوج فى سنة ١٨٨٠ ومن بعدها عندما انخفض سعر القطن.. وعندما سقط سعر القطن سنة ١٩٣١ كانت الكوارث فى الولايات المتحدة الجنوبية من كل نوع.. إنها إذن معركة الخبز والدم، إذا جاء الخبز اختفى الدم.. وإذا اختفى الخبز انفجر الدم.

وفى سنة ١٩٣٢ اجتمع ٥٢٨ من علماء النفس فى أمريكا وأثاروا هذه القضية، وتساءلوا: هل الانسان عنيف بطبعه؟ . وهذا العنف ضرورى والحروب ضرورية والعنف يؤكد به الانسان وجوده.. لأن العنف معناه: أننى هنا.. وليس من الضرورى أن تكون أنت هنا.. فما رأى العلماء الحاضرين فى هذا المؤتمر؟

٣٦٢ أجابوا بأنهم يشكون فى أن العنف أسلوب لا مفر منه و ١٠فقط قالوا نعم.. أى أن العنف ضرورى و٢٢ كانت إجابتهم غامضة و ١٥٠ امتنعوا عن الاجابة.

وبقيت المشكلة قائمة.. وبصورة عنيفة، لأن عدم فهم هذا الموضوع لا يفرض طريق العنف، فبعد الحرب العالمية الأخيرة اندلعت المظاهرات والانقلابات والثورات فى كل بلاد العالم.. بلا استثناء

كما حدث فيما بين ١٩٤٥ و ١٩٦٤ أكثر من ثلاثين نزاعا دوليا.. من بينها ١٣ حربا عالمية.

فهل هو الجوع والبحث عن الطعام أو المزيد من الطعام هو الذى يدفع الشعوب إلى أن تدوس الشعوب وتقضى عليها؟

يبدو أن هذا الرأى ليس صحيحا.. والدليل على ذلك أن المجتمعات التى نمت قد انتشرت فيها كل أنواع الجرائم، وكل صور العنف، فالمجتمع الأمريكى وهو«مجتمع الرفاهية» ملىء بكل صور الدماء. على الأرض وعلى الشاشة. ولكن يجب أن نفهم أن «مجتمع الرفاهية» ليس معناه المجتمع الذى يعيش أفراده فى رفاهية. ففى أمريكا فقراء تعساء بالملايين، وربما كان هؤلاء الفقراء أحسن حالا من زملائهم فى الهند.. صحيح أنهم ينامون عل الأرصفة، ولكن الفارق الوحيد أن الفقير الهندى من الممكن أن يموت من الجوع.. أما الفقير الأمريكانى فمن الممكن أن يموت جائعا.. أى يموت دون أن يأكل كل ما فى نفسه.

ومن مقاييس الرفاهية أن يملك الأمريكى سيارة، ولكن السيارة نفسها ليست ترفا بل هى وسيلة ضرورية، كضرورة علبة الكبريت لمن يدخن.. وإن كان التدخين نفسه ليس ضروريا. ولكن الأرقام تقول لنا أن ٤٠٪ من الشعب الأمريكى يشترون ٩٠٪ من السيارات التى تنتجها المصانع.

فهل الناس راضون فى مجتمعات الرفاهية..؟!

إن هناك سخطا شديدا، وهناك شبانا ثائرين، متمردين، يقفون يتفرجون على المجتمع، ويتمنون زواله. يقفون شامتين فى انهيار القيم الاجتماعية والاخلاقية ويفضلون أن يحرقوا أنفسهم على أن يعملوا، أى يفضلون الموت على الحياة فى مجتمع الرفاهية.

إذن ليس الطعام .. وإنما هو الشر والعنف الأصيل فى نفوس الناس هوالذى يدفعهم إلى البحث عن فرصة.. عن مناسبة يؤكدون فيها لأنفسهم ولغيرهم أنهم مجرمون.

وفى مواجهة ثورة الشبان شكوى الآباء أيضا. فالآباء ساخطون على أولادهم، فأولادهم لا يشعرون بأى امتنان لما فعله المجتمع من أجلهم فهذا العقوق صفة من صفات الجيل.. بل صفة من صفات كل جيل جديد.

وقبل الميلاد بثمانية عشر قرنا وجدنا قوالب من الطوب فى العراق تحكى قصة أحد الأبناء« الخنافس » فى ذلك الوقت.. فأبوه يشكو من أنه صعلوك يتسكع فى الشوارع ليلا ونهارا ويشكو من أن ابنه يتصور أن لدى والديه جبالا من الذهب.. وأنهما لا يتعبان فى جمع المال.. وهو فى نفس الوقت لا يفكر فى أن يتعب نفسه. إذ يكفيه أن أباه قد تعب. فليس من العقل أن يتعب اثنان من أجل مبلغ واحد.

وهذا الابن العراقى كان ينتسب إلى طبقة المثقفين.

ولكن السخط الآن يشمل كل الطبقات فى مجتمعات الرفاهية.. وهناك عشرات الكتاب يسمون أنفسهم بالأدباء الساخطين.. وهناك ملايين يسمون أنفسهم الساخطين.. وإن لم تكن عندهم قضية.. أى مبررات قوية للسخط، إنهم ساخطون وعلى غيرهم أن يفسر هذا السخط.. فإذا كانوا مرضى فليتحول الناس إلى أطباء.

وحدث فى موسكو سنة ١٩٦٦ ما جرى قبل ذلك فى لندن.. ألوف الشبان اجتمعوا فى الميدان الأحمر.. ومن بين الشبان اثنان يحمل كل منهماجيتارا للأطفال بمناسبة خاصة، وحدثت شرارة وتعالت الأصوات، وخرجت الأيدى

من الجيوب، ولمعت سكاكين. ونشبت معارك.. فضها البوليس بسرعة، وصدرت بعدها إجراءات عنيفة، ولكن المهم أن شيئا ما قد حدث.. لا يختلف كثيرا عما حدث فى لندن أو نيويورك أو باريس بعد ذلك.

ولذلك يجب أن نتساءل مرة أخرى: هل صحيح أن كل أبناء مجتمعات الرخاء يعيشون فى رخاء؟ هل كل الفلوس متداولة بالعدل بين الناس؟ فى أمريكا نجد أن هناك أغلبية متوسطة الحال وأربعين مليونا من الفقراء وهناك أقلية تملك كل الثروات وكل القدرات.

ولذلك لا يمكن أن نصف الناس فى أمريكا بأنهم يعيشون فى رفاهية ورخاء.. وإنما بعض الناس فقط.. لأن الفلوس كالأسمدة يجب أن نبذرها وننثرها فى كل الحقل وتحت كل الأشجار.

ولو انتقلنا من عالم الانسان إلى عالم الحيوان وهذا هو الأساس فى هذا الكتاب الممتع الذى أقدمه فإننا سنجد حقائق غريبة تدهشنا. ففى عالم القرود مثلا، وهى من الثدييات كالانسان قد لاحظ العلماء أنها تعيش حياة عنيفة فى أقفاصها فى حدائق الحيوان. فالقوى يقتل الضعيف.. والضعيف هو الطفل والأنثى.

وإذا كان عالم الانسان هو: عالم الحق قوة، فإن عالم القرود هو عالم: القوة حق.

وفى عالم القردة فى أقفاصها نجد أن القرد عندما يثور قد يأكل أحد القردة.. مع أن القردة حيوانات لا تأكل اللحوم.. ولكنها ثورة الغضب وجنون العنف.

والعالم الكبير سوكرمان قد أجرى تجارب عديدة على مائة قرد ووضعها فى جبلاية، ووفر لها الطعام.. فعالم القردة هذا هو عالم الرفاهية.

فالمسكن متوافر والطعام كثير، والرعاية الصحية للجميع، ثم أن فى داخل هذه القبيلة من القرود يوجد القرد القوى الذى يحكم القبيلة، والذى إذا اقترب من قرد صغير فى فمه موزة فإنها تسقط من فمه فورا.. ثم يدير وجهه للحائط.. فماذا حدث فى هذا المجتمع؟ لم يتغير شىء.. إن أعمال العنف مستمرة. والسطو والخطف والقتل لأتفه الأسباب.. وإذا نشبت معارك دامية ــ وهى عادة دامية ــ فإن الأغلبية هى من الاناث والصغار.

وقد قام الأستاذ سوكرمان بتجاربه سنة ١٩٣٠ وظلت نظرية سوكرمان سيدة على كل الأبحاث العلمية منذ ذلك الوقت ، وخلاصة هذه النظرية أن الانسان والقرد لا يغيران من طبيعتهما إذا وجدا الطعام والشراب والمسكن، فكما أن القرد عنيف بطبعه، فالانسان كذلك وإذا كان الانسان عندما يقتل يقضى على الملايين، فإن القرد من الممكن أن يفعل نفس الشىء لولا أن الأسلحة الحديثة هى التى تنقصه فقط.. ولكن الرغبة والاستعداد والأسباب متوافرة.

وكان لابد أن يمضى بعض الوقت قبل أن يكتشف العلماء تفسيرا آخر لأساليب العنف عند الانسان والحيوان.

وقبل أن نهتدى إلى هذه النظرية الجديدة يجب أن نعرف ما الذى تفعله هذه القرود قبل أن يحبسهاالانسان فى قفص فى جبلاية فى حديقة فى مدينة.. يجب أن نعرف ما الذى تفعله القرود فى الغابة.

لا الانسان شرير بطبعه.. ولا الحيوانات. فهذا الذى نسميه« الطبع » يتغير حسب الظروف وحسب البيئة. ومن الممكن أن يكون أى إنسان أى شىء.

وقصص «أمنا الغولة» التى ملأت كتب الرحلات القديمة، كانت تصف الغولة بأنها قوية جدا.. وأنها رقيقة أيضا تعطف على الأطفال وعلى الفقراء واليتامى.. ولكن ظهرت نظرية العالم الكبير سوكرمان وأكدت أن القرود عنيفة بطبعها. والانسان أيضا . وأن كل القصص القديمة عن الغولة هى قصص قديمة.. خرافات. وأما الأفكار الجديدة التى اهتدى إليها هذا العالم الكبير من ثلاثين عاما فهى: أن القردة عنيفة بطبعها.

وأن العنف عند القرود وكل الحيوانات والانسان يسببه الجوع.

ولكن النظريات الجديدة ترفض ذلك، وهذا ما يعرضه علينا الأستاذان كلير ورسل فى كتابهما «العنف والقرود والانسان».

فقد أتى العلماء بمئات من القرود ووضعوها فى ظروف ممتازة، فيها الطعام والشراب والعناية. فى اليابان وفى إحدى جزر المحيط الأطلنطى أيضا. ولاحظ العلماء أنه على الرغم من وفرة الطعام والشراب فإن أعمال العنف مستمرة. واهتدى العلماء إلى أن للعنف أسبابا أخرى غير نقص الطعام.

من بين هذه الاسباب أن يكون المكان ضيقا.. فمن عادة القرود أن تخصص مكانا للنوم. وبعض أنواع القردة لا ينام فى المكان الواحد ليلتين متواليتين.. فإذا لم تجد القردة هذه الأماكن الفسيحة اضطربت وثارت. فجاءت أعمال العنف.. ومن المعروف أن كثرة الاضطرابات النفسية تؤدى إلى سهولة انتقال العدوى والمرض والموت.. ولذلك مات معظم القرود التى نقلها العلماء فى أقفاص من الخيزران من آسيا إلى أمريكا.

وعندما يكون كبير القرود ضعيفا فإن هذا يؤدى إلى الفوضى فى جبلاية القرود. فمن المعروف أن جميع أفراد الجبلاية ينظرون كل الوقت إلى

الزعيم ويتحركون وراءه فهو وحده الذى ينسق نظراتهم وحركاتهم.. ولكن إذا كان ضعيفا لا يخيف فإن هذه الوحدة فى الأفعال ترتبك.. والارتباك يؤدى إلى الانقسام. والانقسام يخلق التوتر.. ومن التوتر يولد العنف والمعارك الداميةالتى يروح ضحيتها الاناث والأطفال.

ولكى يكون مجتمع القرود منسجما يجب أن يكون عدد الاناث ٩ أمثال الذكور. ولذلك فالزعيم القومى هو الذى ترضى عنه الاناث.. والأنثى فى القرود – وفى الانسان أيضا – تفضل الذكر القوى على الذكر القاسى.. والزعيم القاسى هو الذى تتخلى عنه الاناث. فإذا تخلت عنه لم يعد زعيمها. ومظاهر قوة الذكر هو أن يحمى الجماعة. ويختار لها مكان الطعام ومكان النوم ويداعب الصغار.

ومن عادة زعيم القرود أن تكون له زوجة مفضلة.. أو عشيقة. وهذه العشيقة تبدأ عادة بأن تكون رقيقة.. ثم بعد ذلك متغطرسة. ولكن يحرص الزعيم على زعامته فإنه أحيانا يطرد العشيقة ويأتى بغيرها.. والذى يحدث فى عالم القرود يحدث فى عالم الانسان.. ففى انكلترا كان للملك جيمس الأول عشيق. وهذا العشيق كان متسلطا على الملك والحاشية. واضطر الملك إلى أن يتخلص منه. فقتله.

وفى فرنسا كان للملك لويس الرابع عشر عشيقة هى مدام مونتسبان بدأت علاقتها بالملك فى رقة ولطف. ثم راحت تتأمر وتأمر فتخلص منها الملك.. وظهرت عشيقة أخرى هى مدام دى مانتنون. وسارت فى نفس الأسلوب اللطيف وانتهت إلى نفس الأسلوب العنيف.. لم تكن هى التى تلجأ إلى العنف وإنما كانت تدفع الملك إلى أن يكون قاتلا.

والسيدة سارة تشرشل زوجة الدوق مارلبرو استطاعت عن طريق صداقتها القريبة للملكة أن تتصرف فى العرش وفى البلاط.. فلما استبدت أبعدتها الملكة.. والملكة اليزابيث الأولى كانت من أعقل الملكات.. ولكن عشيقها تسلط عليها وعلى العرش. فأبعدت العشيق وقضت عليه.

والملك هنرى الثامن كان سفاحا قضى على أكثر من سبعين ألف من الشعب الانجليزى.. بيده وبيد غيره.. وكانت له عشيقة اسمها آن بولين.. هذه العشيقة تسلطت على كل الناس.. فاتهمها الملك بأنها خائنة مع أخيها.. وقتلها.

ولاحظ العلماء فى جبلاية القرود فى بورتوريكو وفى اليابان أن زعيم القرود يترك لعشيقته أن تفعل ما تشاء أول الأمر. وبعد ذلك عندما يلاحظ أن القرود قد اتخذت منها موقفا عدائيا. فإنه يقضى عليها. وبسرعة تزحف وراءه.. وتقف أمامه عشيقة أخرى.. وهنا تهدأ القرود ويستقر وضع الزعيم.

وإذا كان عدد الاناث أقل من عدد الذكور. أو كانت لكل ذكر أنثى واحدة . فإن هذا الوضع يصيب القرود بالاضطراب الشديد.. وقد تلجأ بعض القرود إلى اعتزال الحياة تماما.. أو إلى نشوب المعارك بين القردة تنتهى عادة بمقتل إناث.. فيتفرق القرود فى الغابة.. أو أنها تحاول الانضمام إلى قبائل أخرى.. وكثيرا ما تقاوم القبائل الأخرى هؤلاء الغرباء فتطردهم أو تقتلهم.

أما القرود التى تعيش فى الغابات، فلا تعرف العنف.. ومن الحوادث النادرة أن تقع معارك دامية.. ولكن المألوف أن تحدث معارك واشتباكات.

وقد أكد العلماء خلال ألوف الساعات من الرقابة الدقيقة أن المعارك التى تؤدى إلى القتل نادرة جدا.. وإن كانت هذه المعارك منتشرة جدا بين القرود فى الاقفاص أو فى الأماكن التى ليست متسعة كالغابات.

ففى الهند مثلا يقدسون بعض أنواع القرود. ولا يمكن أن يعترض مواطن عملا من أعمال القرود. وهى لذلك تمشى فى الشوارع وتتسلق الأشجار وتدخل البيوت فى هدوء وبلا خوف. وإذا حاول إنسان أن يبعدها فإنه فقط يشير إليها بيده ولكنه لا يمسها. فهذه القرود تعيش فى هدوء وأمان تام.. وفى سنة ١٩٦٠ فوجىء الناس فى العاصمة بعدد كبير من القرود قد زحف على وزارة الدفاع.. وراحت القرود تمزق الدوسيهات وتلقى بها من النوافذ.. ولكى يسترد الموظفون هذه الأوراق الهامة فانهم يلقون بالطعام للقردة.. ومثل هذا الحادث الفريد لا يمكن أن يقع فى أى بلد إلا فى الهند حيث تعيش القرود والأبقار فى أمان وسلام.. لأن الهنود ينظرون إليها بشىء من التقديس.

وفى حالات نادرة جدا وجدنا أن الأغلبية الساحقة من الاناث فى جبلاية القرود اختارت واحدة وجعلتها زعيمة. وهذه الزعيمة تجمع حولها أكبر عدد ممكن من الذكور. ولكن زعامة النساء لا تطول عادة.. فبسرعة يقفز أحد الذكور الأقوياء فتتحول الزعيمة إلى عشيقة أو إلى جثة هامدة.. ومثل هذا الموقف حدث أيضا فى عصر أنطونيو.. فقد كان الرجال مشغولين بالقتال والاستعداد للمعارك. أما النساء فقد كن مشغولات بالحياة الاجتماعية والسياسية وإدارة البيت وفى نفس الوقت إدارة الحياة العامة.. وكان أنطونيو فى حاجة إلى ضرائب جديدة من أجل الجيوش. ولما فرض الضرائب اعترضت النساء. وتقدمت النساء امرأة اسمها هورتنسيا.

وناقشته وهددته أمام النساء والرجال. وعدل أنطونيو عن الضرائب الجديدة. وظلت هورتنسيا هى الحاكم الحقيقى من وراء الستار.

أما كيف يحدث هذا العنف فى جبلاية القرود؟.

لاحظ العلماء أيضا أن الزعيم يبدأ بالعنف.. وبعد ذلك يسرى العنف كالنار فى الجبلاية. فإذا غضب الزعيم على عشيقته وضربها على رأسها مثلا، وجدنا القرود كلها اتجهت إلى ضرب الاناث.. وأحيانا إلى ضرب الذكور أو الصغار ومعنى ذلك أن العنف يبدأ بضربة الزعيم ثم بتكرار هذه الضربة من بقية الأفراد.. دون أن تكون لدى هؤلاء الأفراد أية أسباب وجيهة.

أو بعبارة أخرى إذا افترضنا هذا العنف هو كرة يشوطها الزعيم.. فإن كل الأفراد «يمررون» الكرة ويحولونها وجهة أخرى.

فإذا دخل جبلاية القرود قرد أجنبى يكفى أن يلعب الزعيم بعينيه ويفتح منخاريه ويحرك أذنيه، ليترجم القرود هذا كله بأنه من الضرورى طرده أو قتله فورا.. ويقتلونه فورا.

وقد صور الأديب شريدان هذا المعنى فى قصة له اسمها «المتنافسون». ففى القصة نجد أن الأب يضرب الابن.. والابن يضرب الطاهى. والطاهى يذهب إلى زوجته يضربها.. والزوجة تضرب ابنها.. والابن يضرب أحد المشاة بطوبة بلا سبب واضح.. فكأن الأب هو الذى ضرب أحد المشاة.. فهذا التسلسل فى العنف هو الذى يحدث فى جبلاية القرود..

ويمكن أن يقال أن العنف الذى نراه له أسباب أخرى غير التى نلاحظها من أول وهلة.. فضرب الطفل لأحد المشاة ليس هو السبب.. إنما السبب أبعد من ذلك..

وكان الامبراطور فريدريك الأكبر يقول إن الجندى يجب أن يخاف من رئيسه أكثر من عدوه.. وهذا الخوف هو الذى يدفعه إلى القتال..

أما ليون تروتسكى الذى أنشأ الجيش الأحمر فكان يقول أن الجندى يجب أن يعرف أن هناك نوعين من الموت: موتا محتملا وهو إذا تقدم. وموتا مؤكدا إذا تقهقر.

ومن هذا الخوف تتولد الكراهية للعدو.

وقد ظن بعض الناس أن معارك الشباب فى بريطانيا سنة ١٩٥٠، ومظاهرات الطلبة فى أمريكا سنة ١٩٦٦، قد حدثت تحت تأثير قوى أجنبية.. أو مؤامرة غربية. ولكن الحقيقة هى التى أعلنها أحد أعضاء الكونجرس فى حديث نقلته الأقمار الصناعية بين أمريكا وأوروبا يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٦٧ فقال: هذه المظاهرات هى نوع من الضيق يتحول إلى عنف..

وعملية ضرب الكرة وتمريرها وتحويلها إلى وجهة أخرى هى التفسير الوحيد لأعمال العنف وكيف تتجه إلى ناحية أخرى ليست على البال.. ففى الولايات الجنوبية لأمريكا اتجه البيض الفقراء إلى قتل الزنوج. لماذا؟ لأن البيض الفقراء ساخطون على البيض الأغنياء. ولكن البيض الأغنياء أقوياء.. فاتجه سخط الفقراء البيض إلى الزنوج الذين لا ذنب لهم فى هذه الفوارق الهائلة بين البيض..

فهذه الأعمال العنيفة التى قام بها البيض ضد السود هى فى الحقيقة نوع من الكراهية العاجزة ضد البيض الأغنياء تحولت إلى كراهية قوية

ضد السود.. أى أن الكرة اندفعت إلى وجهة أخرى ضد أناس لا ذنب لهم.

وفى أيام روسيا القيصرية كان الشعب ساخطا على الظلم والارهاب القيصرى. فدفعت القيصرية بالشعب كله فى حرب مع الألمان.. واشتعلت معارك دامية عنيفة. وعرف الجنود الروس الجوع والمرض والهلاك.. وعندما انتهت الحرب عادت الجيوش توجه كراهيتها ضد القيصرية.. فكانت الثورة الروسية الكبرى.

وفى تاريخ إنجلترا نماذج واضحة لحيرة الشعب الانجليزى بين الكراهية الداخلية التى تؤدى إلى حرب أهلية. والكراهية التى تتجه إلى الخارج فتشعل حربا دولية.. وقد استطاع شكسبير العظيم أن يدرس التاريخ الانجليزى كله وأن يسجله فى مسرحياته التاريخية الرائعة.

ففى أيام هنرى الثانى (حرب أهلية).. وادوارد الأول (حرب دولية).. وادوارد الثانى (حرب أهلية) وادوارد الثالث (حرب خارجية).. وفى أيام ريتشارد الأول وهنرى الرابع (حرب أهلية).. وهنرى الخامس (حرب خارجية).. وهنرى السادس (حرب أهلية).

وفى التاريخ الأوروبى والأمريكى أمثلة كثيرة لذلك..

فليس نقص الطعام فى جبلاية القرود هو الذى يدفعها إلى العنف.. ولكن الخلل فى تكوين أفراد الجبلاية.. ونقص الأثاث وضعف الزعيم.. ثم ضيق المكان والزحام الذى يخنق الأفراد ويصد نفوسهم عن الطعام والحركة واللعب.. وإذا مات قرد صغير فى جبلاية فليس القاتل هو القرد الكبير الذى يقف إلى جواره.. وإنما القاتل هو أبعد من ذلك بكثير..

أو بعبارة أخرى إنسانية. كل من يضربك على قفاك هو إنسان مضروب بالشلوت من واحد مضروب على قفاه..

فى أحد أعياد سنة ١٧٦٦ التف الفرنسيون حول قفص للقرود.. وتهامس الرجال.. وتزاحمت النساء أما الأطفال فقد تاهوا بين الأقـدام.. وتغـامز الجميع. وتقدم إلى الصفوف الأولى أحد العلماء الكبار. ورأى هذا المنظر الغريب وبصق على الأرض واستنكر أخلاقيات القرود وكتب فى ورقة صغيرة فى جيبه: هذه هى المرة الثالثة والعشرون اليوم. منتهى الـوقاحة.. حتـى القرود الذكور عندها هذه الرغبة السخيفة فى استعراض القـوة الجنسـية وسيطرتها على الاناث.

وكان العالم الفرنسى هو الكونت بيفون..

وكان المنظر هو أن قردة أدارت ظهرها لقـرد ذكر.. للمـرة الثـالثة والعشرين فى يوم واحد.

وكانت الملحوظة صحيحة. ولكن التفسير خاطئ تماما.

فقد اهتدى إلى معنى هذا المنظر عالم ألمانى كبير فى سـنة ١٩٠١ فى حديقة حيوان هانوفر.. فقد رأى منظرًا مشابها. أمـا تفسـيره فهـو: أن الخوف هو الذى يدفع بالأنثى إلى أن تدير ظهرها إلى الذكر... وأن هـذا الاستسلام المتكرر ليس رغبة جنسية ولكن الخوف الفظيع هو الذى يـدفع الأنثى إلى ذلك.. أما القرد القوى العضلات أو القرد الزعيم فى الجبلاية أو فى القفص فلا يتردد فى أن يبدو قويا، وليس من الضرورى أن يكون العمل جنسيا تماما.

والمعنى العام الذى أهدف إليه هنا هو: أن أى اضطراب فى مجتمع القرود يؤدى إلى موقف عنيف.. فالزحام الشديد فى المكان الضيق يؤدى إلى العنف. والعنف يؤدى إلى سطوة القوى على الضعيف.. والضعيف فى مجتمع القرود هو: الاناث والصغار والضعيف هو الضحية وعندما ننظر إلى قمة مجتمع نجد الذكور الأقوياء، أو الذكر القوى، وهو فى صحة جيدة. وحركاته بطيئة، ويأكل على مهل، ويهضم على مهل. وأحسن مقياس لصحته: نعومة فروة الشعر.. وعندما نراقب سفح مجتمع القرود نجد الصحة هزيلة. والأجسام نحيلة. ونجد الخطف والسلب ونجد الأرق عند النوم. فقد لاحظ أحد العلماء عند مراقبته لعشيقة زعيم القرود عند اليوم: أنها تتحرك ٢٧ مرة فى الليلة الواحدة.. بينما وجد أن إحدى الاناث الأخريات من المنبوذات تتحرك ٩٢ مرة وهى نائمة..

وكلما زادت الاضطرابات النفسية، كان ذلك دليلا على أننا قريبون من الحد الأدنى للحياة الاجتماعية.. عند القرود أو عند الانسان.

والاقتراب أو التمسح هو الشىء الوحيد المقبول فى جبلاية القرود.. فالأنثى عندما تخاف فإنها تتمسح فى الذكر. ليس هذا فقط. بل أن الذكور عندما تخاف فإنها تدير ظهرها أيضا لزعيم القرود..

فهذا الموقف ليس حبا. وإنما الخوف هو الذى أدى إلى موقف جنسى زائف.. أو موقف جنسى منحرف..

وكثيرا ما فعل زعيم القرود ما يفعله القردة عند الخوف أيضا فأدار ظهره إلى شبان القرود.. فلا يملك القرد الشاب الخائف الا أن يطيع ـ وهذا موقف جنسى زائف.. أو منحرف.

ومن الممكن أن يحدث هذا أيضا بين إناث القرود..

وقد لاحظ الأطباء فى مستشفى الأمراض العقلية وفى ولاية بنسلفانيا أن نسبة الاضطرابات بين الكاثوليك.. وبين الملونات من الكاثوليك أعلى من أية نسبة أخرى.

فالكاثوليك أقلية.. والملونات أقلية.. ولذلك كانت الاضطرابات عنيفة بين أقلية الأقلية.

وكان هناك رأى غريب يقول أن الانسان موجود فى قاع المجتمع لأنه متخلف عقليا.. أى أنه فى المكان المناسب له.. فالحقيقة أن الانسان مضطرب الأعصاب متخلف العقلية لأنه تحت.. لأنه عند قاع المجتمع. فالحياة فى القاع تخنق. فالانسان ليس مخنوقا، ولذلك هو تحت. ولكنه مخنوق بسبب أنه ضغط ملايين الناس.

وقد لاحظ العلماء اضطرابا واضحا فى سلوك القرود الأجانب. فنقلوا هذا القرد الأجنبى إلى جبلاية أكبر وأوسع.. وكان هذا القرد قويا لدرجة أنه استطاع أن يزحف ويصبح على مقربة من حاشية زعيم القرود.. وهذا الاقتراب من الحاشية جعله فى مأمن.وهذا الأمان جعل القرد أكثر هدوءا عند الأكل والنوم.. وخف توتره العصبى ــ لأنه لم يعد منبوذا.

وعند الخوف أو الفزع فى جبلاية القرود ما الذى يفعله الضعيف؟

الضعيف يتفادى مصدر الرعب، فينظر إلى ناحية أخرى.. ويتفادى أن ينظر فى عينى القرد الكبير المخيف. وعندما يخاف فإنه يمسك شيئا آخر يمزقه.. بعض الحشائش.. أو يمسك طوبة ويلقى بها فى الماء.. فهو إذن يحول خوفه إلى غضب.. أو يدير ظهره إلى كل قوى مخيف.

وكانت السيدة كلير راسل إحدى مؤلفي هذا الكتاب هي أول ما اهتدت إلى هذا الموقف الذى تتخذه القرود عند الخوف. وأطلقت عليه اسم «السلوك الجنسى الزائف». هذا الموقف الجنسى الزائف منتشر جدا بين القرود فى الأقفاص أو فى الجبلاية. وبين الفئران أيضا. ولكن هذا السلوك الشاذ لا وجود له فى الغابة فلم يحدث قط أن اضطر قرد ذكر إلى أن يستسلم بهذه الصورة الشاذة لقرد أقوى.

وهذا الذى يقال على القرود فى الأقفاص، يمكن أن يقال على الناس فى السجون وفى الأقسام الداخلية فى المدارس والمستشفيات وفى معسكرات العمل وفى معسكرات الجيش أيضا وأخطر من ذلك: يجب أن نعيد النظر فى كل ما قاله العالم الكبير فرويد. فلم تكن نظرية فرويد الجنسية قائمة على الجنس السليم. وإنما على الجنس الزائف، على الانحراف الجنسى.. على أنواع من الناس فى أوضاع مشابهة لهذه القرود فى الأقفاص. فهو أيضا قد رأى ما يفعله الخوف، فاعتبره نوعا من النهم الجنسى.. والحقيقة أنه ليس شرها ولا نهما جنسيا وإنما هو الخوف تحول إلى استسلام. له مظهر الجنس ولكنه ليس جنسا.

ولذلك يجب أن نعيد النظر فى التقرير الشهير الذى نشره الدكتور كنزى هو وزملاؤه.. فقد كان التقرير عن العلاقات الجنسية فى أمريكا قبل وأثناء وبعد الزواج.. وقد كشف لنا هذا التقرير عن نتائج خطيرة. ولكن عيب هذه النتائج أنها جاءت من مقدمات خاطئة.. فالمجتمع الذى درسه كنزى وزملاؤه هو أقرب إلى مجتمعات القرود.. أكثر ما فيه الخوف وأقل ما فيه الجنس.

وإذا نحن عدنا إلى التقرير الشهير الذى صدر فى سنة ١٨٥٩ عن البغاء فى مدينة نيويورك وجدنا أن ٢٥٪ من محترفات البغاء كان بسبب الفقر.. وأن ٢٠٪ بسبب اليتم أو فقدان الأب أو الأم.. وأن ١٥٪ بسبب الحياة الاجتماعية الفاشلة.. هذا يدل على أن البغاء نتيجة حقيقية للخلل الاجتماعى فى مدينة نيويورك. ومعنى ذلك أن البغاء ليس سببه الرغبة الجنسية من جانب المرأة.. ليس الجنس هو الذى جعلها بغيا.. ولكنه الفقر والاضطراب الاجتماعى هما اللذان جعلاها تتجه إلى الجنس.. إنه العنف الذى جعلها تخاف.. وجعل أمنها الوحيد هو أن تكون على مقربة من الرجل.. أى رجل..

وليس فى مدينة نيويورك وحدها ولكن فى كل العواصم والموانى.. وليس فى العصر وإنما فى كل العصور.

طبعا هناك حالات كثيرة فيها شراهة جنسية. ولكن هذه الحالات أيضا دليل على القلق والاضطراب النفسى والاجتماعى.. فليس من الطبيعى أن تجد إنسانا يأكل عشر مرات فى اليوم ثم يخفى الطعام فى جيوبه.. ثم إذا هو تناول طعامه أدار وجهه للحائط وراح يخطف الأكل خطفا.. مع أنه لا خوف عليه من أحد. ولكن هذا السلوك الغريب ليس سببه حب الطعام، ولكن سببه الخوف أن يحرمه أحد من الطعام وهذا الخوف قد أدى إلى جشع دائم.. وليس هذا بالسلوك الطبيعى.. فهى «شراهة» سببها الخوف. ثم هو خوف تحول إلى «عادة». وفى الجنس نفس الشىء. إنه الخوف الذى تحول إلى نوع من اللجوء الجنسى إلى أى أحد.. إلى أكثر من أحد.. حتى أصبح «اللجوء» أو «الالتجاء» عادة.. وموقفا ثابتا.

أحسن صورة لكل أنواع العنف والخوف والكراهية والجنس والانحراف الجنسى والجوع والمرض والفلوس هو ما حدث فى فيتنام الجنوبية.. ففى سنة ١٩٦٥ زاد عدد سكان فيتنام. طبيعى.. نقص الطعام بسبب الحرب. زادت القوات الأمريكية: شباب وفلوس وخوف وطعام. وزاد عدد الأطفال اليتامى.. وفى سنة ١٩٦٤ كان عدد الأطفال الذين هم أقل من ١٦ سنة حوالى ٣٠ ألفا يعيشون على السرقة وعلى الدعارة. الذكور لصوص.. والاناث داعرات.. حتى لقد أصبح دخل الفتاة التى فى الرابعة عشرة من عمرها مائة جنيه فى الشهر.

وفى العاصمة سايجون وحدها عدد لا يمكن معرفته بدقة من محترفات الدعارة.. ولا يمكن أن يوصف هذا الموقف من الفتيات فى الثانية عشرة بأنه موقف جنسى.. ولا هو كذلك بالنسبة للجنود الأمريكان.. وإنما هناك خوف عام وفزع عام.. أدى إلى موقف غريب: ليس جنسا وإنما هو انحراف جنسى.. أو انحراف بالجنس.. بالجنسين معا.

ويمكن أن يوصف هذا النشاط المنظم فى فيتنام، وفى غيرها، بأنه تجارة رقيق.. وهى بالفعل تجارة.. والفتيات رقيق أصفر.. أو أبيض..

ولا تزال تجارة الرقيق منتشرة فى العالم بشهادة الأمم المتحدة.. ومن الملامح المعروفة فى التاريخ أنه عندما تظهر طبقة جديدة، وتحاول أن تتساوى اجتماعيا بطبقة قديمة قوية، فإنها تنادى بالعفة والشرف. ولكنها لا تلبث بعد أن تنسى هذا أو تدعو إلى نسيانه..

ففى بريطانيا وجدنا رجال الصناعة الذين كانوا يحلمون بالمساواة مع الاقطاعيين فى عصر الملكة فيكتوريا، هم الذين ينادون بطهارة اليد

والساق.. وهم الذين يطالبون بالعفة.. وهم فى الحقيقة يطالبون بمزيد من القيود الأخلاقية لغيرهم من الناس. فهذه القيود الأخلاقية لغيرهم من الناس.. هذه القيود، تحميهم من الناس،. ولكنها لا تحمى الناس منهم. ولذلك لم تختف الرذيلة.. وإنما ظلت هناك فى مقدور الأغنياء.. والرذيلة هى كلمة يطلقها الغنى عندما يقفل الباب وراءه بعد أن يخرج من بيت سيدة فقيرة. وهو قادر على أن يعطى المال، وهى لا تملك إلا جسدها.. ولأنه قادر فهو وحده الذى يملك حق إطلاق هذه الكلمة على المتعة التى نالها.. ولأنه دفع ثمنها.. ولأنه اشتراها - فهى رذيلة ولا أحد يعرف إن كان العدل يقتضى أن توصف المرأة الفقيرة بأنها أيضا كذلك.. وهى بالفعل.. ولكن يجب أن نبحث عن «صفة أخرى» و «بديل» لهذه الكلمة : الفقر.

ويمكن أن يقال أن ٩٥٪ من الشعب الأمريكى يرتكب نوعا من الرذيلة كل يوم. هذه إحصائية.

وفى ألمانيا كانوا يطالبون بضرورة العفة والطهارة واحتقار الجسم وذلك عن طريق السيطرة عليه وتسخيره لخدمة الجنس الجرمانى سيد الأجناس - كما يقولون - والنازيون لم يكونوا جادين فى هذه المطالبة بالطهارة.. وما كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إلقاء التهم الجنسية على خصومهم ليطردوهم من مواقعهم فى الحياة الاجتماعية فى ألمانيا.. ويكفى أن يقال : أن هذا الرجل الشاذ.. ليصبح ذلك مبررا لفصله أو عزله أو سجنه. فالنازيون كانوا يبالغون فى قيمة الفضيلة، ليكون الخروج عليها عملا إجراميا لا يمكن السكوت عليه.

والحقيقة أن معظم زعماء النازية كانوا شواذ من الناحية الجنسية.. فقائد فرقة العاصفة شاذ.. وقائد فرقة الحماية شاذ.. وأول من رأس منظمات الشباب النازية كان شاذا..

وباعترافه.. وهذا الموقف الشاذ قد شجع الكثيرين من الشبان على أن يكونوا مثل أضعاف الذكور والاناث فى جبلاية القرود.

والسبب العميق وراء الاضطرابات النفسية والاجتماعية والجنسية فى أى مجمتع هو: الحرص على إشاعة التفاوت بين الناس.. بين طبقات الناس أو بين زعيم القرود وحاشيته من الذكور وبين بقية القرود فى الجبلاية ويكفى أن نضع زعيم القرود بعيدا عن القرود. أى بعيدا عن رؤيتها له.. وحمايته لها، حتى يقع الخلل فى كل مجتمع القرود.. ومثل هذا السلوك كان واضحا جدا فى ألمانيا النازية.. ولذلك كان الشذوذ الجنسى من أوضح معالم المجتمع الألمانى..

والمجتمع الأمريكى المعاصر، هو مجتمع الرخاء والرفاهية — هكذا يقول عن نفسه. ولكن هذا المجتمع ليس رخيا ولا مرفها كما نتصور. ففى أمريكا وحدها ٣٠٪ من الشعب فقراء لدرجة أن ما يحصلون عليه من الطعام والمسكن أقل بكثير جدا مما كان يحصل عليه الفقير فى سنة ١٩١٠.. وهذا وحده يكفى لأن يحدث خللا واضطرابا عنيفا على سطح وفى قاع المجتمع الأمريكى.. والنتيجة معروفة.

والآن فقط نستطيع أن نجد تفسيرا لقصة عطيل المغربى ومحبوبته ديدمونة.. فعطيل هذا أفريقى مغربى. وحبيبته إيطالية.. وهو يحبها ويغار عليها..

وقد كان المغاربة يشتغلون فى الملاحة فى مدينة البندقية. وكان أصحاب السفن يعتمدون عليهم فى التجارة وفى القرصنة أيضا.. ولكن لأسباب كثيرة استغنى الايطاليون عن العمل. وعندما تتعطل الأيدى ينشغل القلب.

ويصبح الحب شاغل العاطلين.. وحب عطيل للفتاة ديدمونة.. ليس إلا نوعا من التعلق بإيطاليا والحياة فيها.. وفى نفس الوقت ليس إلا محاولة يائسة لارغام ديدمونة على الاستسلام، وليس هذا الذى نراه حبا أو جنسا وإنما هو الكراهية قد تحولت إلى حب.. والخوف قد تحول إلى جنس والاضطراب الاجتماعى قد دفع عطيل إلى أن يتساند على حائط متين فى يوم الطوفان.. كأن عطيلا هو نوح الذى يحاول أن ينقذ بالحب أهله من العمال العاطلين فى مجتمع شديد الاضطراب.. إن هذا الموقف قد استطاعت القرود أن تعبر عنه أحسن وأوضح.

والذى يفعله عطيل تفعله القرود.. وسوف ترى فيما بعد كيف أن الفئران البنية اللون أكثر وضوحا واقناعا.

وصورة أخرى لذلك تجدها فى السويد وفى القطب الشمالى.. ففى الدائرة القطبية نجد طيور الكركر.. ويسمونها الاسكوا.. وهى شبيهة بطائر النورس.. هذه الطيور ما الذى تفعله فى موسم الاخصاب. يذهب الذكر إلى البحر ويصيد سمكة ويقدمها للأنثى. وبسرعة تلتهمها.. وبسرعة يعود بسمكة ثانية وثالثة ورابعة.. وهو يختار نوعا معينا من السمك.

ويبدو أن الأنثى لا تستسلم للذكر إلا إذا شبعت.. أو امتلأت تماما. وقبل أن تغمض عينيها لتنام يتم اللقاء بين الذكر والأنثى. هذا إذا لم يظهر ذكر أقوى.. وغالبا ما يظهر ذكر أقوى.. ويذهب الأقوى ليأتى بأسماك أكبر..

ومن العجب أن الأنثى تفيق وتكون فى حالة من النشاط والحيوية والمرح.. وقد ترقص أيضا.. وتتجه إلى البحر الجليدى وتلقى بما فى بطنها

من سمك.. وتنتظر. ويتم اللقاء بين الذكر والأنثى.. فإذا كانت الأسماك كثيرة. تم الاخصاب. وإذا نقصت الأسماك لم يكن هناك إخصاب. وقد لجأ العلماء إلى الاتيان بعلب السردين تعويضا لهذه الطيور عند النقص فى السمك. وكانت الطيور تلتهم سردين العلب ولا يتم الاخصاب.. بل إن الذكور لا تحاول والاناث أيضا.

ومن الغريب أن العلماء لاحظوا أن عددا من الطيور كانت تعمل على خدمة طيور الكركر.. وهذه الطيور تبدو أنها أقل فى الدرجة وفى القوة وفى الجمال.. وكثيرا ما تجد طائرا من هذه «الطيور الخادمة» يتطوع بأن يأتى بالسمك.. ويتطوع بأن يضعه فى منقار الأنثى.. بل أكثر من ذلك تراه يمزق الأسماك ويحطمها بمنقاره.. ثم يضعها فى منقار الأنثى.. وعندما توشك الأنثى أن تستسلم ينشط ذكر الكركر زوجها فى هذه اللحظة. ومن الغريب أيضا أن الأنثى تستسلم بينما أعطت منقارها للطائر الولهان الذى أطعمها سمكا لينا سهلا.. إن هذا الطائر الخادم هو عطيل بين الطيور.

إنها أسباب أخرى غير التى ذكرها الشاعر شيكسبير جعلت عطيلا يحب تلك الفتاة ديدمونة.

فلماذا كل هذا العنف من الناس والحيوان والطيور؟ لقد أجاب المؤتمر الذى انعقد فى لندن سنة ١٩٦٣ : إن الزحام يولد الضغط، والضغط يولد العنف، والعنف يولد الخوف، والخوف يولد الانحراف..

ومن الصدف العجيبة جدا فى التاريخ أن يقف فى فرنسا سنة ١٧٦٦ الكونت بيفون أمام قفص القرود وأن يصف المشهد الجنسى الذى رآه بأنه : وقح. وأن يولد فى نفس السنة عالم إنجليزى اسمه مالتوس ويقف

أمام قفص القرود بعد ذلك بعشرين سنة. ويرى نفس المشهد ولكن ليكون له رأى آخر.. فكان رأيه : إنه الزحام فى القفص.. وفى البيوت وفى المدن وفى الدول هو الذى يؤدى إلى أن يكون الانسان قردا، وإذا كان قردا أن يكون شاذا.

هذه المسافات
بين الطيور
(٢)

طلب القاضى الانجليزى من المحلفين أن يكفوا عن الضحك. لأن الموقف يبعث على البكاء. ثم اتجه بكل جسمه إلى المتهم وقال له: كم عدد أولادك؟

ولم يجئ الرد سريعا. كان المتهم لا يعرف بالضبط كم عدد الأولاد.. وإنما أخرج يده من تحت البالطو وراح يعد على أصابع يده اليمنى. ثم يده اليسرى.. ثم نظر إلى زوجته كأنه يطلب منها أن تعيره يدها ليكمل العدد وقال: عددهم ١٢ طفلا.. سبعة ذكور وخمس إناث. وقالت الزوجة: بل عددهم ١٣ طفلا.

وضحك الحاضرون. وعاد القاضى ينظر إلى الرجل وزوجته.. كل ملامحهما هى ترجمة مستفيضة للسذاجة والبساطة والصدق.

ومن الغريب أن عدد الأطفال ليس ١٢ طفلا كما ذكر الأب ولا ١٣ طفلا كما ذكرت الأم وإنما عددهم أحد عشر طفلا.

والتهمة الموجهة إلى الأبوين هى أنهما أهملا أحد الأطفال حتى مات من الجوع. ودافعت الأم عن نفسها فقالت إنها تركت الطفل لأخته الكبرى

وهذه الأخت مشغولة بحب أحد العمال فتركت الطفل حتى مات جوعا. وأما الأم فهى تعمل ليلا ونهارا ولا تقوى على العناية بأطفالها وأما الأب فعاطل. وليست لديه أعصاب تقوى على صراخ الأطفال وهم يطلبون المزيد من الطعام.. هذه القضية لم تقع فى أواسط إفريقيا، ولا فى العصور الوسطى.. وإنما حدثت فى شمال انجلترا فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٦٥ بعد الميلاد.

والذى حدث فى هذه الأسرة يحدث فى عشرات الألوف من العائلات الانسانية.. فتحت ضغط العدد الكبير من أفراد الأسرة الواحدة، يضعف الأطفال جسميا ونفسيا..

ويحدث نفس الشىء فى جبلاية القرود..

ففى جبلاية القرود حيث يكون هناك زحام يكون ضغط. فإذا كان ضغط كان عنف. وإذا كان عنف كان خوف وإذا كان خوف فلا مفر من الانحراف.

وهناك طريقتان لكى يكون هناك زحام فى جبلاية القرود: أن تكون الأقفاص أو الجبلاية أصغر من عدد القرود.. أو يوضع الطعام فى مكان واحد. فيتزاحم القرود على الطعام وفى الزحام تتوتر الأعصاب. ويولد العنف فورا. وأمام الطعام يظهر فجأة القرد القوى أو القرد الزعيم. وإذا ما ظهر قرد قوى، ظهرت فى نفس اللحظة قرود الحاشية أو القرود التى تقل عنه فى القوة.. وأهم من ذلك ظهرت القرود المنبوذة أو المستضعفة. وعلى هذه القرود المنبوذة تدور المعارك الدامية. ويكون من نتيجتها أن تموت الاناث والصغار.

... وفى حظائر الغزلان أيضا. فأمام قطيع الغزلان إذا وضعنا طعاما رأينا بوضوح الغزال الزعيم.. ومن ورائه الغزلان الذكور والاناث والصغار ثم الغزلان الضعاف وتدور المعارك.. والضحية.. الاناث والصغار..

وفى أعالى النيل بدأت قطعان السيد قشطة تنقرض بسبب المعارك المميتة بين ذكور السيد قشطة. فهذه الحيوانات تتجمع فى مكان معروف وهذا التجمع أو هذا التجمهر يؤدى إلى الاشتباك العنيف.. ولذلك فمن المشاهد المألوفة أن تطفو على سطح المياه جثث منفوخة فى حجم زورق المطاط لضحايا هذه الحيوانات.

والتجارب التى أجريت على الفئران تؤكد أنه حيث يكون زحام، فإن التناسل يتناقص أو يتوقف.. فقد أجرى العلماء على مجموعة من الفئران تجارب عديدة. فأتوا بزوجين من الفئران وتركوهما ثلاث سنوات فتزايد عددها جدا. وبعد ذلك أخذ العدد يتناقص بسبب المعارك العنيفة والتوتر الشديد واستعدادها للمرض. ثم بسبب الطعام وبسبب الخلاف على الزعامة بين الفئران أيضا.

أما الحيتان فى القطب الجنوبى فلها قصة أخرى.. فقد تزاحمت الدول كلها على صيد الحيتان. واستخدمت البنادق ذات السهام، واستخدمت المصانع العائمة أيضا. فماذا كانت النتيجة؟ إن الدول لم تتفق على حصة كل منها من الحيتان. ولم تسفر الاتفاقية الدولية سنة ١٩٤٥ عن أى اتفاق. فانقرض الحوت الأحدب سنة ١٩١٣.. وانقرض الحوت ذو الزعانف. وهذا الحوت أيضا أخذ فى الانقراض.. وهذا الانقراض سببه أن الدول هى التى تزاحمت فكان من ضحيتها أن مات هذا العدد الهائل من الحيتان. ولو تركت الحيتان وحدها لتتكاثر لقتلت نفسها أيضا لانها تتحرك فى مجال ضيق وفى رقعة مخنوقة من البحر.

ومعنى هذا كله : أنه حيث يكون هناك زحام يكون هناك قتـال حتـى الموت. ولعل المفكر الانجليزى مالتوس هو أول من تنبه إلى خطورة الزحام أو تزايد السكان.. وأول من قال أن الطبيعة تقوم باختصار هـذا العـدد الهائل من الكائنات البشرية وإلا أكل الانسان أخاه الانسان، ومن المـؤكد أنه يفعل ذلك.

لعل مالتوس هذا هو الذى نبه العالم دارون إلى أن الحياة تختار أصلح الأحياء للبقاء. فهى تختار الأقوى. وتختار الأكثر مـرونة والأقـدر علـى مطاوعة الظروف. أى الذى يرفرف مع الهواء ويسيل مـع المـاء. ولـذلك انقرضت الحيوانات التى لاتنحنى لعواصف البيئة.. وعـاشت الحيـوانات القادرة على التكيف.

ولا أحد يستطيع أن يتصور ما الذى كان يحدث لو أن سكان الأرض لم يموتوا بالمرض أو بالغرق.. أو بالشيخوخة.. فلو فرضنا أن سـكان الأرض كانوا يتزايدون ١٪ منذ ١٢ ألف سنة.. لكان حجم اللحوم البشرية لا يقاس إلا بالسنوات الضوئية أى ملايين الملايين من الأميال طولا وعرضا.

والعالم الانجليزى مالتوس يرى أن هناك وسائل ممكنة لتحـديد هـذا التزايد فى عدد السكان : بالزواج المتأخر.. وبتحديد النسل.. وإلا كان الفقر وكانت الرذيلة.. والفقر يؤدى إلى زيادة نسبة الوفيات.. والرذيلة أيضا.

ومن الملاحظ أنه حتى عندما تكون الطيور فى الـطبيعة ـ أى خـارج أقفاصها فإنها تحرص على أن تكون بينها مسافات.. وهـذا واضـح إذا نظرت من نافذة القطار إلى خطوط التليفون.. وعليها طيور.. فأهم من هذه الطيور : هذه المسافة التى بينهما. فالطيور، والحيوانات كلها، تكره هـذا الزحام وتكره التكدس.. وكثيرا ما أدى حشد الحيوانات والطيور فى أقفاص

وحظائر فترات طويلة إلى خلل فى الغدد الصماء.. وهـذا الخلل يـؤثر فى نموها وعلى تناسلها فى الأجيال القادمة.

والانسان ـ ولا بد من الكلام عن الانسان ـ قد كتب تـاريخه العنيف وهو يهرب من الزحام.. أى يهرب من الشعور بالأزمة. أو الشعور بالضغط.. ولذلك يتجه إلى العنف فى أسرته أو خارج أسرتـه.. أو شـعبه أو ضـد الشعوب الأخرى.

وقد كتب الطبيب المشهور ياكوب كلزيوس سـنة ١٨١٢ أن الأطفـال المشوهين يتزايد عددهم فى زمن الحرب.. كما حدث فى الحرب الثلاثينية فى القرن السابع عشر فى ألمانيا، كما حدث فى فرنسا أبان الحرب السبعينية.. وأكبر عدد من الأطفال المشوهين عرفتهم ألمانيا فى ظل النـازية.. وكذلك أبان الحرب العالمية الثانية.. كأن الطبيعة أرادت أن تنتج أطفـالا علـى طراز الوحوش البشرية التى تحكم الشعوب.

ومن المعروف أن الانسان هو أكثر الحيوانات عناية بأطفاله.. وحضانة الطفل الانسانى طويلة.. وهناك آباء يموتون من أجل أطفالهم. وأمهـاتهم أيضا..

ولا تزال الرحمة بالمرأة والطفل من علامات الحضارة الانسانية. فعنـد الطوارئ يتفق الناس جميعا على شىء واحد هو: إنقاذ النساء والأطفـال أولا.

ولكن ليس هذا ما يحدث دائما..

ففى العصر الحديث علاقة قوية بين العائلات الكثيرة العدد وبين الفقر والمرض والجهل.

ففى انجلترا وحدها نجد أن ٢٥٪ من العائلات التى بها أكثر من ٥ أطفال ضعيفة البنية غير قادرة على العلاج والتعليم. وغير قادرة على أن تذوق اللحم مرة كل شهر.. أو مرة كل عام طبقا لآخر إحصائيات سنة ١٩٦٦.

ولذلك فحادثة إهمال الطفل حتى يموت جوعا، طبيعية ومنطقية.. وقد حدثت كثيرا - ولكن هذه أشهر حادثة سجلتها الصحف والمجلات العلمية فى ذلك الوقت.

ففى سنة ١٩٦٢ اكتشف ثلاثة من الأطباء الأمريكان أن هناك نسبة عالية من الأطفال الجرحى فى المستشفيات.وعند سؤال الأطفال عرفوا بأن الذى اعتدى عليهم بالضرب. الأب أو الأم أو الاثنان معا. بعض هؤلاء الأطفال مات وبعضهم خرج من المستشفى بعاهات دائمة. وبعضهم أصيب بانهيارات عصبية.. ولأسباب متعددة من بينها: الفقر.. أو أن الحمل لم يكن مقصودا.. أو العجز عن العناية به.. أو عدد أفراد الأسرة كبير..

وفى بريطانيا حوادث مماثلة لضرب الآباء لأولادهم.. وقتل الآباء لأبنائهم أيضا. وفى أمريكا ارتفعت نسبة الأمهات اللاتى يقتلن أطفالهن ثم يقتلن أنفسهن بعد ذلك.

وفى سنة ١٩٥٥ ارتفعت نسبة قتل الأطفال..

وقال العلماء فى تفسير ذلك: إن قتل الأطفال هو مظهر من مظاهر العنف العام فى المجتمع الأمريكى.. ولكن هذا التفسير ليس مقنعا. فإن العنف أيضا فى حاجة إلى تفسير: أما السبب فليس هو نقص الطعام. فالمجتمع الأمريكى هو مجتمع الرخاء.. وإنما هو الزحام الهائل بين السكان فى المدن والمصانع والمواصلات.. ثم الزحام فى البيوت الضيقة.

والحرب أيضا صورة من صور العنف وأكثرها وحشية. وإذا كانت الأم تقتل طفلها، فإن الشعوب أيضا تقتل الملايين من أطفالها ولنفس السبب ومن المؤكد أن الحروب القديمة لم تعد تخيفنا لأن مشهد السهام والنبال ليس كالمدافع والطائرات. فإننى أدعوك إلى زيارة متحف مدينة زيورخ: وهناك ستجد جنودا قد ألصقت أيديهم إلى الحائط بالنبال، وثبتت أقدامهم إلى الأرض بالرماح. لقد كانت الحروب القديمة فى غاية الوحشية.. وفى الحرب العالمية الثانية لجأ المحاربون إلى استخدام السلاح الأبيض أيضا.

والتاريخ الأمريكى يحتفظ لنا بقصة عجيبة.. فعلى أثر المعارك الدامية بين الأمريكان والهنود كان المألوف أن نجد الناس مشوهين.. مقطوعى الأيدى والأذرع والسيقان والآذان.. وقد روت إحدى السيدات أنها رأت شابا يموت فى فراشه.. وكان جسمه فاتنا.. فلم تكن به إصابة واحدة.. وظلت هذه السيدة وسيدات أخريات يتغزلن فى جثمان الفتى الجميل.

ويوم ١٩ يناير ١٩٦١ تلقت إحدى الصحف البريطانية هذه البرقية من مندوبها فى فيتنام:

لقد رأيت شعبا يطفو على سطح المياه.. ألوف من الأطفال ضحايا القنابل الأمريكية.

(ولكن لماذا كل هذا العنف، سوف يجىء الجواب بعد لحظات فانتظرنى).

ولم يكن المدنيون، عادة ، من ضحايا الحروب الكبرى.. وإنما العسكريون فقط.. ولكن حدث تغير فى ذلك:

٥ ٪ من ضحايا الحرب العالمية الأولى مدنيون..

٥٠٪ من ضحايا الحرب العالمية الثانية مدنيون.

٨٤٪ من ضحايا كوريا من المدنيين.. وأكثر المدنيين: نساء وأطفال..

بل إن الروس فى الحرب العالمية الثانية كانوا يضعون النساء فى الصفوف الأمامية.. أما الألمان فكانوا يضعون الشبان والأطفال.

والتاريخ يقول لنا أن حروب القرنين ١٨ و١٩ كانت أكثر اعتدالا من حروب ١٧ و٢٠.. ففى هذين القرنين عرفت البشرية أقصى درجات الوحشية الكامنة فى الانسان.

ولكن لماذا العنف فى القرن السابع عشر؟

والجواب هو: بسبب أزمة السكان فى أوروبا. فقد كانت هناك أزمة سكانية عنيفة فى أوروبا فى ذلك الوقت، كما توجد أزمة معاصرة فى أوروبا أيضا.

ولم تكن هذه الأزمة موجودة فى القرن الثامن عشر.. فقد هاجر الأوروبيون إلى أمريكا ابتداء من ذلك الوقت حتى بلغ عدد المهاجرين عند بداية الحرب العالمية الأولى أربعين مليونا.

وفى القرنين ١٨ و١٩ خف الضغط السكانى على أوروبا عندما انتقل الأوربيون إلى الحياة فى المستعمرات.. ويحدث نفس الشىء فى جبلاية القرود عندما يتزايد عدد سكان الجبلاية فيصبح نقل بعضهم إلى مكان آخر أمرا ضروريا. بل إن هذا ما يحدث فى الغابة إذ تنقسم القبيلة الكبيرة إلى اثنين أو ثلاث.. وكل واحدة تختار لها مكانا للطعام ومكانا للنوم.. ويخف التوتر مؤقتا..

وفى القرن الثامن عشر اخترع المحراث الحديدى. فتمكن من حرث المراعى والغابات وزرعها بالقمح لاطعام الأفواه الجائعة فى أوروبا. وبذلك حلت أوروبا مشاكل الزحام السكانى فى القرن التاسع عشر بتصدير البشر إلى المستعمرات واستيراد القمح والمواد الطبيعية من الممتلكات الافريقية والأسيوية.. ولم يكن هذا ممكنا فى القرن السابع عشر ولا هو ممكن أيضا فى القرن العشرين. فأمريكا قد أوقفت الهجرة أو ضيقتها. ثم أن دول أوروبا الوسطى ليس لديها مستعمرات. فنحن نشهد نهاية الاستعمار. وقد بدأت الأزمة السكانية فى ألمانيا أولا وفى إيطاليا بعد ذلك. فنحن فى عصر يشبه القرن السابع عشر. وإذا الأزمة اشتدت واحتدت، كانت الحروب هى الحل الوحيد.

والحرب نفسها ليست كافية للحد من أزمة السكان.. ولابد أن تكون هناك حلول أخرى.. وكذلك العنف بين الحيوانات ليس هو العلاج الوحيد، وإنما العلاج هو القضاء على التوتر الذى لا ينفرج إلا بالحرب... والتوتر سببه هذا العدد الهائل من الزحام السكانى فى البيت وفى المدن وفى المصانع وفى وسائل المواصلات.

ونحن نلاحظ أيضا أن عصور الحروب هى عصور التناقض فى عدد السكان.. لا بسبب الحروب ولكن بسبب المجاعات والأوبئة التى تنتشر مع اشتعال الحروب. ففى زمن الحرب يضطرب الانتاج والتجارة والصحة العامة وتتأزم المواصلات.

وهناك أسلوب إجرامى للقضاء على أزمات الانسانية كلها: باستخدام الأسلحة النووية التى تقضى على الانسان..

وما دام هناك زحام: كانت هناك طبقات. وإذا ظهرت الطبقات كان الموت للضعيف. وكانت الحياة للزعيم وحاشيته. وهذا واضح فى عالم القرود وعند الفئران فالفئران القوية هى التى تجدها قد امتلأت لحما وشحما. ولمعت بشرتها. وهى التى تأكل على مهل وتمضغ على مهل. ولا تضطرب أثناء النوم. ولا يدفعها الخوف إلى الانحراف الجنسى.

وهذه الطبقة موجودة بوضوح فى الجبلاية.. وقد حدث أن أخفى أحد العلماء طعاما تحت كومة من التراب فى جبلاية القرود.. فجاء قرد صغير وظل يرفع التراب حتى وجد الطعام. ثم أدار ظهره. وجاء الزعيم وقلب فى الطعام واختار مايعجبه ومضى.. ومن بعده جاءت بقية القرود.. فهذا الاستغلال موجود بوضوح فى جبلاية القرود وفى أقفاص الفئران وفى حظائر الغزلان..

وفى الفوارق بين الطبقات قديمة جدا عند الانسان.. والمقابر الفرعونية أكبر دليل على ذلك.. وهناك حرص الانسان على أن تكون هناك فوارق طبقية وذلك باستخدام أنواع مختلفة من الملابس والدروع والشعر المستعار والسيوف وحتى طريقة الكلام.

وفى تاريخ الحضارة الانسانية تستطيع أن نلمح سبب هذه السيول الجارفة من الجنود تعبر الجبال والبحار.. فالحضارة الأوروبية بدأت ببلاد الاغريق، حيث الضغط السكانى على أشده ففى الألف الأول قبل الميلاد كانت هناك هجرة واسعة إلى المستعمرات الاغريقية على البحر الأبيض حتى البحر الأسود.. وتخصصت أثينا فى النشاط الصناعى والتجارى. واستوردت طعامها ومواردها الأولية من المستعمرات ومن جنوب روسيا. وكانت فى أثينا أيضا مناجم للفضة..

وظلت الحضارة اليونانية تنتعش حتى بلغت قمتها فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

وفى مواجهة الهجرة الاغريقية ظهرت هجرة أخرى فى لبنان.. هجرة الفينيقيين.. إلى كل المستعمرات الاغريقية.. وزاحموا الاغريق فى التجارة والملاحة.

وعرفت اليونان أزمة سكانية هائلة. ولكن جاءها الفرج عندما عبر الاسكندر الأكبر إلى الشرق الأدنى وراح يقيم المدن فى كل مكان.. ولكن هذا الاتساع الهائل لم ينقذ الحضارة اليونانية التى كانت قد ضعفت فى اليونان نفسها.

وبعد الحضارة الاغريقية جاءت الأزمة السكانية فى إيطاليا.. ولكن إيطاليا أقامت الامبراطورية التى تعتمد فى طعامها على الدول التى ابتلعتها.. ولكن حدث خلل فى إدارة الامبراطورية.. أى ميزان مدفوعاتها.. ومع الحروب والجوع انتشرت الأوبئة التى استمرت ستين عاما فقتلت نصف السكان وأسقطت الامبراطورية الرومانية.

ومن الطبيعى أن تكون الاختراعات العلمية التى اهتدى إليها الانسان قد ظهرت فى العصور التى جاءت بعد الأزمات. ولكن فى ظل الأزمات من الصعب على الانسان أن يبدع. لأن اضطرابه وقلقه وخوفه يشغله عن التفكير المركز وإذا لم يكن هناك تركيز فى الفكر لم يكن هناك شىء جديد ففى القرن الثانى عشر فى أوروبا أقيمت الكاتدرائيات القوطية الطراز.. وعصر النهضة الأوروبية بلغ قمته فى القرن الخامس عشر.. أما الابداع العلمى والكشوف الكبرى فقد بدأت تظهر فيما بين القرنين السابع عشر والعشرين..

وفى هذا العصر الحديث تبدو لنا الصورة بشعة ومخيفة : زحـــام فى كل مكان. وفى دول الرفاهية والرخاء : كالولايات المتحدة الأمريكية.

وهناك قاعدة تحكم كل تصرفات الانسان كفرد أو كجماعة : عندما يكون هناك نمو سريع فى السكان يكون هناك احتقان.. أو تــكون هنـــاك جلــطة دموية..

وقديما جــدا كان يوليوس قيصر يطلب مــن العــربات ذات العجــلات الا تمشى فى قلب المــدن نهــارا، حتى لا تدوس النــاس.. أما الامبراطور ماركــوس أوريــليوس فقــد منــع العــربات ذات العجــلات من الســير فى كل المــدن.

وهذا الزحام البسيط الذى كانت تشكو منه الامبراطورية الرومانية قــد أصبح أزمة مخيفة بين الطائرات عبر المحيط الأطلنطى حيث توجد ثــلاثة مستويات للطيران حتى لا تصــطدم الــطائرات بعضــها ببعض. هــــذه المستويات الثلاثة ضاقت بالطائرات.. وضاقت الدول الكبرى بهذا الزحام.. وغدا تضيق بالرحلات إلى الكواكب الأخرى.. وهــذا الضــيق علــى كل المستويات، فى الشوارع وفى البحار والأنهار والهواء والكواكب سوف يؤدى إلى نتيجة واحدة عرفتها القرود والفئران : إلى الحرب.

ولا علاج إلا بتحديد عدد السكان.. إلا بتخفيف التوتر الذى هــو مــن نتائج الزحام، الذى هو من نتائج الزواج المبكر وعدم استخدام حبوب منع الحمل.. ولابد من العودة مرة أخرى إلى جبلاية القرود والفئــران لنجــد عندها علاجا لوحشية الانسان.

وأخيرا..

وقف عدد من الأطباء أمام أحد القضاة فى بريطانيا يوم ٨ أكتوبر ١٩٦٥.. وحاول القاضى بكل ما استطاع من وقار أن يمنع هيئة المحلفين من الاعتداء على الأطباء المتهمين.. قال القاضى: وكيف حدث ذلك وقال أحد الأطباء: لست وحدى. قال القاضى: أعرف أنكم سبعة.. ولكن كيف حدث ذلك فى وقت واحد وفى ثلاثة مستشفيات؟؟.

ولم يجب الطبيب.. ولا أجاب الستة الآخرون. فقد أمسك هؤلاء الأطباء «مناشيرهم» وقطعوا سيقان عشرة أطفال على سبيل الخطأ.. وأمروا عشرين طفلا بمغادرة الفراش على سبيل الخطأ.. فماذا كل هذا؟؟ لأن هناك عددا كبيرا من المرضى فى المستشفيات وعددا قليلا من الأطباء والممرضات.. ولأن الرعاية الطبية غير ممكنة.. تماما كرعاية الأب والأم لأبنائهما الذين لا يعرفان لهم عددا.. وفى هذا الزحام تدوس الأقدام أقداما أخرى، وتقطع الأيدى سيقانا ورقابا..

ولم نكن نعرف ذلك حتى تعلمناه من صراحة القرود.

من قسوة الآباء
يولد أطفال مجرمون !
(٣)

عندما أصدرت الصين قانون الطلاق سنة ١٩٥٠ فوجئت المحاكم بقصة غريبة : دخلت فتاة عمرها ٢٨ سنة إحدى المحاكم ومعها طفل عمره ثمانى سنوات. وركعت على ركبتيها تطلب الطلاق من هذا الطفل.

فقد كان من عادة العائلات الصينية أن تخطب الفتاة وهى طفلة لطفل أخر.. وليس من الضرورى أن يكون هذا الطفل قد ولد. وإنما تجرى العادة أن تعيش الفتاة مخطوبة للطفل الذى سوف تلده أم من الأمهات.. وهذه الفتاة ظلت عشرين عاما تنتظر حتى ولد الطفل فأصبحت مخطوبة له وانتقل الطفل الرضيع إلى حضن زوجته. وظلت الزوجة تربى زوجها حتى أصبح فى الثامنة من عمره عندما صدر القانون الذى خلصها منه.

وقيل فى الحكمة عن هذه العادة انها إحدى الحيل الاجتماعية لتحديد النسل فى الصين.

ولم تنفع هذه الحيلة فقد بلغ عدد سكان الصين ما يقرب من الألف مليون.

والعالم كله يتزايد بصورة مخيفة. والذين زاروا المعرض الدولى فى بروكسل سنة ١٩٥٨ قد توقفوا عند ساعة فى مدخل الجناح البريطانى.. هذه الساعة تتحرك مرة كل ثانية.. وليس هذا غريبا.. وإنما الغريب أن هذه الحركة تدل على أن طفلين قد ولدا فى دول الكومنولث البريطانى.

وقد عرفنا قبل ذلك ــ فيما سبق ــ أن زحام القرود يؤدى إلى التوتر والتوتر يؤدى إلى العنف.. والعنف يؤدى إلى الاستبداد من ناحية.. والخوف من ناحية أخرى والخوف يؤدى إلى الانحراف والشذوذ.. ويؤدى إلى القتال حتى الموت.

وربما كانت أوضح الصور لهذا العنف ما نراه فى عالم الفئران.. فقد استطاعت الفئران البنية اللون أن تقضى نهائيا على الفئران السوداء فى أوروبا فى مدى ثلاثة قرون.. ومن التجارب التى أجريت على إحدى مستعمرات الفئران أن أتى طبيب بستة من الذكور وواحد من الاناث ووضعها جميعا فى مكان مقفل.. فسارعت الأنثى واحتمت فى جحر.. واقترب أحد الذكور منها ومازال يحاول حتى تسلل إليها فى داخل الجحر.. وأمام قوته استسلمت. ثم استدار الاثنان يهاجمان الفئران جميعا.. ومن هذين الفأرين تولد الألوف فى سنوات.. وعادت المعارك الدامية بين الفئران.

وفى مملكة النمل أيضا نلاحظ أن الملكة ــ تماما كزعيم القرود ــ أصح جسما وأكبر حجما بل أنها فى بعض الأحيان تستطيع وحدها أن تصنع فى عشر سنوات ستين مليون بيضة.. وهذا الزحام فى مملكة النمل يدفع إلى معارك دامية.. وهذه المعارك مصدرها التزاحم على المكان وعلى الطعام.. وفى مملكة النمل نظام دقيق فلا يسمح النمل الشغال لنملة أخرى أن تتسلل إلى المستعمرة المخصصة لها.. ولذلك لابد من شم النملة عند الدخول أو عند الخروج.. فإذا أحس النمل أن هناك نملة أجنبية قتلوها فورا.

وقد حدث فى جزيرة برمودة أن نقلت السفن الأوروبية أنواعا غريبة من النمل إلى الجزيرة. وتصادف أن هذا النمل الأوربى كان متطورا من ناحية «تنظيمه الاجتماعى» واستطاع هذا النمل الغريب أن يبيد مستعمرات النمل «الوطنية». فقد أقام هذا النمل الأجنبى مناطق المراقبة والحراسة وحاصر النمل «الوطنى» وقضى عليه فى سنوات.

وأنها مشكلة «المجال الحيوى».. أو مكان الحياة.. أو المكان الذى تصبح فيه الحياة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الأفراد.

وحدث أن اكتشف أحد العلماء فى الدراسات الانسانية فى سنة ١٩٥٣ أن عددا كبيرا من السكان الأصليين لأستراليا كانوا يقتلون أطفالهم بسبب العطش والجوع.. ولم تكن المشكلة فى استراليا هى مشكلة المكان.. فقد كان سكان استراليا الأصليون عندما اكتشفها الرجل الأبيض نصف مليون نسمة.. موزعة على المناطق الساحلية المزروعة أى بمعدل أربعين ميلا مربعا للفرد.. وإنما هى مشكلة المساحة التى يدور فيها هؤلاء السكان لكى يحصلوا على طعامهم من البحر.. هذه المساحة كانت ضيقة.. ضاقت بهم الأرض.. فضاق بعضهم ببعض.

وحدث هذا أيضا فى المناطق التى يتزاحم أهلها حول مياه الأنهار.. فلا تزال المياه العذبة مشكلة لعدد كبير من دول العالم بما فيها الولايات المتحدة و٤٣ دولة أخرى.. والحضارات القديمة كلها قامت بين الوديان: أى على الزرع وعلى الماء الذى يروى الزرع والحيوان والانسان.. ولاتزال مشكلة المياه الحلوة هى إحدى مشاكل الشرق الأوسط أيضا.

وإذا نقصت المياه جف الزرع ومات الحيوان والانسان.. وإذا فاضت غرق الزرع وجاع الانسان والحيوان.. وربما كانت أول كارثة

عرفها الانســان بسبب فيضــان الميــاه ما جــاء فى كتــاب «جلجامش» عن العــراق القديمة.

ولاتزال المعارك الدائرة بين الهند وباكستان بشأن منطقة كشمير ســببها المياه ومساقط المياه.

ولابد أن يكون هذا هو السبب الذى دفع الصين إلى أن تشترك فى حــرب عنيفة مع كوريا سنة ١٩٥٥.. لقد كانت تخشى على مصانعها فى منشوريا التى تشتغل بكهرباء نهر يالو عبر الأراضى الكورية.

وهناك مشكلة من نوع آخر فى البحث عن الطعام.

فقد عرفت الصين غزوات الرعاة وملوك الرعاة وهؤلاء الرعاة كانوا يتنقلون بمواشيهم عشرات الألوف من الأميال دون أن يوقفهم أحــد. وكانــت تــدور المذابح الدموية.. ويكفى أن نشير إلى الصعود والهبــوط فى عــدد الســكان بالصين لنعرف ما الذى فعله الرعاة فى الفلاحين من أبناء الصــين. فى ســنة ٧٥٤ قبل الميلاد كان سكان الصين ٥٢ مليونا وفى سنة ٨٣٩ بعد الميلاد كان سكانها ٣٠ مليونا.. وفى سنة ١١٢٥ بعد الميلاد كانت مائة مليون.. وفى ســنة ١٢٩٠ بعد الميلاد كان سكانها ٥٩ مليونا وفى سنة ١٦٦١ بعد الميلاد كانــت ١٠٥ ملايين.. ولابد أن يكون الامبراطور جنكيز خان هو الذى ساق المــلايين فى الشرق والغرب إلى ما تحت التراب.. (وحتى لا ننسى فإن سكان العالم الآن ٣٥٠٠ مليون نسمة..).

ويمكن أن نشير إلى هذه التوترات العنيفــة التــى ألمــت بـــالانسان والحيوان بأنها على التحديد أزمة مساكن.

وباريس الآن هى أكثر عواصم العالم كثافة بالسكان.. ففيها ثمانون ألفا يسكنون فى ميل واحد مربع. ولذلك ليس من العجب أن يكشف العلماء أن معظم أطفال باريس الذين يدخلون المستشفى ليسوا مرضى.. وإنما هم ضحايا إهمال الوالدين.. أو بعبارة أخرى: أنهم يتركون أطفالهم فى المستشفيات حلا لأزمة السكن.

ومن المعروف تاريخيا أن مدينة «أور» فى العراق القديمة كانت أكثر عواصم العالم كثافة بالسكان.. وكان ذلك قبل الميلاد بألفى سنة..

ومدينة كلكتا بالهند الآن نموذج مخيف لشيء يجب ألا يكون فى الدنيا: ١٧٪ من سكانها بلا مأوى.. و ١٥٪ ينامون فى الدكاكين.. و ٣٠٪ ينامون كل ثلاث عائلات فى غرفة واحدة..

ومن الطبيعى أن تبرز مع مشكلة السكن مشكلة الطعام أيضا.

ومدينة روما القديمة فتحت أبوابها لعشرات الألوف من الأسرى.. وأقام هؤلاء الأسرى فى بيوت خشبية. ومع هذا الزحام العنيف من الأجانب انتشرت أشكال العنف الاجتماعى والرياضى.. فقد كان يلتف أهل روما حول الساحات التى يصارع فيها الأسرى أسودا ونمورا.. أو يتقاتل فيها الأسرى حتى الموت.. وبلغت موجة العنف مداها فى سنة ٦٤ ميلادية عندما أحرق الامبراطور نيرون هذه المدينة.

وحدث أيضا عندما هاجر ٨٠٠ ألف ايرلندى سنة ١٨٤٠ إلى كندا وأمريكا أن أقاموا فى كهوف تحت الأرض. وكان من أثر هذا الزحف الأجنبى أن ارتكبت أبشع الجرائم التى عرفها التاريخ.

وما حدث فى أمريكا سنة ١٩٦٥ من جفاف ونقص مياه الشرب أدى بمطاعم نيويورك إلى الامتناع عن تقديم ماء الشرب إلا فى أقصى الظروف.. وفى سنة ١٩٦٦ نقص ماء الغسيل.

اننا أمام مشكلة غريبة: وهى أن الانسان يجب أن يكون بمفرده ويجب أن يكون مع غيره ويجب أن يكون له مكان خاص، وأن يكون له مكان عام.. فهو يريد أن تكون له غرفة خاصة.. أو بيت خاص.. ولكن عندما يريد أن يلعب وأن يعمل فمع الآخرين.. عندما يذهب إلى الملاعب تتضاعف سعادته عندما يكون بين الألوف. وعندما يذهب إلى الشاطىء فهو يحشر نفسه فى زحام الأجسام العارية.

وهذا واضح عند القرود والنمل والفئران.. فهى حريصة على أن يكون لها مكان خاص بها.. وفى نفس الوقت حريصة على أن تتجمع فى مواجهة العدو.. وأن تتجمع فى أوقات الاخصاب.. وأن ترعى أطفالها وأن تلاعبها.. فإذا تحول مكان الطعام إلى مكان للنوم تحولت إلى العنف وسفك الدماء..

وقد لاحظ الأطباء السويسريون أن كثيرا من نزلاء السجون تتحسن صحتهم إذا ما انفرد كل واحد بغرفة خاصة.. وهذا الانفراد يجعله هادئا وميالا إلى أن يحتمل الألم ويتذوق الحياة أيضا.. وذلك شوهدت الزهور والكتب والمجلات والنظافة فى الغرف التى ينزل بها سجين واحد.. واختفت فى الغرف التى يكون بها أكثر من سجين.. وان كان هذا السجين حريصا أيضا على أن يلتقى بزملائه أثناء الطعام أو الرياضة أو الصلاة.

وهناك حلقة مفرغة عنيفة.

فالتوتر يولد العنف.. والعنف يولد التوتر الذى يؤدى إلى العنف أيضا.

فقد لاحظ العلماء اليابانيون أنه بعد سقوط قنبلة هيروشيما بستة أسابيع ازدادت أعمال العنف فى المدينة.. وارتفعت نسبة حوادث السرقة والنهب والقتل.

وحدث كذلك فى فرنسا أيام حرب المائة سنة.. وفى ألمانيا أيام حرب الثلاثين سنة.

ولم يكن الموت الأسود فى أوروبا إلا مناخا مناسبا مواتيا لمذابح القرن الرابع عشر.

وحريق لندن سنة ١٩٦٦ كان مقدمة للأعمال العنيفة ضد الكاثوليك. وسببا وجيها لاحراق المشتغلات بالسحر.

وفى طوكيو سنة ١٩٢٣ وقع الزلزال الشهير.. وأدى هذا الزلزال إلى أن اتجه المجتمع اليابانى كله إلى القضاء على المهاجرين الكوريين.. ولم يكن الزلزال هو السبب الوحيد.. فقد كانت هناك أزمة حادة فى المساكن.. هذه الأزمة هى التى دفعت باليابان إلى أن تشن حربا على كوريا بعد ذلك.

ومن المعروف لنا ـ أى بعد هذه الفصول التى تعرض وجهة نظر جديدة فى العنف ـ أن النساء والأطفال هم الضحايا الأول لكل عمل جماعى عنيف.. فى عالم الحيوان أو الحشرات أو الانسان.

وقد نبه كاتب فرنسى اسمه بوليتو إلى هذا المعنى فى كتاب أصدره بعنوان «الجريمة تفيد».

أما موضوع هذا الكتاب فهو أن المؤلف اختار عددا من مشاهير السفاحين.. ودرس حياتهم.. وانتهى إلى النتيجة التى تتمشى تماما مع هذه النظرية فى تفسير العنف فى التاريخ.. وأول سفاح اختاره هو وليام

بيرك الذى أعدم سنة ١٨٢٩ لأنه قتل مجموعة من المواطنين وباع جثثهم لطلبة الطب.. واختار السفاح تروبمان الذى أعدم فى باريس سنة ١٨٧٠ والذى قتل أسرة من ثمانية أشخاص الواحد أمام الآخر. واختار جورج سميث الذى أعدم سنة ١٩١٥ لأنه أغرق ست عرائس فى الحمام بعد الزفاف مباشرة.. واختار السفاحة دذيرى لاندرى والتى أعدمت فى باريس سنة ١٩١٦ لأنها قتلت عددا كبيرا من الأطفال.. واختار السفاح هارتمان الذى أعدم سنة ١٩٢٤ لأنه قتل عشرين شابا وباع أجسامهم لحما للجزارين.

وانتهى المؤلف إلى أنه حيث يكون الطفل مهملا يتحول إلى الجريمة.. وحيث يكون الأب قاسيا يتحول الطفل إلى القسوة على الآخرين.. كأنه يريد أن ينتقم من أبيه فى كل إنسان.. وحيث يكون الأب فاشلا يكون الابن مجرما أو ميالا للاجرام.

وقد لوحظ هذا أيضا فى عالم القرود بوضوح أكثر. فإن القرود والحيوانات الأخرى لم تتعلم أن تكذب وأن تنافق، وأن تخادع كما يفعل الانسان.. فقد أدرك العلماء أنه عندما تكون الأم عصبية المزاج أو مريضة فان صغارها يصبحون مرضى.. أو يتحولون إلى الشراسة.. والشراسة القردية فى جبلاية القرود عمرها قصير.. أى تجعل عمر القرد قصيرا.

ومن التجارب التى قام بها أحد علماء اليابان أن أتى بقردة أنثى وشغلها بعدد من الذكور.. ولما ولدت الانثى ترك طفلها معها أيضا.. وهذا جو غير طبيعى متوتر عنيف ولم يكن من السهل على هذه الأم أن تكون أما. ولا أن تكون أنثى لذكر واحد.. أو عشيقة لقرد واحد.. فقد كانت هذه الذكور على درجة متقاربة من القوة.. كما أنه من الصعب أن تكون هناك

درجات زعامية كما يحدث في الجبلاية.. وكان من نتيجة ذلك التوتر لأعصاب الجميع.. أما القرد الصغير فقد حاول أكثر من مرة أن يخنق أمه.. ولكنه لم يستطع فقتله أحد القرود الذكور.

والحادثة المشهورة في أمريكا يوم ١٦ يوليو ١٩٦٦ عندما قتل شاب ثمانى ممرضات في وقت واحد.. لقد وقع الحادث في مدينة متوترة عنيفة هى مدينة شيكاغو.. وفي اليوم التالى قامت مظاهرة.. قتل فيها ثلاثة من الشبان وجرح خمسون.

ومن الممكن أن يؤدى التوتر في داخل الجبلاية إلى أن يكون هناك عدد من القردة المارقين.. أن تكون هناك عصابة من القرود المارقة.. أو تكون هناك عصابة من القرود لا تنتسب إلى قبيلة.. وهذه العصابة تشيع الرعب.. ولأنها عصابة فليس لها زعيم بالمعنى الحقيقى، وهذا هو أحد العيوب الأساسية في تكوين أية قبيلة للقرود.

وقد حدث مثل ذلك في جزيرة صقلية.. فهذه الجزيرة تعاقب عليها الرومان والألمان والأسبان والفرنسيون والقراصنة.. وعرفت القلق مئات السنين.. وكان من الطبيعى أن يصبح التمرد العنيف أهم معالمها.. فتكونت عصابات المافيا.. التى ترتكب الجرائم المنظمة في أوروبا وفي أمريكا.. وقد تزعم هذه العصابة الشاب آل كابونى.. ولم يكن آل كابونى هذا زعيما لها.. وإنما كان زعيما لها ظاهريا فقط لأنه ليس من صقلية وإنما هو من أبناء نابلى.. والعلامة الواضحة في وجهه ليست إلا من أثر شجار بينه وبين الحلاق. فقد طلب إليه أن يحلق شعر رأسه كما يفعل أعضاء عصابة المافيا فرفض الحلاق.. فكانت معركة.. وخرج من هذه المعركة بطلا صالحا لأن يكون عضوا في العصابة.. وقد استعانت به القوات الأمريكية في السيطرة على جزيرة صقلية في الحرب الثانية.

إن أسباب العنف فى التاريخ ليست نقص الطعام دائما.. وإنما هى هذا الزحام حول الطعام والشراب واللـذة والسـيطرة والمسـكن.. وفى هـذا الصراع : كل الناس قرود.. أو كل القرود بشر.

مثلك تمامًا
ولكنك عريان!

جعلنا للشفاه قيمة جنسية !

(١)

إذا ذهبت إلى حديقة الحيوانات. وسمعت من يصرخ وراءك ويقول: يا حيوان فلا داعى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث.. فكل ما فى الحديقة حيوانات: التى فى الأقفاص.. والذين خارجها.

وإذا وقفت أمام قفص القرود ورأيت القردة تفلى ابنتها الصغيرة فلا تضحك.. فلنا أجداد يفعلون ذلك فى الريف. أما فى المدينة فالكوافير يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل إليه عقل الانسان.

وإذا أنت ألقيت ببعض السودانى وتزاحمت عليه القرود وضحك طفلك الصغير، فأظن أنه لا داعى لأن تضحك أنت.. لأنك قد فعلت شيئا من ذلك فى المكتب أو الدكان أو المصنع الذى تعمل فيه. فمكان العمل هو قفص أقسى من قفص القرود. وأنت محكوم فى داخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد ومخاوف.. وإذا أشار رئيسك فى العمل بالعلاوات أو الأرباح فانك تقفز مثل هذا القرد وأكثر.. وليست العلاوات إلا أنواعا من الفول السودانى الذى يلقى لنوع آخر من القرود..

وإذا رأيت القرد ـ أمام كل الناس ـ يركب ظهر الأنثى. فليس القـرد قليل الأدب، ولا نفسه انفتحت لمجرد رؤيتك. ولكنه فى حالة خوف. والخوف يثير الحيوان والانسان أيضا. والناس فى جو الخـوف يتعـانقون. إنهـم يواجهون الموت بالقبلات، ويواجهون الموت بغريزة حب البقاء.. والبقاء عن طريق الجنس..

وإذا كان القرد ليس له مستقبل فى أن يكون إنسانا. فمن المـؤكد أن الانسان له ماضى. وهذا الماضى ما تزال حروفه الغامضة يمكن قـراءتها فى جبلاية القرود. فإذا لم يكن هذا القرد جدنا البعيد.. فهو قريب من جـدنا البعيد. وإذا كان الانسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف مـن السنين.. فان العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تـزال مصونة مكنونة فى أقفاص القرود..

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذى كتبـه العـالم دزموند موريس وعنوانه «القرد العريان» من أروع الكتب التـى صـدرت أخيرا فى العالم بلغات متعددة.

وإذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة والدراسات الانسانية والحيوان، فإنهم ـ عادة ـ لا يتفقون على رأى واحد.. ولـكنهم أمام هذا الكتاب اتفقوا على أنه خلاصة دراسات وتأملات عميقة ومثيـرة أيضا. وأن به نظريات جريئة وجديدة ولابد أن تدير آلافا من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد ذلك فى إمكانها أن تتساقط من التعب أو اليأس.

هناك ١٩٣ نوعا من القرود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر: وهذا القرد العريان له صفات غريبة أخرى من بينها مثـلا أنـه

يقضى نصف عمره بحثا عن معنى سلوكه وتصرفاته.. ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى. وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلا. والحقيقة أنه عاقل حقيقة، ولكنه أكثر الحيوانات شراهة من الناحية الجنسية.. فالحيوانات كلها معتدلة، وكل هذه الحيوانات تخجل من الجنس، ولذلك فالذكر عند العناق لا يواجه أنثاه..

والحيوانات لها مواسم. والانسان ليست له مواسم للقبلات والحمل والرضاعة والولادة.. فكل وقت عنده هو الوقت المناسب لأن يكون «حيوانا» ومن الضرورى أن نعيد النظر فى الحيوانات الأخرى، وخصوصا الحيوانات الراقية مثل القرود لنعرف كيف عاش هذا الانسان ومن أين جاءت عاداته كلها، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى نراها اليوم.. ولا نفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها.

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر أنه فى إحدى حدائق الحيوانات يوجد «سنجاب» وهو حيوان صغير أليف يظهر فى الحدائق ويداعب الأطفال. هذا الحيوان وضعوه فى قفص على انفراد.. وكتبوا على القفص.. هذا السنجاب أفريقى نادر. ولا نعرف اسمه العلمى.. فنحن لم نر قبل الآن سنجابا له قدم سوداء.. وأنف أحمر..

وأمام هذا السنجاب النادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى. لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـ ٣٦٦ نوعا من السناجيب التى عاشت فى العالم كله. ولابد أن هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماما وأصبحت لها عادات خاصة، ولها نداءات جنسية خاصة. ولابد أنها مرت بظروف غريبة. وأنها توافقت مع

هذه الظروف. وأصبحت لها ألوان وأشكال وعادات مختلفة عن بقية الأنواع الأخرى.

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الانسان ـ هذا القرد العريان ـ نتساءل كيف عاش. ولماذا بقى. وكيف تطور.. وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات إلى مرحلة أكل فيها أوراق الشجر. ثم الثمار.. ثم انتقل من الغابات إلى الأرض الواسعة.. ثم كيف تحول من التقاط الثمار إلى صيد الوحوش.. ثم إلى زراعة الأرض.. ثم كيف حاول الهرب. واستخدم رجليه.. واستخدم يديه فى صناعة أدوات حياته..

وان كان الانسان مثل بقية الحيوانات الثديية التى يبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناسبة فى الحر والبرد.. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية ـ أى التى لها أثداء ترضع بها أطفالها ـ تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف فى حفظ درجة الحرارة فى الشتاء. والوقاية من حرارة الشمس فى الصيف.. والوطواط وهو طائر ثديى عريان فى معظم أماكن جسمه.. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه.. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدرافيل.. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الانسان..

والانسان فى تاريخه الطويل فقد القدرة على الابصار. وفقد قوة السمع والشم. أما الحيوانات الأخرى وخصوصا أكلة اللحوم مثل الانسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع والشم. ففى سنة ١٩٥٣ أجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على الشم، فأثبت العلماء أن قدرتها أقوى من الانسان مليون ونصف مليون مرة.

والانسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل أيضـا. وبعض الحيـوانات لا تقتل لمجرد القتل. وانما لأسباب وجيهة : الجوع.. أو جوع صغارها..

وحتى الحيوانات التى استؤنست ما تـزال عنـدها غـريزة الصـيد.. والانسان أيضا. فالكلب الأليف يجب أن يخرج به سـيده إلـى الشـارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة.. وهى لعبة لأنها ليست خطرة. وكذلك القط الذى تلقى إليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير.

وبعض الكلاب تخفى طعامها.

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة فى الصيد.. والأسود تبعث واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب.. وإذا ما هربت وجدت أمامها عددا آخر من الأسود. والذئاب تحاصر الفريسة.. أما الكلاب المتوحشة فـإنها تمشى فى طابور طويل.. وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتـى تنـزف الفريسة وتموت.

وهناك خلاف هام بين هذا الانسان وبين القرود الأخرى. هذا الخلاف هو أن طفل الانسان يستمتع بفترة طفولة طويلة. هذه الفترة يعيش فيها مع أمه. ويتعلم منها الكثير. وفى نفس الوقت يكبر عقله وينضج. ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره. ويبلغ العقل نضجه التام فى الثالثة والعشرين.. أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة..

والانسان لم يستمتع بهذه الطفولة إلا بعد عادات أخرى اكتسبها.. وهى أن الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال. لأن المـرأة فى حـالة الحمـل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة فى البيت مع أطفـالها.

والمرأة فى البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك اتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى، أن تبقى هذه الأنثى له وحده. وأن تبقى وفية مخلصة له إذا ذهب للصيد فى الغابات. هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى إلا بعد أن كان هناك حب بينهما. وهذا الحب أدى إلى الارتباط والارتباط أدى إلى قيام وحدة من رجل وامرأة وانشاء أسرة.. أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والأطفال.. وإذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى أن تتعاون فالانسان أيضا حيوان متعاون ولكنه حيوان متنافس أيضا. وكثيرا ما أدى به التنافس إلى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر.. وإذا كانت رغبة الانسان فى التعاون هى التى جعلته يخلق الأسرة، فان رغبته فى التنافس هى التى جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى وأكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة فى الدفاع عن النفس وفى القتال.. وجعلته يشعل النار فى عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الأجيال القادمة.. تاريخ الانسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الانسان لأخيه الانسان..

أما لماذا سمى الانسان بالقرد العريان فهناك آراء كثيرة هناك رأى يقول إن طفل القرد عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما.. ثم ينبت له الشعر كلما كبر. والانسان لأن طفولته طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر.. ثم أصبحت هذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين..

ومن المعروف أن الجنين فى الشهرين السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك فى الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان.. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن.. وأن كانت هناك حالات نادرة معروفة فى الكتب العلمية لأطفال ظل شعرهم طويلا يغطى معظم الجسم.. كالقرود تماما..

ويقال أيضا ان الحيوانات التى يتغطى جسمها بـالشعر. تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة. وكان الانسان يعيش فى الكهوف.. ويقال لأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه راح ينتـزع شـعره ويحلقـه.. ولأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه. علـى عـكس الحيـوانات الأخرى.وهناك نظرية تقول إن الانسان عندما اخترع النار لم يعد فى حاجة إلى أغطية من الشعر.. أو فروة من الشعر.. وأنه قادر على أن يجد الدفء فى ضوء الشمس نهارا. وأن يجد الدفء أمام النار ليلا.. وأن هذا الـدفء هو الذى أغناه عن حاجته للشعر الذى يغطى جسمه كله.

ويقال إن الانسان قد عاش مئات الألوف من السنين ينتقل بيـن البـر والبحر وإنه كان يعيش على أكل السمك. وعندما كان يصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله. ولا يبقى إلا رأسه على سطح الماء.. ولذلك ـ مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى ـ أصبح جسمه خاليا من الشـعر.. وكلهـا نظريات تجتهد فى تفسير خلو جسم الانسان من الشعر، أكثر من الحيوانات الأخرى..

وربما كان للشعر تفسير جنسى آخر. فمن الملاحظ أن الذكور من الحيوانات الثديية بها شعرأكثر من الاناث ولذلك أصبحت الأنثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل. وهى حريصة على أن تكون أنعم أيضا. بينما يحرص الرجل على أن يكون أكثر خشونة.. ولذلك يطلق شاربه ولحيته.. ويترك الشـعر فى صدره وتحت إبطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء..

وليس معنى ذلك أن الانسان يحب البشرة الناعمة، ولذلك زال الشعر من جسم المرأة. ولا معنى ذلك أن المرأة أحبت الشعر فى جسم الرجل فظهر الشعر.. ولكن معناه أن الانسان أحب الواقع.

نعود مرة أخرى إلى قفص القرود الذى نقف أمامه فى حديقة الحيوان.. ان القردة لم تذهب إلى الحلاق ولا إلى صانع أحذية وإلى مصمم أزياء.. ولم تضع الأحمر والأبيض والسوتيان.. والكورسيه والكعب العالى.. ولا الغمز بالعين..

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الانسان أن يكون شهوانيا.. وأن يكون مشتعلا جنسيا، وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود إليه.. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له أسرة وأولاد.. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب، الذى هو اسم مهذب للجنس.. فهو يدور حول نفسه هاربا قلقا خائفا فى قفص محكم معقد اسمه الغريزة الجنسية. واسمه تجارب التاريخ الذى طواه ملايين السنين قطعتها القرود على الأشجار وتحتها.. وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت ساقاها.. وقاومت فتحركت يداها.. واهتز عقلها أيضا.. وسكنت الكهوف.. واستقام ظهرها.. وكبر عقلها.

وأصبح الانسان لا يختلف كثيرا عن القرود وان كان هو يتوهم أنه مختلف عنها تماما.. ولكنه قرد يصنع الأقفاص لغيره.. ولنفسه.. ويجعل أقفاصه هو مكيفة الهواء إذا كانت على الأرض.. ومكيفة الهواء والضوء والضغط إذا كانت فى طريقها إلى القمر. والانسان قاتل من يومه..

كان يقتل بالحجارة والفأس والسيف. وما يزال يقتل. فقد أصبحت لهذه الأسلحة أسماء جديدة: الصاروخ والطائرة والدبابة. فهو - إذن - لم يتغير.

والحضارة لم تطور رغبته فى القتل. وإنما هذه الرغبة هى التى طورت الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر طريقها وأهدافها..

والانسان ـ هذا القرد العريان ـ كان صيادا فى الغابة، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان والتوت. وما يزال. ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان النهود وتوت الشفاه.

فالحضارة الانسانية لم تضع الفرامل على رغبات الانسان. وإنما رغبات الانسان هى التى أشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة الانسانية. فلا يزال الانسان أكثر الحيوانات الراقية شراهة جنسية : يجوع إليها، وينشدها ويجدها ويطاردها ويعود إليها. ويبدأ الانسان هذا الشوق الجنسى فى سن مبكرة. ثم يعرف اللعب الجنسى. والمداعبة. والمطاردة. والصيد. والانتباه الجنسى والهياج الجنسى.. والاشباع..

والانسان حيوانى شهوانى أكثر من الحيوانات الأخرى..

ولكن الانسان هو أول حيوان يحرص على أن تكون له أسرة. أى تكون له امرأة واحدة. يحرص عليها ومن الضرورى أن تحرص هى أيضا عليه. والانسان كحيوان صياد كان يخرج من الكهف إلى الصيد فى الغابة. ويبقى فترات طويلة. ويترك وراءه أنثاه وأولاده. وهى بذلك تكون عرضه لعدوان الذكور الآخرين. ولابد من حماية لها أثناء غيابه.

ولذلك عرف الانسان الحب. وعرف العطف على الانثى. وعرفت الأنثى حماية الذكر. وهذا الحب كان ضروريا للانسان. لأنه عقد غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى أن يحتفظ بهذه الانثى. ويصبح لهذه الانثى الحق فى أن تعيش فى كهف هذا الرجل ولهذا الرجل وألا تسلم نفسها لذكور آخرين..

ولكى يبقى هذا «العقد» محترما كان على الذكر أن يحترم عقود الآخرين.

وفى الوقت الذى بدأ فيه جسم الانسان يضعف بدأ عقله ينمو وينضج. ولذلك لم يعد هذا الانسان فى حاجة إلى عضلات الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب. وإنما عقله هداه إلى أساليب أخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة. وهداه أيضا لاستخدام أسلحة أخرى للقتال والدفاع عن النفس.. وهداه إلى وضع حدود اجتماعية لتحميه وتحمى ذريته. وفى أثناء فترة الصيد هذه استطاع الانسان أن يحرك أصابع يديه. وهو وحده القادر على ذلك من كل الحيوانات الأخرى. وهذه الأصابع هى التى مكنت الانسان من أن يستخدم الأدوات وأن يصنعها أيضا. وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى..

وتمكن الانسان ـ خلال مئات الألوف من السنين ـ أن يصلب عوده وأن يقف. وتعلم الانسان أن يكون له رفيقة واحدة. هذه الرفيقة هى الشريكة. أو هى اللصيقة. أو التابعة.. فلم تظهر كلمة: الزواج أو كلمة الزوج إلا فيما بعد ذلك بألوف السنين.

وهناك اختلاف آخر بين الانسان والقرد مثلا..

ففى فترة الحمل عند القرود ـ أقرب الحيوانات إلينا ـ تقرف الانثى من كل صلة جنسية. بل إنها تبعد تماما عن الذكور. فيما عدا الانسان ـ هذا الشهوانى ـ لا يقوى على الحرمان طويلا. ولذلك فمن الممكن أن يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك أراد ألا تتجه زوجته إلى ذكر آخر.. وكأن الأنثى أرادت هى الأخرى ألا يتجه الذكر إلى أنثى أخرى. فأصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل.

وقد ورث الانسان من مرحلة الصيد القديمة، هذه النعومة فى البشرة.. فهو إذا عانق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان.

وأصبح الجسم الانسانى شديد الحساسية للملامسة. وفى هذا الجسم الانسانى مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس. والانسان اكتشفها واعتاد عليها ويلهبها كلما أراد ذلك.. ولذلك فى استطاعة الانسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصبعه على الجسم الانسانى العريان.

ومن الملامح الغريبة عند الانسان: الشفتان..

وقد أعلن كثير من العلماء أن الشفتين ليست لهما ضرورة خاصة. وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة. ولكن الانسان هو الذى جعل للشفتين معنى خاصا.. ويقول علماء آخرون.. أن شفتى الانسان قد كبرت وتضخمتا لأن الانسان له طفولة طويلة. أى أنه يرضع ثدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر.

ولكن الغريب فى شكل الشفتين أنهما مقلوبتان إلى الخارج. على خلاف شفتى القرد.. فانهما حادتان بلا طبقة شحمية. فإذا اقترب منك القرد وقبلك فانه يطبع فكيه فقط على وجهك أو على عنقك. ولكن القبلة من شفتى إنسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا. ففى استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين..

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة. ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين ذراعين تتعانقان.. وتنقلان الحرارة والوهج الجنسى إلى كل الجسم بل إن هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات.. وبسبب المعانى الكثيرة التى تعملها القبلة وتثيرها، فان تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى.. وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه، فإن الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات آخرى ومعانى عميقة ومثيرة.

وبعد الشفتين تجيء الأذنان..

يقول بعض العلماء أن أذنى الانسانى كانتا طويلتين ـ كأذنى الحمار مثلا ثم ضمرت الأذنان بمرور الوقت حتى أصبح لهما هذا الشكل الذى نراه.. وهناك شبه بين أذنى الانسان وأذنى القرد.

ولكن هناك خلافا واضحا: هذه الشحمة التى تتدلى من الأذن.. من أين جاءت؟ وما فائدتها؟ ليست لها فائدة. ولكن الانسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين فى الاثارة الجنسية.. أمسك الأذنين بأصبعه أثناء اللقاء الجنسى. واعتاد ذلك وأصبحت لهذه الشحمة هذه الدلالة الجنسية. وأصبحت جرسا يضغط عليه فإذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتنفتح..

أما النهدان فهما عند أنثى القرد العريان متضخمان.. ويتضخمان عند الاثارة الجنسية أيضا.

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الأمومة. وضرورة لها. ولكن أثداء القرود ليست فى ضخامة أثداء المرأة. على الرغم من أن أثداء القرود أكثر افراز للبن. ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عند صغار القرود لم تؤد إلى تضخم ثديى القردة. ولكن أنثى الانسان لها نهدان يتضخمان وهذا التضخم ليس بسبب الأمومة، ولكن بسبب الأنوثة.. فالنهدان جهاز تنبيه جنسى أيضا. اعتاده الانسان واستراح إليه وعليه.

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى. والخلايا والمراكز العصبية الموجودة فى الأنف كثيرة. وإذا كانت حاسة الشم عند الانسان قد ضعفت فإن هذه الحساسية تقوى عند العناق. ويصبح الأنف

قادرا على أن يشم وعلى الاستمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة عن طـريق العطور ورائحة الجسم الانسانى نفسه..

هذه الاختلافات فى الهيئة والسلوك الانسانى قد اكتسبناها من مئـات الألوف من السنين.. واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل الذى نمتاز به عن الحيوانات الأخرى ولكن ما الذى تغير فى الانسان الآن.. هـل مـا يـزال الانسان كما كان من مئات الألوف من السنين.. هلى نحن مختلفون عـن أجدادنا فى الرغبة والاتجاه والاشباع.. لم يتغير شىء.. وانما الأسماء فقط هى التى تغيرت.. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد. والحـب بدلا من السطو. والزواج بدلا من التزاوج..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون.. القواعد.. الأصـول.. التقاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز. هذه الفواصل. هـذه الأسـلاك الشائكة. هذه العلامات البيضاء على الأرض. علامات المـرور العـاطفية. متى ظهرت. متى أصبحت لها هذه القوة؟..

فبين الرجل وأنثاه لا قيود. ولا تقاليد. ولا عادات. إلا ما اتفقنا عليـه وهو حر فى بيته. وهى أيضا. وفى استطاعة الانثى أن تمشى عارية. والرجل أيضا. ولكن عندما يظهر شخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسـم. وتنزوى المرأة. ويبعد الرجل عن زوجته..

وإذا كان الرجال معا يذهبون إلى الصيد، ويتركون النساء وحدهن فقد حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصيد أيضا. هذا الاختـلاط حتـم إقـامة الفوارق والحدود. وعرفت الانسانية معانى العيب والحرام والشرف. أى أن المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير..

وقد أسرف الرجال فى وضع الحواجز وإقامة الجدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم. وفى العصور الوسطى كان الرجل يضع «حزام العفة» حول زوجته.. ويضع على الحزام قفلا يحتفظ بالمفتاح فى جيبه.. عاما.. وعشرين عاما. ويترك فى الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط. وكان البعض من المتزمتين يضع الحزام السد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يوم!

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن يكون له امرأة خاصة... وأن يكون جسمها خاصا به. وأن يكون لهما مكان خاص ينامان فيه. (وفى كل اللغات العالمية نجد أن كلمة «نام» الرجل مع المرأة أى عاشرها كأنها زوجته).. إذن لقد عرف الانسان الزوجة الخاصة. والبيت الخاص. وعرف السرية والخصوصية فى كل تصرفاته الجنسيةوالعاطفية.. بعيدا عن عيون الآخرين وعن أيديهم أيضا..

ولو نظرنا إلى مكان يزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هناك حرصا شديدا على ألا يصطدم أحد بأحد.. أو يصطدم رجل بامرأة.. لأن الملامسة لها معنى جنسي. وإن كنا فى حياتنا العادية لا نقول ذلك. وإنما فقط نقول: عيب أن نصطدم بسيدة.

هذه قلة ذوق.. هذا سوء تربية.. ولكن المعنى الحقيقى أن جسم هذه السيدة ليس مباحا. وانما هو خاص. وليس من حقك أن تلمسه.. وإنما من حق غيرك، وإن كانت هذه الملامسة مسموحا بها فى أماكن الزحام الشديد، لأنه لا مفر من ذلك، ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب.. ولو فرضنا أن سيدة اصطدمت برجل فى الزحام، ولم يعتذر لها لقالت أنه قليل الأدب.. ولكن لو ذهبت إلى الطبيب نفسه للعلاج فإنها تنزع ملابسها أمامه.

ويتحسس جسمها. ويولدها. ولا يتهمه أحد بسوء الادب لأنه فى المرة الأولى لم يكن له حق. وفى المرة الثانية له هذا الحق!

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء فى كل مكان. كان من الضرورى أن تخفى المرأة معالم جسمها. وقد دفنت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس ألوف السنين. ولكن عندما أصبح «العمل» ضرورة حيوية.. خرجت المرأة وأخفت ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر إليها ولمسها بالعين أو باليد ليس من حق كل الناس!

ولذلك نحن نطلب إلى الطفلة الصغيرة إذا جلست أن تضم ساقيها. وألا تفتحهما حتى تعتاد على ذلك.. لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس.. وكذلك المرأة عندما تضحك فإنها تحاول ألا يكون صوتها عاليا. وأن تخفى ضحكتها وراء يدها.. أو تنحنى لتخفى ضحكتها أيضا.

والسبب هو أن الضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة، ويجب ألا تكون عامة!

ولكن ما الذى تفعله المرأة بملابسها الآن؟

إن ملابس المرأة تخفى جسمها ولا تخفيه.. بل أن الملابس تبرز جسم المرأة أكثر مما تتستر عليه. فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا. ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه. وهذه الاستدارة والتضخم والبرز لها دلالة جنسية. فمن المعروف أن النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسى.

وكذلك أرداف المرأة. فهى حريصة أيضا على ابراز الردفين وتكبيرهما.. ولذلك تستخدم الكورسيه.. وأحيانا تستخدم الأرداف الصناعية

المصنوعة من القطن. وكما أن المرأة تحقن صدرها بالشمع. فانها تحقن أردافها أيضا.

فكأن المرأة لا تخفى جسمها. وإنما هى تخفيه ليظهر أكثر.. فلماذا؟

نعود إلى جبلاية القرود: ففى عالم القرود نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفة إلى الاستسلام للذكر القوى أو الانثى القوية وأول ما يفعله القرد الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الأقوى. ويعتليه الحيوان الأقوى. والخوف فى جبلاية القرود سببه الزحام على القوة. وعلى السلطة. وعلى الطعام وعلى الاناث. ولا يملك الضعيف فى هذا الزحام الوحشى الا أن يعطى نفسه لمن هو أقوى منه. وليس لدى القرود إلا جسمها. فتضعه أمام الذكر الأقوى!

وفى عالم الانسان أيضا. فالمرأة عندما تخرج إلى الشارع.. تحرص على أن تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل. وفى نفس الوقت تذويب رغباته العدائية أو العدوانية.. إلى مجرد رغبة.. إلى إعجاب إلى اشتهاء.. وبذلك تنجو المرأة من شر الرجل. وتنجو أيضا من الاعتداء عليها.. ولولا خروج النساء إلى الشارع لا نهدمت الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشبان والمتزوجين.. فكأن المرأة عندما تخرج إلى الشارع جميلة أنيقة مثيرة عارية بارزة النهدين والردفين تقول: من الممكن أن تحبنى ولكنى بعيدة جدا!

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج إلى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل. أى رجل.. فهى لا تستطيع أن تسد عيون الناس. ولا أن تسد أفواههم. ولكنها فقط عن طريق اشباع العيون تقطع أيديهم..

وإذا كانت العين بصيرة، فمن المؤكد أن الأيدى ستكون قصيرة ــ وهــذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه الممنوعات والقيود، ولماذا هذه الاثارة فى نفس الوقت، لماذا نفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المــدفأة فى نفس الوقت ؟

لأن الرجل حيوان «بريالة».. فلماذا سال لعابه، أصبح حيــوانا ذلــولا ذليلا.. فكأن المرأة هى وحدها القادرة على تحويل النمر إلى قط وتحويل الذئب إلى كلب.. إلى قرد عريان.. فكأن المرأة هى وحدها التــى تقــوم بترويض الرجل الشرس فى الشارع وفى البيت.. وهى وحدها القادرة علــى أن تحمى الحدود التى وضعها الرجل.. وعلى إزالة الحدود وإزالة الــرجل أيضا !

وقد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد أن ينظر.. أن «يبص» وأن يجد متعة فى النظر والبصبصة.. واعتادت المرأة أن تكون منــظورة.. ملفتــة.. وتصبح المتعة مشتركة بين الجميع.

ولذلك نجد متعة أيضا فى مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون.. إنهم يقــومون بــكل شــىء بالنيابة عنا.. إننا نشاركهم فقط بعض اللحظات.. بل إننا نعلن عن الأفلام العاطفية باظهار البطل والبطلة فى حالة عناق حار. ولا أحد يسأل نفســه، طيب هو يعانقها ويقبلها واحنا أخذنا ايه ؟..

لا شىء طبعا.. ولكن أثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطلة وننسى أن الذى أمامنا هو تمثيل فى تمثيل.. ولكن النظر متعــة.. ولــذلك عنــدما

يتعانق البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب.. وتتعالى آهات الحــرمان.. آهات صاحب العين البصيرة واليد القصيرة!

وفى الصحف والمجلات صور عــارية.. وفى الــروايات قصص عــارية.. وصفحات غرامية من نار.. كل هذا نبحث عنه.. لأنه لذة. ومتعة. ومشاركة بالعين فقط..!

وفى هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لــكل إنســان أسرة أيضا!

وفى البلاد التى يسمحون فيها بالدعارة.. نجد أن هذه الدعارة تحمــى الأسرة أيضا. فالرجل يذهب إلى احدى الغانيات بلا حــب ولا مقــدمات فتمتد يده دون أن يراها.. أى يكون طويل اليد قصــير النــظر.. ولــذلك لا يفكر فى أن يتزوج غانية.. أو يترك زوجته وأولاده وبيته من أجل غانية.. ومن أجل واحدة تملأ الذراعين وتسقط من العينين!

والدعارة هذا العفن الاجتماعى والاخلاقى ـ هى أحد السموم وحاولوا وضع الأطفال فى مكان عام دون حاجة إلى أم أو أب.. يستخدمونها لتغذية التربة؟!

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية.. أو التخفيف منها تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة اجتماعية. فقد حاول المفكرون أن يبحثوا عن وسائل للحمل بدون أب معروف.. وحاولوا وضع الأطفال فى مكان عــام دون حاجة إلى أم أو أب.. كل هذه المحاولات الفــكرية والعلميــة قــرأ الانسان عنها ولكن لم يتحمس لها. فمايزال الانسان حيــوانا اجتمــاعيا.. يريد الزوجة الواحدة والطفل والبيت الخاص. وأن تكون له خصــوصيات..

وأن تكون هناك، حدود عليه وحدود له.. وأن يكون له أطفال. وأن يتــولى هو تربية أطفاله وهذه هى إحدى مشكلات الأسرة وأحد أعباء الــزوجين.. والمجتمع والدولة.. وتربية الطفل ليست مشكلة حيوانية.. فلا شكوى للقرود منها.. وإنما هى مشكلة إنسانية جديدة ومتطورة كما سنرى!

من قــلوب الأمهــات خرجت موسيق الخنافس !

(٢)

عندما يولد القرد، فإنه يمسك بأمه. يمسك بشعرها وجلدها. ويتعلق بها. كأنه تدرب على هذه العملية فى بطن أمه ومنذ وقت طويل.. ولا يســتطيع الطفل الانسانى أن يفعل ذلك إلا بعد وقت طويل..

فالقرد الصغير لا يحتاج من أمه إلى تربية أو تدريب.. ثم أنه ليس عبئا يصيبها بالقرف والغثيان وينخفض ضغط الدم عندها.. وينفــخ صــدرها.. ويعتمد عليها.. أما الطفل الانسانى فإنه عبء قبل أن يولد فلا تكاد أمــه تحمل فيه حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كأنه قذيفة. ولا بد أن تصرخ الأم بأعلى صوتها. ولا بد أن يبكى الطفل أيضا. ويحرص الأطباء على أن تصوت الأم وعلى أن يبكى الطفل. فإذا حدث ذلك تلفت الــطبيب يتلقــى التهانى من الأهل على أنه أبكى الأم وطفلها.

وينزل طفل القرد ومعه «خلاصه» هذا الخلاص تقوم أم القرد بقــطعه ثم ابتلاعه. وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذى يغرق جسم الطفل ثم يغسل جسمه تماما.. أما الطفل الانسانى فإنه يولد عاجزا تماما علــى فعــل أى شىء.. وأمه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود..

ولا بد أن قطع الخلاص على طريقة القرود كان أسلوب أجـدادنا مـن ألوف السنين. فيما عدا أنهم لا يأكلون الخلاص. ولا بـد أن حـاجة الأم إلى مساعدة الآخرين فى هذا الموقف ترجع إلى مئات الألوف من السـنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته أياما حتى يعود إليهـا بـالطعام. فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدنها على ولادة الطفل والعناية بـه حتى تفيق من آلام الولادة..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانسـانى يبـدأ لبـن الأم فى السـيولة النشطة. فإذا أعطت الأم ثديها لابنها ظل يرضع حوالى العشرين شـهرا.. والرضاعة الحديثة تكتفى بسبعة أو تسعة شهور فقط.

وعندما تتوقف الأم عن إرضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح قادرة على الحمل من جديد.. ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا.

والرضاعة عند القرود ليست مشكلة .. ولكنها عند الانسان ـ هذا القرد العريان ـ مشكلة كبرى. فالطفل الانسانى غير قادر على أن يطعم نفسـه، وعلى الأم أن تساعده فهى تحمله على صدرها. وهى تضع ثديها فى فمـه. وهذه مشكلة. فحلمة الثدى ليست ممدودة بدرجة كافية. وليس من السهل إدخالها فى فم الرضيع. ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفتيه بحيـث تـكون حلمة الثدى بين سقف الفم وبين لسانه. ثم أنه يجب أن تكون الـرضاعة سهلة فى الأيام الخمسة الأولى، وإذا فشلت الأم فى ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك..

وأحيانا تشعر الأم أن طفلها يرفض ثديها. وهى لا تدرى. ولـكن عنـد الطفل أسباب وجيهة جدا. كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها. فلا يعرف

كيف يتنفس. ففمه الصغير مليان باللبن وأنفه الصغير ملتصق بصــدرها.. ولذلك يجب أن تراعى الأم ذلك. وهذا يجعلنا نقول مرة أخرى أن صــدر الأم ـ نهديها ـ ليس جهازا للأمومة. وإنما هو علامة من علامات الأنوثة.. والجنس. فهذه الأستدارة المرنة. وهذا البروز وهذه الحلمة غير الممدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل. ويكفى أن ننظر إلى زجاجات اللبــن التى يرضع منها الطفل. فحلمة الزجاجة طويلة ممدودة ولذلك يسهل علــى الطفل أن يرضع منها. ولو عرف الزجاجة لرفض ثدى الأم.. وتشبه هــذه الزجاجة النموذجية ثدى القردة فثدى القردة مترهل يسهل على الطفل أن يمسكه.. كما أن حلمة الثدى طويلة ممدودة تدخل بين شــفتيه بســهولة تامة.. بينما الطفل الانسانى يجد صــعوبة فى وضــع الحلمــة فى فمــه.. ولا يقوى على إمساك الثدى بسهولة القرود.. فكأن ثــدى المــرأة خلــق للرجال وليس للطفل!..

وهناك ملحوظة هامة وتحتاج إلى تفسير جديد.. فقد دلت الأبحاث على أن ٨٠٪ من الأمهات يضعن أطفالهن الصغار أثناء الرضاعة على الــذراع اليسرى وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الذراع اليمنى أكثــر مــن اعتمادنا على الذراع اليسرى فتضع الأم طفلهــا علــى الــذراع التــى لا تستخدمها عادة.

ولكن لوحظ أن ٧٨٪ من الأمهات اللائى يســتخدمن الــذراع اليسرى يضعن الطفل أثناء الرضاعة على هذه الذراع اليسرى أيضا!!

أما تفسير ذلك فهو أن القلب علىَ الجانب الأيسر مــن الجســم. وأن الطفل وهو جنين قد اعتاد على سماع دقات قلب الأم.. وعندما يولد الطفل عاجزا ضائعا فى هذا العالم الكبير فإن الأم تعيده إلى جنبها إلى حضنها

كأنها تعيده إلى أحشائها فى ذلك المكان الأمين الذى يستمع فيه إلى دقات قلبها من جديد.. ودقات قلب الأم هى الصوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن فينام. والمرأة تفعل ذلك بالغريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من السنين..

وقد أجريت تجارب على أطفال صغار وضعوا فى غرفة واحدة فى الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب ـ أى ٧٢ دقة فى الدقيقة ـ فلوحظ أن الأطفال ينامون بسهولة. ولوحظ أيضا أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا. كما أن وزنهم قد زاد.. على عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهاز تسجيل فى غرفهم.. فهؤلاء الأطفال يبردون طاقتهم فى البكاء.

وأجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال: أطفال فى غرفة بها جهاز يدق ٤٠ دقة فى الدقيقة.. وأطفال فى غرفة بها جهاز يدق ٥٢ دقة فى الدقيقة.. والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل عليه دقات قلب حقيقى.. فلوحظ أن أطفال الغرفة الثالثة هم أسرع الجميع إلى الهدوء وإلى النوم.

ولا بد أننا حين نتحدث عن أن الحب مصدر القلب وليس الرأس. نشير إلى أن هذه الحقيقة التى عرفناها أثناء الطفولة.. فنحن نشير إلى الأمن والأمان إلى جوار الأم.

ولا بد أن تكون «مرجحة» الطفل.. وهدهدته حتى ينام.. سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم.. ولا بد أن هذا هو الذى يجعله ينام.. وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه يعيده إلى هدوئه عندما كان فى بطن أمه.. وهذا ما نفعله نحن الكبار..

فلا يكاد الانسان يجلس إلى مقعده حتى يحاول أن يتأرجح به.. أو عندما نهز أرجلنا.. كل هذه محاولات لأن نهدئ أنفسنا.. أو محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم.

وليس من الصدفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التي يستريح إليها الشبان هي موسيقى الدقات العالية.. دقات الطبول.. دقات القلوب المصنوعة من الجلد.. هذه الدقات تهز الأذن وتتأرجح لها المشاعر.. وقد اختار الشبان في العالم اسما لهذه الموسيقى هو: موسيقى الخفقان.. موسيقى دقات القلب.. ومن الغريب أيضا أن الكثير من الشبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون.. ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على أن يناموا أثناء العزف الموسيقى.. ثم يصحون بعد ذلك أن استراحت أجسامهم وأعصابهم أيضا.. إن هذه الموسيقى قد أعادتهم إلى طفولتهم.. إلى قلب الأم.. وإلى حنان النغم.. فناموا كأنهم أطفال صغار كأن موسيقى الخنافس قد صدرت من قلب الأمهات!

وبعد ذلك يتولى نمو الطفل: بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه إذا نام على الأرض. وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده إلى الأشياء. وبعد أربعة يستطيع أن يجلس في حجر أمه. وفي الخامس يمكن وضعه في مقعد. وفي السادس يمكن أن يجلس وحده وفي السابع يعتمد على أمه في الوقوف. وفي الثامن يعتمد على أثاث الغرفة في الوقوف. وفي التاسع يزحف. وفي العاشر تساعده على المشي.. وفي الحادي عشر يعتمد على أثاث الغرفة في الوقوف.. وفي الثاني عشر يستطيع أن يصعد السلم بيديه ورجليه وفي الثالث عشر يقف دون مساعدة. وفي الرابع عشر تجيء اللحظة الكبرى.

انه يستطيع أن يمشى دون مساعدة! وفى هذه الأثناء يكون قد عـرف الطفل بعض الكلمات. ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفى السنة الثانية يعرف ٣٠٠ كلمة وفى الثالثة ٥٠٠ كلمـة وفى الـرابعة ١٦٠٠ كلمـة. وفى الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الانسان انفرد بهـا عـن كل الحيوانات الأخرى. وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القـرود علـى الكلام.

فمثلا : أتوا بقرد وجعلوه يعيش فى نفس بيئة طفل إنسانى. وبعد سنتين لم يستطع القرد أن ينطق أكثـر مـن بـابا.. ومـــاما.. كوب.. وان كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات، فإنه عاجز تماما عـن تقليـد الأصوات. على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى أقوى مـن أجهزة الانسان.. ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتى لا يكفى.

ولكن العقل هو الفارق بين الانسان والقرد. وهناك طيـور أقـدر مـن الشمبانزى على تقليد الأصوات.

فالببغاء يستطيع أن ينطق جملة طويلة ولكنه لا يسـتطيع أن يضـيف كلمات أخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التى عنـده.. ولـكن هذه اللغة ضرورة عند الانسان الذى كان يجـب أن يخـرج فى جمـاعات الصيد. وكان لا بد أن توجد هناك وسـائل للتفـاهم والتخـاطب بيـــن الصيادين.. فاللغة ضرورة حيوية عند الانسان.

والطفل الانسانى ككل أطفال الحيوانات الثديية له صرخة معروفة هــذه الصرخة تدل على أنه يشكو من ألم. وبعض الطيور لها صرخـات أيضـا. والطفل الانسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو إذا ظهر أمـامه

أو حوله شيء غير مألوف أو إذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه.. فإنه يصرخ.

فهو يصرخ إذن بسبب: التعب أو الخوف. وإذا صرخ الطفل الانسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحميه. وفى هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهزه هو أو السرير الذى ينام عليه.. وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين، وفتح للفم وسحب للشفتين إلى الخلف وتنفس مرتفع. وعندما يكبر الطفل فإنه عندما يصرخ يتجه إلى أمه ويتعلق بها. وكل هذه معلومات معروفة. ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا.. مشكلة الابتسام والضحك.. فالابتسام له علاقة بالصراخ. فالصراخ نداء إلى شخص بعيد.

والابتسام حديث مع شخص قريب. وملامح الوجه عند الصراخ هى نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك: صراخ وفتح للفم وسحب للشفتين إلى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه..

البكاء يتحول إلى ضحك. فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه، والطفل العاقل هو الذى يعرف أمه. وعندما يعرف الطفل أمه فإنه يخاف من الآخرين.

والضحك معناه: أن الخطر ليس حقيقيا. وإذا عرف الطفل الضحك، فإن الأم تستطيع أن تلعب معه بدون أن يصرخ.

وهناك اناس كثيرون إذا ضحكوا لا تعرف أن كانوا يضحكون أو يبكون.. فملامح الوجه واحدة. والصوت نفسه واحد.. وإذا كنا نقول عادة: أن فلانا ضحك حتى بكت عيناه، فيمكن أن يقال عن الطفل: أنه بكى حتى

ضحك.. فالطفل يبكى حتى يجىء أحد. فإذا جاء توقف عن البكاء. فإذا عرف هذا الذى جاء فإنه يبتسم.. ثم يضحك.. وكثيرا مايتوقف الطفل عن البكاء فجأة ويضحك.. نفس الملامح مع خلاف بسيط فى لمعان العينين..

وعندما يعرف الطفل كيف يضحك فإنه يصبح لعبة الأبوين والأقارب.. ويدخل الطفل مرحلة من حياته.. مرحلة الكائن الاجتماعى الصغير..

والشمبانزى يبتسم ويضحك ويلعب مع صغاره.. والشمبانزى إذا ضحك فإنه يمد شفتيه إلى الأمام. وهى قريبة من الضحك الانسانى وعندما يخاف الشمبانزى فإنه يسحب شفتيه إلى الخلف ويكشف عن أسنانه. فالحيوانات تضحك وتلعب. والانسان أبرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب. وكلما كبر الانسان اتسعت أمامه فرص اللعب بأنواعه المختلفة.. اللعب جسميا وعقليا وفنيا.

وإذا نحن نظرنا إلى الشبان عندما يستمعون إلى مطربهم المحبوب.. أو يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم. فنجد أن هؤلاء الشبان يصرخون ويشدون شعورهم ويدقون صدورهم ويمسك الواحد منهم الآخر.. إنهم يصرخون كأنهم يتألمون مع أنهم سعداء. ولكن الانفعال إذا ما كان بالغ الشدة فإنه يتحول إلى شعور بالألم.. فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد. وإنما صرخات بقصد تنبيه الآخرين إلى أن هذا هو شعورهم وإحساسهم.. وإنهم فى شدة السعادة التى بلغت أقصى درجات الألم..

ولو أتينا بشاب أو شابة وجلسناها مع المطرب الذى هو فتى أحلامها فإنها لا تصرخ ولا تشد شعرها ولا تدق صدرها.. فالصرخة ليس لها معنى هنا. لأن الصرخة نداء إلى الآخرين.. لأن الصرخة .. لغة .. عبارة.. كلام لا بد أن يسمعه إنسان آخر.. أو آخرون!.

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ في الشهر الثالث فجأة. وسبب ذلك أن الطفل يكون قد عرف أمه.. والأم الهادئة قادرة على تهدئة الطفل. والأم العصبية تجعل طفلها عصبيا أيضا..

والأم التى تبتسم لطفلها فإنها تهدئه. ولكن إذا فوجئ الطفل بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة، فإنه يرتبك ويضطرب ولا يعرف ما الذى تقصده أمه.

وإذا الأم افتعلت ضحكة أو ابتسامة، فإن الطفل يدرك ذلك أيضا، ومن المستحيل خداع طفل صغير. وهذه حقيقة تعرفها الأمهات. وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة. وأنه إذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملامح الأم فإذا تغيرت لأى سبب فإنه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة !.

والابتسام تفاهم متبادل.

ومعناه، لا خوف. وعند الشمبانزى علامات تدل على المودة. ولكن الابتسام عند الانسان ميزة خاصة. ولكن لماذا انفرد الانسان بالابتسام؟.

سبب ذلك أن جلدنا ناعم

عريان من الشعر. فالقرد الصغير عندما يولد فإنه يتعلق بأمه. ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه. وعندما يتركها لأول مرة، فإنه بسرعة يعود إليها ويمسك بها. فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول إلى منطقة الأمان. حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فإنه يعود إلى صدرها يتعلق به.. والطفل الانسانى عندما يولد فإنه يكون عاجزا عن عمل شىء. وليس لديه شىء يمسكه أو يتعلق به. ولذلك لا بد أن يعتمد

على الأم نفسها. وعلى اقترابها منه ومعاملتها له.. ويجب أن يصرخ حتى تجيء . والشمبانزى لا يحتاج إلى هذه الصرخات، لأن أمه أمامه موجودة. أو لأنه يتعلق بها. ولذلك فالانسان الصغير محتاج إلى علامة إلى إشارة تدل على أنه فى حاجة إلى معونة ومحتاج إلى إشارة أخرى فيقول إنه قد تحققت له المعونة وأنه استراح إلى ذلك.. والابتسام هو المكافأة التى يمنحها الطفل لأمه.. فهو إذا ابتسم كأنه قال لها: شكرا.. وإذا ابتسمت هى فكأنها قالت له عفوا!.

وابتسامة الطفل فى الأسابيع الأولى تكون غير مركزة.. إنها ابتسامة عامة.. ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز: على عينى الأم.. ولو قدمنا للطفل فى هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينان.. لابتسم لهما أيضا.. وفى الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم.. وفى الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه.. وابتداء من هذا الشهر ينطبع فى نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته.. أنه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى.

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع. هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر.

وبعد ذلك تتركز على العدو.. أو الشخص المخيف.. وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته.

وعندما يكون هناك أطفال كثيرون معا، فإن استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف.. ومهمة الأم هنا تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه. والطفل الانسانى يتعلم بالتقليد والتلقين.. وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى.

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هى ثمرات لبذور غرست فى الطفولة..

ولكننا ننسى ذلك.. كل ما فعله الانسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا أخلاقيا، وليس فى الحقيقة إلا ما تسرب فى نفسه منذ الطفولة.. ومن الصعب أن نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة أيضا.. كما أنه من الصعب أن نغير التقاليد والعادات التى ترسبت فى طفولة المجتمع الانسانى. فإذا ظهرت أفكار جديدة تهز القديم. فإن القديم يقاوم ويتحمس له الناس. لأن الجديد يريد أن يقتلهم من طفولتهم أو يجردهم من تاريخهم.. ولكن الجديد يسود مع بقاء القديم أيضا..

وهناك مجتمعات تجردت من كل القديم، وتعلقت بالجديد.. هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعدت عن الرواسب القوية الأخلاقية والاجتماعية. وهناك مجتمعات تجمدت طفولتها على ماضيها.. ولكن المجتمعات السعيدة ـ كالانسان السعيد أيضا ـ هى التى تأخذ من الجديد ما ينفعها، وتحتفظ من القديم بما ينفعها أيضا.. أى المجتمعات التى اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضى الكريم والمستقبل الباهر.. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة.. كيف تغرس فى نفس طفلها ما هو نافع له وللناس، وتبعده عن الذى يضر غيره.

ولكن الانسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو أدى ذلك إلى ضرره.. يريد أن يعرف.. أن يمد عينيه ويده.. وخياله.. ويلعب أول الأمر. ثم يحول اللعب إلى فن: رسم. نحت.. تمثيل.. موسيقى!.

القرد والسلسلة والقـرداتى !

(٣)

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شديدة فى أن تشمشم فى كل ما تجده كأنها تريد أن تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذى تجـده شـىء يصـلح للأكل. والقرد هو أكثر هذه الحيوانات رغبة فى الاستطلاع. أما الانسـان فهو أكثرها شراهة ويمكن أن يقال أن الانسان حيوان «دباغ» أى يـأكل أى شىء وفى أى وقت..

وكلما أصبح الحيوان متخصصا فى طعام معين، أصبح عـالمه ضـيقا محدودا وفى نفس الوقت خانقا أيضا.. فالحيوان الذى يأكل النمل لا يـرى إلا هذه الحشرة وتصبح الدنيا من أولها لآخرها لا معنى لها إلا إذا كانت على شكل نملة.. وإذا اختفى هذا النمل لأى سبب مات هذا الحيوان..

ولأن بعض الحيوانات تخصصت فى بعض الطعام، فان الـطبيعة قـد أعطتها نوعا من الحماية. فحيوان القنفد يسـتطيع أن يحـدث أصـواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما. لأن له درعا من الشوك يحميه مـن الأعداء.. لكن الحيوانات الأخرى التى ليست لها حماية يجب أن تـكون فى

حالة يقظة مستمرة.. فالانسان يجب أن يبحث عن طعامه فى كل مكان، وأن يكون البحث واعيا وإلا مات.

والقرود عندها حب استطلاع شديد. تماما كالانسان، ولكن عندما تكبر القرود، فإن هذا الاستطلاع يتوقف، ولا يتطور على عكس الانسان الذى يقوده السؤال إلى جوانب ثم إلى سؤال آخر وهكذا..

وهناك نوعان من السلوك عند الانسان: حب الجديد والخوف من الجديد.. فكل شيء جديد ربما كان خطرا.

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وأن يبتعد عنه باحتراس أيضا: ولكن إذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعلم أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة؟ هذه الرغبة فى أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفا شيئا مألوفا. وبذلك نكتسب تجربة جديدة، وندخرها ونختزنها ونتذكرها فيما بعد..

فالطفل الانسانى يريد أن يعرف، يمد يده إلى كل شيء، ويضع أذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله، ويجرب، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان.. ونحن نقول عادة عن هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شيء بشراهة: إنهم يتصرفون كالوحوش.. ولكن الأصح أن يقال: أن الوحوش هى التى تتصرف كالأطفال ـ أى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفتها يختلط لديها الاندفاع بالاحتراس..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان أيضا: اللعب، فاللعب عند القرد يشبه اللعب عند الطفل الانسانى، فالصغار عموما يحبون الشيء

الجديد. يمسكونه، ويرمونه ويكسرونه، ويخترعون أشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على أن ينقلوا إلى أبائهم معنى الألعاب أو الحركات التى اكتشفوها. أما الطفل الانسانى فيستطيع إلى حد ما، والفرق بين القرود الصغيرة والأطفال الصغار: أن القرد كلما كبرت قويت عضلاتها والأطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم..

وإذا أعطينا القرد الصغير ورقة وقلما، فانه يمسك القلم ويرسم به على الورق، وعندما ينظر إلى ما أحدثه القلم على الورق يفرح به.. فهذه الخطوط شيء جديد، ويظل يرسم بالقلم على الورق، وأحيانا يرسم دوائر ناقصة.. وأحيانا خطوطا متقطعة.. أما الطفل الانسانى فيهتدى إلى الدوائر والمربعات.

والأطفال والقرود يحبون الخبط والرقع.. أى يحبون أن يلعبوا بالأشياء التى لها صوت، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب أكثر.. يحبون البمب.. والبالونات ومسدسات الفل..

والطفل الانسانى عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة، ويرسم الوجه الانسانى وذلك بأن يجعل له عينين وفما وأذنين.. ثم يجعل الذراعين والساقين تخرج من الرأس..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف أيضا، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب، ويكتشف أنه قادر على أن يلعب، ولكنه لا يقدر على أن ينقل هذا الذى يمارسه إلى والديه فيقول لهما ما الذى صنعه أو اهتدى إليه، وإنما هو يرسم فقط!.. إنه كالذى وجد قرشا على الأرض. وراح يلعب به فقط ولكن لا يعرف أن هذا القرش له معنى أخر.. أو يستطيع أن يشترى به أى شيء.. أو بعبارة أخرى: أن القرش لعبة، أى أنه يساوى ثمنه لعبا، أى أن

اللعب لذة مدفوعة الثمن فورا. فهو فى مرحلة اللعب لمجرد اللعب. وفى عالم الأصوات: لا نجد أن القرد الصغير أو الكبير تجارب فى عالم الصوت، فهو غير قادر على أن يكتشف شيئا جديدا، ولا أن يقوم بتركيب كلمات أو حروف، ولا هو قادر على التلاعب بالحروف والكلمات كما يفعل الأطفال عندما يكتشفون قدرتهم على الكلام، فانهم يفرحون باختراع كلمات أخرى: أى بقلب الحروف ولخبطتها.. إنها مهارة جديدة اكتشفوها فى أنفسهم.. وإن كانت القرود لها أصوات معروفة ثابتة.

وإن كانت لها أيضا عادة دق الأرض بالأرجل والأيدى للتعبير عن الضيق أو الفرح، ولكنها دقات معروفة محدودة، كما أن القرود فى بعض الأحيان تنفخ فى الأجسام المفرغة الجوف.. ولكن القردة لم تستطع أن تجعل الشىء المفرغ عودا أو قيثارا، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى.

ولم تحاول القردة أن تجعل فرحتها منظمة.. أو حركاتها مدروسة كالرقص عند الانسان. أو كالألعاب الرياضية.. فالرياضة هى حركات ذات إيقاع، هذا الايقاع متنوع من لعبة إلى لعبة.

حتى الكتابة هى أيضا نوع من الرسم، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضا.

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا إلى غيرنا، ونقلها أفكارنا من جيل إلى جيل، وأصبح لنا تاريخ مشترك. ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد..

ولا شىء جديد فى عالم الحيوان.

ولكن الجديد فى عالم الانسان.

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به، فإذا أصبح مألوفا اتجه إلى غيره، ولو وقفنا عند الذى نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط فى خطوط الازياء والتسريحات والسيارات والأثاث، ولكن الجديد فى أسلوب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الانسانية.. وهو الفارق بين الانسان والقرد، أو بين القرد العريان والقرد..

وإذا رجعنا إلى لعب الأطفال لوجدناه موجها إلى الآباء فى أول الأمر، فالاب يلاعب طفله، والطفل يلاعب والديه، وعندما يكبر الطفل، فان اللعب يتجه إلى غيره من الأطفال.. أى يكون للطفل نشاط اجتماعى، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معا، وهذه مرحلة دقيقة جدا فى حياة الطفل وسوف يكون لها أثر خطير فى حياته، فالطفل الذى يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير، سيجد صعوبة شديدة فى محاولة ذلك عندما يكبر.. والطفل الذى يفشل فى أن يكون له أصدقاء وهو صغير، ستصبح الصداقة صعبة عليه عندما يكبر.. وإذا كانت علاقة الطفل بالأشياء المادية كالبيانو أو كالناى صعبة فى الطفولة، فإن علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب وأعقد.

والطفل الذى انعزل عن مجتمع الأطفال، أى الذى ليست له علاقة اجتماعية، سيجد نفسه فى وضع سيئ وسوف يكون علاقات اجتماعية معقدة ومرهقة أيضا..

ومن التجارب التى أجريت على القرود مثلا : أننا إذا عرفنا قردا من القرود الأخرى.. سنة وراء سنة ثم أتينا له بعد ذلك بقرود فإنه يظل عاجزا عن المشاركة معها فى اللعب أو اللهو حتى فى الجنس.. بل أنه يفقد رغبته الجنسية تماما، وقد لاحظ العلماء أن القرود التى تنعزل طويلا إذا وضعت

فى مجتمع القرود فإنها تقف إلى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها.. وأحيانا تخفى وجهها بيدها.. كأنها فى حالة خوف أو خجل أو عجز عن الاشتراك فى أى عمل جماعى..

وتربية الطفل لها جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية، ولننظر ماذا يحدث فى عالم القرود : فالأم تترك طفلها يتعلق بها فإذا خاف عاد إليها فالأم تحميه بحنانها وترضعه مكافأة على سلوكه الذى لا يضره، وهذه هى مرحلة الأمان عن طريق الحنان، أما عندما يكبر القرد فإن الأم تطرده بعيدا عنها، يشترك مع القرود الأخرى فى اللعب فإذا عاد إليها فانها تضربه وتقسو عليه.. كأنها تريد أن تقول له : إنك كبرت على حضن الأم فابحث لك عن حضن آخر، وفى هذه المرحلة نجد الأم أقل حبا لطفلها، ولا تنطق لحمايته إلا فى حالة الخطر الشديد أما إذا لم يكن هناك خطر، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فإنها تطرده وتضربه، وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه، وأن يدافع هو عن نفسه..

وكذلك الطفل الانسانى تماما، إذا لم تحسن الأم تربية طفلها فى المرحلتين فإن النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية..

والطفل الانسانى الذى يفقد الحنان وهو صغير، ثم أصبحت له علاقات اجتماعية بعد ذلك، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية..

وإذا عرف الحنان فى الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة، وإنما سيظل كالطفل متعلقا بأمه.

ولا يريد أحدا آخر غير الأم فإذا فقد الأم فانه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم. وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس، ولأنه ليس أمـا لأحد..

والانسان الذى يخاف من المجتمع يكون إنسانا انسحابيا أو هـروبيا، وهذا الانسان الهروبى لا يريد أن يعرف شيئا جديدا، لأن الجـديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف.

فالذى يعرفه أحسن، وهو لذلك ليس اجتماعيا، ولا يحب أن يكون، وقد يكون نشاط جسمى، ولكن نشاطه يجب أن يـكون متـكررا، أى لا يـأتى بحركات جديدة، وإنما هو أسير العادة التى استراح إليها.

بل أننا نجد الكثيرين من الهروبيين لهم حركات ثابتة.. يهزون رءوسهم أو أيديهم أو أرجلهم بصورة متكررة أو يرضعون أصابعهم، وتـكون لـكل واحد منهم «لازمة».. لماذا؟ لأن هؤلاء الهروبيين قد وجدوا البيئة مخيفة، معادية، لا ترحب بهم، ولذلك وجدوا الراحة فى أن يجعلوا سلوكهم مألوفا، مألوفا أكثر من اللازم. أى جعلوا أنفسهم مفهومين عـاديين ــ لا يخـاف منهم أحد أولا يلتفت إليهم.. ومن الممكن أن تلاحظ ذلك فى الناس الـذين حولك. فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد علـى كل شـىء هـو إنسان (عادى) ــ أى يجعل العادة تتحكم فيه. حتى أصـبح هـو نفسـه (عادة) اجتماعية، لا يخيف أحدا، وهناك مثل شعبى يقول: أفتى: معرفتى، وراحتى: ماأعرفش ــ ومعناه أنه لا شىء يخيف أكثر مـن المعـرفة، ولا شىء يريح أكثر من الجهل!...

ولابد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن يـأتى بالأفعال الرتيبة.. مثل دقات القلب فدقات قلب الأم تريح الطفل. وكل عمل

يكون متكررا على شكل دقات القلب هو شيء مريح أيضا، أو هـو شـيء يجعلنا نخفف من حدة التوتر.

وفى استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية أنه يدق بـأصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه.. أو يتحرك فى الغرفة.. والطالب أثناء الامتحان يضع القلم فى فمه.. أو يلعب بشاربه.. ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل دقات القلب..

وهذه الحركات.. أو هذه (اللازمة) لها فائدة: فهـى تسـاعدنا علـى احتمال الشيء الجديد الذى ننتظره فى خوف.

وإذا نحن أسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فإنها تصبح فكرة متسلطة علينا.. أى أننا نضع القلم فى أفواهنا دون أن يكون هنـاك امتحـان.. أو نروح ونجيء فى الغرفة من غير مناسبة من غير أن تكون لنا قدرة اراديـة على ضبط هذه الحركات والتوقف عنها!..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل.. وإذا ذهبنا إلـى حـديقة الحيـوانات وجدنا الحيوانات منعزلة فى أقفاصها الحديدية.. وهى منعزلة عـن العـالم الواسع. وعن العلاقات الجماعية.. أى عن الاتصال بالحيوانات الأخـرى، فهى فى حالة انسحاب وانزواء، كأنها هربت من الحيـوانات الأخـرى، أو هربت منها الحيوانات الأخرى.

ومن الأفضل أن ننظر لأنفسنا ونحن نقف أمام أقفاص الحيوانات.. أن هذه الأقفاص الحديدية تشبه الموانع النفسية الشديدة التى نحيـط بهـا أنفسنا وننسحب وراءها، وننكمش وننطوى وننقـوقع ونجتـر تجـاربنا ولا نضيف إلى أنفسنا شيئا اجتماعيا جديدا، وإنما نفرز من أنفسـنا نسـيج

دودة القز ونتوارى وراءها.. أو نندفن، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات: أنها تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا.. والانسان يفعل ذلك أيضا فى المعسكرات والسجون والمستشفيات والأقسام الداخلية للمدارس، ونجد القرود تلعب فى أذنيها بأعواد الشجر، ونجد الفيل واقفا فى مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة، وبعض الحيوانات تشد شعرها، أو تعض نفسها أو ترضع ثديها.

وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون النشأة غير السليمة. يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئا فى قفص قرد اعتاد أن ينعزل.. فإن هذا القرد لا يحاول أن يتجه إلى هذا الشىء الذى ألقيناه فى قفصه، ومعنى ذلك أنه لا شىء يثيره أى لا شىء جديد يثيره.. وإذا كان الحيوان لا يلتفت إلى الشىء الجديد، فلن يعرف شيئا.. وإذا كان الانسان لا يثيره الشىء الجديد، فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك أقرب إلى الحيوان.

وإذا ذهبنا إلى حديقة الحيوانات يجب أن نتذكر المدن الانسانية التى نعيش فيها، إنها أيضا مثل حدائق الحيوانات: كل إنسان له قفص، هذا القفص من أعواد حديدية، هذه الأعواد هى الممنوعات النفسية والاجتماعية وهى تحصرنا وتعصرنا..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق إذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان: أحدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد.. والعقل الانسانى قد علمنا أن نتجه إلى الجديد، بخوف.. أو على الاصح

ولكن هناك سلسلة أخرى تشد القرداتى إلى القرد. فهو رجل فى عالم محدود، عالم القرود، ويمشى فى أماكن محدودة. ويعود إلى بيته ويجلس إلى جوار الحائط ولا ينام إلا والقرود إلى جواره وإلا على صوته، ولو قطع القرد السلسلة وهرب لأحس الرجل أن قلبه هو الذى انقطع.. فأى الاثنين هو القرد؟ أيهما هو المربوط بالآخر.. من المؤكد أن القرد هو المربوط فى الرجل، ومن المؤكد أيضا أن هذا الرجل العاقل مربوط من القرد... وبالقرد..

فليست الحيوانات هى وحدها المحبوسة فى أقفاص، وليس الانسان هو الذى يذهب إلى الحديقة ليتفرج على القرود.. إنها أيضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدرى بها!..

فكما أن هذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اسمه «انساناتى»! وكلنا كذلك!!

لولا سلامك !
سبق كلامك !
(٤)

لسببين يعتدى حيوان على آخر: دفاعا عن الأرض التى يعيش عليهـا، أو حرصا على السلطة التى يتمتع بها فى القبيلة أى أنه يدافع عن السلطة أو عن اللقمة.

وهناك حيوانات تدافع عن الأرض ولا تهمها السلطة.. وحيوانات تدافع عن مركزها ولا تهمها الأرض. أما الانسان فإنه يدافع عن الأرض والعرض والسلطة.

وفى جبلاية القرود نجد أن القرد الأقوى هو الذى يسيطر. أما قوته فهى فى عضلاته أو فى حيويته. فإذا كانت حيويته هى مصدر قوته فإنه يعتلـى كل الاناث وكل الذكور أيضا. ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعـامه لغيره من ضعاف الجبلاية!

وكما تطور الانسان فى علاقاته الجنسية فأصبحت له أنثى واحدة، تطور أيضا فى ممتلكاته. فكل واحد له شىء يملكه: أرض أو بيت وقـد وصـل الانسان إلى هذا الوضع منذ كان الأقوياء من الرجال يسـافرون بعيـدا

للصيد. وكانوا يتركون بيوتهم وأولادهم. ولذلك كان لابد أن يتفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوى. وإذا كان القانون يحمى الضعيف من القوى، فكأنه يحمى الأقوياء – وهم أقلية – من الضعفاء وهم الأغلبية الساحقة..

وعندما يشعر الحيوان برغبة فى العدوان فإن تغيرات هائلة تجرى فى داخله. هذه التغيرات هى نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين: قوة تدفعه إلى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه. قوة تقول له تقدم. وقوة أخرى تقول: حاسب!

ومن هذا الصراع فى داخله يتقرر موقف الحيوان.

ولكن عندما يتهيأ الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الأدرنالين فى الدم وتنشط الدورة الدموية كلها.

فالقلب يدق بسرعة. وينسحب الدم من الجلد والأحشاء إلى العضلات والمخ. ويرتفع ضغط الدم. وتزداد الكريات الحمراء. وتصبح للدم خاصية التجلط بسرعة. ويتوقف الهضم. ويجف اللعاب. ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء. ويصعب على الحيوان أن يتبول. ثم أن الكبد تفرز السكر فى الدم. وينشط الجهاز التنفسى. ويقف الشعر ويتبلل بالعرق. وبسرعة السحر يختفى التعب. ويحشد الجسم كل قدراته من أجل البقاء. والدم يندفع إلى الأماكن التى تحتاج إليه. وإلى المخ لكى يتمكن الحيوان من تقدير الموقف. كما أن سرعة التجلط معناها أى جرح سوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا. ونشاط الرئتين معناه أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأكسجين. ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذى يقوم بتبريد

هذا الجسم الملتهب. ولذلك لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التى يصل إليها!

وكلما ارتفعت الحيوانات أصبحت لها عـادات وتقـاليد أو طقـوس فى التهديد. فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحنى. وهذه الحركات تبين كيف استعد الحيوان للمعركة، وهى فى نفس الوقت تخفف من حدة الحيـوان.. وكثيرا ما انتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد!

وإذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال، استعاد جسـمه نشاط العادى.. فريقه يجرى وبوله أيضا!

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات: فالتبول دليل علـى أن هذه المنطقة التى يتبول فيها خاصة به. فهو يترك أثره فيها. والـكلاب عندما ترفع رجلها عند أحد أعمدة النور، فهذا هو المعنـى. وإذا كانـت الكلاب تفعل ذلك باسراف فى المدن، فلأن فى المدن عـددا كبيـرا مـن الكلاب. وهذا يثيرها ويدفعها إلى أن يحدد كل كلب مكانه وأرضه! وقـد اكتسب السيد قشطة عادة أخرى: فله ذيل عريض. وهذا الـذيل يتحـرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على أوسع نطاق ممكن. وبـذلك يحـدد الأرض التى تخصه. وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة.. هـذه الروائح هى انذار لكل الحيوانات الأخرى: هذه أرض تخص حيوانا آخر.. فاحترس!

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عنـد بعض الحيـوانات: النبـاح والعواء والفحيح والزئير.. وأحيانا الانتفاخ: عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها أكبر وشكلها مخيفا!

وهنا إشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر أن هناك خطرا.

وكذلك العرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا أما التغيرات الظاهرة فهى أن عضلات الحيوانات تكون فى غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح ويجىء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس فى الرقص.

رقصة القتال. أو رقصة الحرب.

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر. وحول نفسه. وهذا الدوران معناه أن هناك توازنا بين رغبته فى العدوان وبين رغبته فى الامتناع عن ذلك.. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى رأسه ويدق الأرض بقدميه!

وأحيانا نرى نوعا من التراجع أو المراجعة. ولذلك يقوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان قد وضع «غله فى شىء آخر» فيأكل مثلا أو يهرش فى جسمه.. أو ينظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبنى عشا وهميا.. وبعض الحيوانات تنام فجأة.. وتتثاءب وتتمدد..

بعض العلماء يقول : إن الحيوان إذا أكل فهو جائع حتما. وإذا هرش فإن حشرة تلسعه. ومن الطبيعى أن يجوع الحيوان عندما تتبدد طاقته الهائلة فى حالة التعب أو العدوان!

ولكن هذه الحركات التى يأتيها الحيوان ليست إلا محاولة لتخفيف درجة التوتر. أو ليست إلا نوعا من الانسحاب. وقد ينتهى الموقف هكذا.

وينصرف كل حيوان إلى سبيله.. ولكن إذا فشلت هذه الحركات فى تهـدئة الحيوانات، كأن تكون قطعانا كبيرة. وكأن يكون هناك زحام علـى الأرض والطعام والسيادة. استخدمت الحيوانات أنيابها وأظفارها وقرونها. وذيلهـا يكون كالكرباج.

ولكن من النادر أن يقتل الحيوان حيوانا آخر. ومن النـادر أن يفعـل حيوان ما يفعله مع فريسته. فالأسد إذا التقى بأسد فانه يضربه ويجـرحه ولا يقتله ولا يأكله.. أى أن الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته مـن الغزلان.. فإذا انتصر الأسد القوى على الأسد الضـعيف اكتفـى بهـذا النصر. وتركه. أما المنهزم فعليه أن يؤكد أنه انهزم! وعليه أن يهـرب إذا استطاع.

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات: من بينها أن ينكمش المهـزوم وأن ينام على الأرض ويحنى رأسه ويغمض عينيه ولا يـزأر.. وأحيـانا نجـد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر.. كأن يقدم لـه إحـدى يديه.. وقد ينقض الحيوان المنتصر فيعض يد خصمه.. أو يضربهـا.. أو يكتفى بهذا الاستسلام.

وبين القرود نجد الشمبانزى يمد يده كأنه يتسول.. وخصوصا الانـاث، والاناث تعطى نفسها للذكر. وفى هذه الحالة يتـم الاسـتسلام والسـلام وينحسم الموقف. والذكور الضعاف تفعل ذلك أيضا!

وهذا هو قانون الغابة: الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله. وإذا استسلم له تركه. وانتهى الخلاف..

وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان. مـع فـارق أن كل هـذه الاضطرابات تبدو على وجهه. وهذه مزايا القرد العريان ـ أى.. الانسان.

فوجهه يصفر ويحمر.. من الغضب ومن الخجل. أما شعر الانسان فلا يقف.. رغم اننا نستخدم هذا التعبير!

وعند الغضب تنحنى الذراع وتجتمع أصابع اليد على شكل قبضة وهذا استعداد من بعيد. أو تهديد من بعيد. وأحيانا نضرب المنضدة أو الحائط أو نضرب رءوسنا. ولكن مانزال على مسافة من الخصم.

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب إلى الشخص الذى يخلصنا. ولذلك نقول: ما ينوب المخلص إلا تقطيع هدومه.. والسيدة التى تكسر الأطباق فى حالة غضب مع زوجها، لم تقصد تحطيم هذه الآنية وإنما هى تقصد أن تحطم رأس زوجها! وهذا بالضبط ما تفعله القرود فهى فى حالة الغضب تحطم الاغصان والثمار وجدران القفص!.

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام. فالذى كان فى نيته أن يضرب بيده يجدها مفرودة. وأصابعه متراخية. وهى عملية تحويل الغضب إلى تهدئة.. وهدوء وكذلك «الطبطبة» على الكتف تهدئة أيضا. وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك يخفض «عرفه» والأسد عندما يخفض شعر رأسه.. وخلع البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان أقل طولا، وأقل صلابة.. على خلاف ما يحدث عند العدوان أو القتل. وعند العدوان نبحلق فى الخصم. فإذا أغمضنا العين أو نظرنا إلى الأرض كنا بذلك نهدئ أنفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد فى حاجة إلى الحذر والترقب. ونحن فى حديثنا العادى لا ننظر إلى الذين نتحدث إليهم طوال الوقت، وإنما فقط فى نهاية كل جملة لنعرف وقع الكلام.

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو متربصين أو عدوانيين. ولذلك فالذى ينظر إلينا من وراء منظار يجعلنا نشعر

بأنه ليس وديا.. فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين بلا اجفان ولا رموش!

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات.. أو مثل هذه العيون نجد أن العيون مرسومة على أجنحة الحشرات. فإذا أحست خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة رهيبة تخيف أعداءها!.

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور. ونحن نستخدم الأقنعة ذات العيون. وبعض شركات السيارات تجعل المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة. وهذا ضرورى فى الزحام فى المدن.

بل إن الشركات لم تكتف بهذه «العيون المخيفة» وإنما جعلت للسيارات أسماء مخيفة أيضا؟

ولذلك فالسلام باليد هو إعلان وقف إطلاق النار من العينين وتجىء القبلات بعد السلام.. كما نفعل مع رجال الدين أو الآباء، أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر: فالرغبة العدوانية الجنسية قد تحولت إلى مجرد لمس اليد باليد وبالشفتين - أى الحد الأدنى من تحقيق رغباتنا الخفية!

ومن الغريب أن الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا «طفوليا».. فيتحول الرجل إلى طفل.. أو يقول كلاما مثل كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة. أى أنه يحول نزعاته العدوانية إلى نزاعات استسلامية أو سلامية.. ويتحول الرجل والمرأة إلى أسلوب الحمام. فيشرب الواحد من كوب الآخر.. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر: وهذا نوع من التقبيل!.

والمثل الذى يقول: لولا سلامك سبق كلامك لاكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح.

أما « الطبطبة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القرود أن القرد الـذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه ».. وهذه « التفلية » تهدى أعصابه. وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البـرىء.. وقبـول لهـذا الاقتراب. فلا خوف ولا عدوان !.

وفى مواجهة العدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لهـا مطلقا بالعدوان. مثلا نشعل سيجارة. أو نمسح النظارة. أو نلعب فى شواربنا أو ننظر إلى الساعة أو نحرك عقاربها. أو نرتب الأوراق التـى أمـامنا أو ننظر من النافذة. أو نطلب أى رقم فى التليفون. أو نقضم أظافرنا بأسناننا أو نطقطق أصابعنا..

ونحن قادرون على الكذب بملامحنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أو بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم. وهنـاك انـاس كذابـون محترفون : الممثلون. فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشـاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية.

والانســان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصـة وبيـت خـاص وزوجـة خاصـة. وأن يكون خاصا فى كل مكان يشغله، نجده يضع صورة أولاده على مكتبه أو صورة زوجته. وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من العرائس أو الزينـات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السـيارات الأخرى.. ملايين السيارات الأخرى التى تشبهها. وكذلك السـائق الـذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب أنه يريد أن يجعلهـا مختلفة عن السيارات الأخـرى.. وإذا سـألته لماذا ؟ قـال لك : انها هكذا ألطف وأجمل.

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا. وإنما الصحيح أنه يريد أن يجعلها مختلفة. يريد أن يجعلها خاصة به هو.. ومن الضرورى أن نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على أعمدة النور. نفس الموقف وأن كان الأسلوب مختلفا فكلاهما - كلانا نحن والكلاب - يريد أن يؤكد أنه هنا.. وأن هذا المكان خاص به وحده. وأنه مضطر أن يفعل ذلك فى مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !.

وهنا تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور.. مثلا عندما نكسر إشارات المرور ويدركنا عسكرى المرور فما الذى نفعله؟ الأفضل أن تتحدث إلى عسكرى المرور وأنت فى سيارتك. أى فى مكانك. فى أرضك. فى بيتك. هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة. وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا. سوف يجىء العسكرى إليك. أى إلى حدود مملكتك.. وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى إلى اقتراب ودى. وبذلك تكون أنت وديا وهو أيضا. ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك. ولكن إذا نزلت من سيارتك، أى تركت أرضك. وذهبت إلى أرضه. فالموقف فى يده. وهو سيده.. والنتيجة ضدك عادة!

وقد تطورت وسائل الاقتراب من أرض أعدائنا.. ومن أعدائنا فكان لابد أن يقترب الانسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال، فأصبح فى الامكان قتله عن بعد.. والآن تحولت السهام إلى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لا نصيب العدو وإنما نقتله.. أما الحيوانات فهى تهزم عدوها فقط.

الحب قبل الحرية ..
والحنان قبل الحب !

.. فى ملامسة الناس

(١)

سئل الحكيم الصينى بوذا : قل لنا يا أستاذ ما هـو أكثـر الأشـياء جاذبية ؟

ـ الشر !

ـ وما أبقاها ؟

ـ الخير !

ـ وما أكثر ايلاما للنفس ؟

ـ تأنيب الضمير !

ـ وما هى أعظم سعادة ؟

ـ القناعة !

ـ وما الذى يفسد الصداقة ؟

ـ القرب الشديد والبعد الشديد !

ـ فما الذى يبقى على الصداقة والمودة والمحبة وكل ما يربط الناس بالناس؟

ـ الاعتدال فى ملامسة الناس!

أروع ما قال الحكيم بوذا. فالذى بين الناس هو أنواع مختلفة من اللمس باليد وبالأصابع وبالعين وبالفم.. فالمسافات التى بين الناس تتقارب وتتباعد. وبمقدار الصداقة والعداوة والمحبة والكراهية والأبوة والأخوة والأمومة والزمالة والزواج والطلاق.. بالمداعبة بالضرب بالقتل بالقراءة بالكتابة.. وكلها أنواع من اللمس من قرب أو عن بعد..

فاللمس هو أبو الحواس أو أبو الاحساسات كلها..

ويبدو أن العلم الحديث أصبح يباعد بين الناس ويجعل الاتصال بهم بصورة أخرى. فالناس يتقاربون فى السكن. ولكنهم يتباعدون فى المشاعر. ويتجاورون فى العمل والأمل، ويتباعدون فى كل شىء آخر. ولم تعد هناك العائلة المتشابكة. لم يعد هناك «بيت العائلة». التليفونات جمعت بين الناس. والتلغرافات والسيارات والطائرات والمسارح والملاعب والشوارع. ولكن الناس يتجاورون. ولكنهم لا يتقاربون. أو يتقاربون ولكنهم لا يتلامسون أو يتلامسون ولكنهم لا يتعاطفون.

ونحن نستخدم فى لغتنا العادية كلمات تدل على اللمس بالجسم لأن شيئا غريبا يحدث عندما تلمسنى أو ألمسك. فنحن نقول: هزتنى التجربة. أو شدنى المنظر. أو جرح شعورى. أو دوخنى الفيلم. وكلها تعبيرات تدل على أن شيئا معنويا لمسنا بعنف كأنه شىء مادى.. فاللمس هو الينبوع الحقيقى لكل المشاعر التى نحبها أو التى نكرهها، التى نحرص عليها أو نحرص على التخلص منها.

ولنرجع إلى القاموس :«لمس الشيء معناه» : مسه أو اقترب منه ولمس المرأة أى عاشرها. والضوء يلمس العين : يخطفها. وهذه المرأة لا ترد يد لامس : أى أنها امرأة سهلة. والمرأة اللميس : أى اللينة الناعمة. ويقال، مس الشيء : أى لمسه. والقرآن الكريم يقول : (**أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر**). ويقول أيضا : (**لا يمسه إلا المطهرون**) ويقال : لمص العسل. أى تذوقه بأصبعه : ولمصه : أى راح يقلده ويسخر منه. ويقال : لمظ الماء : تذوقه بطرف لسانه. ويقال لمز أى ضرب. ولمز الشيب رأسه، أى ظهر فيه.

ويقال : قرب وأقرب والقريب والقربى. والقرآن يقول : (**ولا تقربوهن حتى يطهرن**). ويقول (**ولا تقربا هذه الشجرة**).

ويقال : وصل يصل : فى الحب والغرام.. والوصال والوصلة والتوصيلة.. إلخ.

وأصل هذه المعانى كلها أن أحدا يلمسك أو تلمسه بيدك : مصافحا أو مقاتلا، معانقا أو مطاردا. وعلى أساس شكل اللمس باليد تكون معانى هذه العلاقة أو الملامسة بينك وبين الذين حولك.

وفى عصرنا الحديث، وفى العصور التالية، سوف تتباعد المسافات بين الناس. وسوف يتباعد الأطفال عن الأمهات فى سن مبكرة. وقد دخلنا بالفعل فى العصر الذى لا ينام فيه الطفل على صدر الأم ــ الخادمة تكفى. والذى لا يرضع فيه ثدى الأم ــ الزجاجة تكفى. والذى لا تجد فيه الأم وقتا لكى تكون أما ــ مثلا : تهدهد طفلها حتى يكف عن البكاء أو حتى ينام ــ إن عربات كهربية تهتز من تلقاء نفسها وتؤدى نفس العمل. ويجد الطفل كل ما يحتاج إليه ــ إلا شيئا واحدا هو المشاعر!

وأساس اللمس والوصل والقرب يبدأ فى طفولتنا ـ وهذا هو المعنى الهام الخطير جدا الذى يجب أن ندير إليه رؤوسنا وتقع عليه عقولنا. لأن الذى يحدث فى الطفولة يتكرر بعد ذلك بأشكال مختلفة. والصورة التى تنطبع على نفوسنا ونحن صغار لا تفارقنا حتى الموت ـ هذه حقيقة علمية. و«اللمس» يبدأ قبل أن نولد. ويبدأ ونحن فى بطون أمهاتنا. وبطن الأم يحتوينا. ويحمينا. ولولا هذا الاتصال ما كانت حياة. فالجنين فى بطن الأم يشعر بحركة رقيقة حوله. لا يدريها. فالأم فى شهور الحمل الأخيرة حركاتها رقيقة. والجنين فى بطن الأم محاط بمادة مخاطية عازلة. وبمرور الوقت يعتاد الجنين على أصوات وحركات منظمة حوله. هذه الحركات هى ارتفاع صدر الأم عند التنفس إحدى عشرة مرة فى الدقيقة. ويعتاد على دقات قلب الأم ٧٢ مرة فى الدقيقة. وسوف يعتاد الطفل فيما بعد على أن الحركات والدقات هى الحياة نفسها.

ولكن ما الذى يجده الطفل فى بطن أمه؟ إنه يجد البطن كأنه حصن هادئ دافئ. ففى هذا الحضن يعرف الأمان والراحة والاستسلام.

ولكن بطن الأم أو رحم الأم تتحول بعد ذلك إلى عضلات قوية جدا ـ أقوى من عضلات أى رياضى فى الدنيا وهذه حقيقة ـ لكى يدفع بالجنين إلى خارج البطن. وأخطر حدث فى حياة أى جنين هو أن يولد. هو أن يطرد من الحضن الدافئ إلى الخارج. إلى عالم لا يدريه. ولا يقوى على مواجهته وحده. إنه فى حاجة إلى الأم. إلى بديل عن الرحم إلى حضن من نوع جديد. وسوف تكتب لهذا الطفل الحياة إذا أعطته الأم حضنا آخر: هدوءا ودفئا وأمانا وراحة.

وبعد عشرين أو ثلاثين ثانية من ولادة الطفل : فإنه يبكى. وبكاؤه هو الموسيقى الساحرة التى انتظرتها الأم. إنها صرخات كائن عاجز أعمى. أعطته أمه الحياة وسلبته الحنان والدفء فجأة! ويبدو المولود كأنه قطعة من اللحم. وبعد لحظات يبدأ الاحتجاج برجليه ويديه ويصرخ بصورة غير منتظمة. ثم يرهقه الصراخ والبكاء وبعد ذلك يغيب فى نوم عميق طويل!

فإذا صحا الطفل من نومه احتاج إلى عناية جديدة متجددة. إلى لمس مستمر. إلى أحضان إلى تعويض سخى عن الدفء الذى كان فى بطن الأم. وهذه الأحضان معناها : أن تجعل الأم أكبر مساحة من جسمها قريبة من جسم الطفل دون أن تخنق أنفاسه أو تعوق حركته الصغيرة. والأم تعلمت بالغريزة ذلك. وهذا هو الفارق بين الأم والأب عندما يتناوبان حمل الطفل. الأب : يحمله ولكن الأم تحتضنه.. الأب يمسك الابن بعيدا عن جسمه، والأم تلصقه بجسمها.. فالأب يرفعه ولكن الأم تحتويه. المهم ــ دائما ــ أن تخلق الأم لطفلها رحما أو بطنا، خارج الرحم وخارج البطن..

وإذا لم تفلح الأم فى تهدئة الطفل وهو يبكى، فإنها تحمله وتتمشى به فى الغرفة.. أو تهدهده.. أو ترفعه إلى أعلى برفق.. أو تهمهم بالقرب منه كل هذه «اللمسات» أو «الملامسات» لها أثرها على المولود القلق. كأن الأم أعادت المولود إلى الحركات والأحداث التى اعتاد عليها. ولذلك تعلمت الأم بالغريزة أيضا إذا حملت طفلها إلى صدرها أن تجعل رأسه ناحية قلبها. فقد اعتاد على دقات القلب وهو فى بطنها ــ وهذا هو الحضن الحقيقى للطفل!

كل هذه الصرخات وكل هذه المهدئات التى تستخدمها الأم، سوف يكون لها أثر بعد ذلك عندما يكبر الطفل ويصبح رجلا عاشقا أو زوجا أو أبا..

فأرجو ألا ننسى هذه المعاني. فنحن فى حاجة إلى تذكرها ومقارنتها فيما بعد !

وبعض الأمهات يتصورن أن الطفل إذا بكى فهو فى حاجة إلى طعام. فتطعم طفلها. ويظل الطفل يبكى. وبعض الأطباء ينصح الأمهات بأن يتركن الطفل يبكى حتى يتعب.. ويقولون أن البكاء يقوى الحبال الصوتية ويقوى صدره.. وأهم من ذلك أن الطفل يجب أن يتعلم أنه ليس بالبكاء يحصل على ما يريد. وهذا كلام له معنى. ولكن الطفل فى هذه المرحلة يحتاج إلى حب الأم أكثر من حاجته إلى حريته فى أن يطلب ويرفض ويهدد بالبكاء. إن الطفل محتاج إلى حضن الأم. أكثر من حاجته إلى الطعام. أما بعد ذلك بسنوات عندما يكون الطفل قد كبر فمن الواجب أن تعلمه الأم مبادئ السلوك وأن تلقنه أنه ليس بالتهديد أو البكاء يحصل على ما يريد.. أما فى الشهور الأولى للطفل فهو لا يعرف ولا يدرى ـ ولكن حاجته إلى حب الأم أهم من كل شىء آخر..

وبعبارة أدق : أن الحب أولا والحرية ثانيا.. أو بعبارة أفضل : الحب قبل الحرية والحنان قبل الحب.!

بل أننا لو نظرنا إلى القرود لوجدنا صغارها تتعلق بها فترة طويلة. فالقرد الصغير يظل ملتصقا بالأم ولا يتركها أينما ذهبت. وهذا ما لا يستطيعه الطفل الانسانى. أنه عاجز عن أن يفعل ذلك.. بل أنه يحدث فى كثير من الأحيان أن الطفل القرد وهو يولد نجد أن يديه قد أمسكتا بالأم فى نفس الوقت الذى ما يزال نصفه الخلفى فى داخل بطن الأم. ولكن الطفل الانسانى لا يستطيع ذلك إلا بعد شهور من ولادته..

هذه الشهور الأولى بعد الولادة يجب أن يعيش الطفل فيما يشبه بطن الأم. فهو ملفوف بقماش والقماش مشدود عليه. ويجب أن يكون مشدودا حتى يحس الطفل بالحماية والأمان.. وبعد ذلك يجب أن تكون «اللفة» متراخية حتى لا تعوق نمو الطفل أو حركته.. إلى جانب ذلك نجد أن الأم قد بدأت تلامس طفلها بالتقبيل والتدليل والتنظيف والتدليك والدغدغة.. ثم الاستحمام.. كما أنها تربت على ظهر الطفل برفق شديد.. أنها دنيا جديدة من اللمسان لا تنتهى والهمهمات عند أذنيه ـ وكل هذه الاحساسات الجديدة سوف تتكرر طول العمر . وسوف يطلبها الطفل. وإذا فقدها يوما، راح يبحث عن بديل لها عند الأم وغيرها ـ وعند غيرها أكثر!

شيء جديد جدا يدخل دنيا الطفل : حلمة ثدى الأم.. لحم مستدير دافئ يدخل فى فمه. وبالضغط عليه ينزل سائل أبيض حلو المذاق. سوف يعتاد عليه الطفل. ويطلبه . لأنه يملأ الطفل باحساسات لا نهاية لها. ومن هذه التجربة الجديدة تتولد منها عشرات المعانى والمواقف المعقدة المتداخلة بعد ذلك.

والعلماء ينظرون إلى ثدى الأم على أنه مصدر الرحمة والوحشية فى هذه الدنيا ـ والطفل الذى حرم ثدى الأم، فقد حرم الكثير.. والتاريخ يعرض لنا نماذج من وحوش البشرية لم يعرفوا إلا صدر الأم ولا أحضانها ولا حنانها ولا لبنها ـ وهذا المعنى يجب ألا يغيب عنا منذ الآن.

وفى هذه المرحلة ليس للطفل إلا أن يرضع وينام، ويصحو ليرضع وينام، والأم عليها أن تلاحقه باللمسات والاهتزازات والهمهمات حوله وفى أذنيه.. وبعد ذلك ينام..

وعندما يبكى الطفل فمعنى ذلك أنه يطلب إلى أمه أن تجىء إليه. وإذا ابتسم الطفل فمعنى ذلك أنه يطلب إليها أن تبقى إلى جواره.

كثير من الحيوانات لا تبكى ولا تبتسم. فالقرود مثلا لا تبكى على الأم لأنها ملتصقة بها دائما. ولا تبتسم لأنها ليست فى حاجة إلى أن تطلب إلى الأم أن تبقى إلى جوارها. لأن القرد الصغير ملتصق بأمه طول الوقت. فهى موجودة. ولذلك لا يبكى على فراقها، ولا يفرح بمجيئها إليه فهى هناك دائما.

والابتسام هو أولى الحيل التى يلجأ إليها الطفل لكى تبقى أمه إلى جواره. سعيدة بأنه فى حاجة إليها. وسعيدة أكثر لهذا التعبير الجديد.. الذى تطلب منه المزيد .. والطفل يعطيها ما تريد من الابتسام..

والطفل عادة يصرخ دون أن يبكى. وإذا بكى فبلا دموع. وبعد ذلك تجىء الدموع وتجىء الأم لتمسح الدموع، كما تمسح بقية الجسم. وفى عملية مسح الدموع على الخد تدليك ولمس ودغدغة ومداعبة ترضى الطفل. وبعد ذلك عندما يكبر فإنه يدمع دون أن يبكى!

وعندما يصبح الطفل فى الشهر الثالث من العمر فإنه يتعلم أن يمد يديه.. وأن يربط بين الذى يراه وبين الذى يلمسه.. ويلمس الأم.. وفى الشهر الخامس يستطيع أن يمسك أى شىء بما فى ذلك شعر الأم.

وبمرور الوقت يزداد تلامس الأم والطفل، بالرؤية وبالحركة والتعبير.

وعندما يكون الطفل فى الثالثة من عمره يستطيع أن يكون على صلة بكل من حوله.. فهو قادر على الكلام. عنده ألفاظ وعبارات. وعنده رغبة فى أن يعرف أكثر. ويحاول هو مع الجميع أن يتوافقوا. وأن يتفقوا ولا تزال

الأحضان والقبلات والمداعبات مستمرة.. وأن كانت بأشكال مختلفة. وينشغل الطفل بالأشياء التى يلعب بها.. كلها ملونة ومن مواد لينة مثل لحم الأم.

وهو يحاول أن يجد البديل المستمر عن حضن الأم. وعن الأم نفسها.. ولكنه ما يزال فى حاجة إلى الأم. صحيح أن الحضن قد اتسعت أطرافه وأصبح أقل ليونة وأقل مرونة.. وأقل حرارة. وأقل أمانا.. ولكن لابد أن يكون هناك حضن بشكل ما.

وفى سن المراهقة، وهى مرحلة دقيقة حرجة. لا يزال اللمس والاتصال والاقتراب موجودا بين المراهق وأمه. ولكن المسافة تباعدت. فهو دائما موضع نظر أو تحت النظر أو تحت المراقبة ـ أى أن أمه تلمسه من بعيد. ولكنها تلمسه بشكل ما وهو يريد أن يهرب من هذه الملاحقة بالعين والأذن واليد. يريد أن يتحرك دون لمس من أحد. وربما كانت الفتيات أكثر تأثرا بمرحلة المراهقة. فتلاحظ الأم أن ابنتها أصبحت أقل مرحا. وأكثر سرحانا. ولا تحب أن تشارك أحدا. أو يشاطرها أحد شيئا. إنها دائما وحدها. وتريد أن تكون وحدها وتشعر الفتاة وكذلك الفتى أنه وحيد.. وأنه غريب عن أسرته. وأن أحدا لا يحبه. أو يعطف عليه. أو يفهمه.. أما الأحضان فقد اختفت. أما القبلات فهى مجرد لمس للخدود.. أو شىء يشبه نقرات العصافير على الزجاج.

لم يعد هناك ذلك اللمس المباشر. لم يعد هناك ذلك الحضن الذى يحتوى ويعطى الأمن والراحة والدفء.. ولكن هناك محاولات غير مباشرة للمس. فتقول الأم لابنتها مثلا ـ تعالى أشد لك السوستة..

أو تقول للابن: تعال أربط لك الكرافته..

إنها حيل من الأم لكى تلمس ابنها.. أو ابنتها.. لكى تكون على صلة بهما.. لكى تكون على مقربة منهما.. وفى بعض الأحيان يكشف الابن أو الابنة هذه الحيلة فيقول الابن: شكرا.. أربطها وحدى.. أو تقول الابنة للخادمة: تعالى يا فاطمة ـ وتنادى خادمتها لتشد السوستة بدلا من الأم!

وتقول الأم: أن أحدا منهما لا يطيق يدى.. أنا التى حملت وولدت، وارضعت، وغسلت وداويت وسهرت وبكيت!

وكل ما تقوله الأم صحيح. لولا أن الطفل كبر ويريد أن يستقل بشىء آخر: يريد أن تكون له لمسات من نوع آخر عند شخص آخر.. أن يكون له دفء جديد.. وأحضان مثيرة!

وعندما يحب الطفل الذى كبر، فإنه يتحول إلى طفل مرة أخرى.. فالحب هو الذى يجعل الرجل طفلا. فهو لا يشبع من اللمسات.. والقبلات والأحضان ـ ونجد بين المحبين من يقول للآخر: يا قطتى.. يا كتكوتى.. يا نونوسى ـ وكلها كلمات كانت تقولها الأم للطفل وهو صغير. ولكن الحب هو الطفولة الثانية للرجل وللمرأة، وليست الشيخوخة فالشيخوخة هى الطفولة إذا كنا نتحدث عن عجز الطفل عن أن يكون مستقل الحركة. ولكن الحب هو الطفولة الثانية، ففيها كل شىء: القوة والرغبة والضعف والاحتجاج وفيها يتحول الرجل إلى ابن وتتحول المرأة إلى أم.. وتتحول المرأة إلى ابنة ويتحول الرجل إلى أب أو أم.. فكلاهما ابن للآخر.. وكلاهما محتاج إلى حضن الأم وبطن الأم..

إن كل شىء يبدأ بلمسة يد.. وتجىء بعد ذلك ملايين اللمسات التى تأكل المسافة بين الناس.. ويحب الرجل زوجته أكثر من أمه.. ويحب

عشيقته أكثر من زوجته.. وفى نفس الوقت.. يشكو الرجل من أن شيئا قــد راح منه: كرامته.. هيبته.. قيمته.. وزنه..

يقول شاعر إيران سعدى أن رجلا أحب فتاة جميلة جدا. ولكن لســـانها طويل جدا. وكان يقول للشاعر سعدى:

لو كان لسانها أقصر قليلا!

فقال سعدى: عندما يكون هناك حب ، لا يكون هناك سيد وخادمة!

كل شيء يدعوك
إلى أن تقترب
(٢)

أنت لا تستطيع أن ترفع عينيك عن طفل صغير. ولا أن تمسك يدك عن لمسه. انه هناك ضعيف. وجهه برىء. وعيناه واسعتان. وذراعاه الصغيرتان تحاولان أن تصلا إليك. ثم أن جسمه ينتفض. أنه من أوله لآخره يـدعوك لأن تفعل شيئا. أو أنه يستضيفك عليه.. على الاقتراب منه. على لمسـه. على مداعبته. على تدليله. فالطفل الصغير: دعوة صريحة مفتـوحة لـكل إنسان أن يقترب منه وأن يداعبه.. أو يساعده على شيء.

وإذا كبر الطفل عشر سنوات وراح يضحك أو يصرخ فإن الناس يترددون أو يتحفظون فى الاقتراب منه.. وإذا كبر عشر سنوات أخرى، أصبح الحذر شيئا ضروريا.

وكل إنسان فى كل سن يقول لمن حوله شيئا. وكلما نضج الانسان أصبح الاقتراب منه خطرا، ولكنه لا يتوقف عن الاشارة وعن الـكلام الملفـوف والكلام الصريح. فهو حريص على أن يلفت الأنظار إلى نفسه.. وإلى أنـه نضج: وإلى أنه يريد أن يقترب وأن يلمس وأن يمد يديه وأن تمتد إليـه

الأيدى. وهو يؤكد بأساليب متعددة أنه قادر على كل مـا يـدور فى رأس الذين حوله. وكيف؟ فلننظر إلى ملابس الرجال والنساء. والانسـان قـد اخترع الملابس لأربعة أسباب: أولا ـ ليواجه بها الحرارة والبرودة. وثانيا ـ ليبين للناس مركزه الاجتماعى. وثالثا ـ ليخفى بها المنـاطق المثيـرة والمحرمة من جسمه. رابعا ـ وليكشف هذه المناطق ويبرزها ويلهب الرغبة إليها ويشعل النار فى الخيال بحثا عنها وتقربا إليها وهذا هو أخطر هـذه المعانى كلها! مثلا: مقدمة الجسم. وهى أكثر المناطق اختفاء وأعمقهـا. وهى مركز الممنوعات والمحرمات وعلى الرغم من اختفائها فإن الانسـان حريص على أن يبرزها. ولذلك نجد أن الرجال فى العصور الـوسطى قـد استخدموا البنطلونات الضيقة. ووضعوا فى مقدمتها «حشوا» من القـطيفة أو الفراء. ثم إنهم وضعوا لها زركشة حمـراء وذهبيـة. وبـالغوا فى ذلك والمعنى مفهوم. والمرأة قد ارتدت البنطلونات الضيقة والشورت والمايوه.. وجعلتها ملتصقة كان الالتصاق دعوة إلى الرجل أن يفعل ذلك. وليس على الرجل إلا أن ينظر بخبث ليعرف ما هو المقصـود. وفى العشريـن عـاما الأخيرة ضاقت البنطلونات للجميع وقال الرجل ما تقوله المرأة. ولم يعـد أحد فى حاجة إلى أن يسأل. وإنما يكفى أن ينظر والمرأة عليها أن تنظر. والرجل عليه أن يحاول. ليفوز الاثنان فى النهاية. ولا يهم من الـذى فـاز بالثانى. المهم أن الفوز هو النهاية الحارة للاثنين معا..

وكثيرا ما يجد الشاب متعة فى أن يتفرج على مجمـوعة مـن الصـور قدمتها له فتاة والصور كلها فى المعمورة أو المنتزه. ويجد الفتاة تتحـدث عن الذى يسكن إلى جوارها أو تحدثه عن العربات الواقفة على الشاطىء. وقد يكون الشاب ساذجا لدرجة أن يسأل عن أصحاب هذه الكبائن ومـن أولادهم ـ كمظهر من مظاهر الغيرة عليها وينسى المصيدة المنصوبة لـه:

فالفتاة أثارت الغيرة ولكن الأهم من ذلك أنها عرضت عليه صورها بالمايوه. ليرى أبعد وأعمق ـ فهذا هو المطلوب. ولكن الفتاة شاءت أن تقدم الساقين فى حريق من الغيرة عليها والتمسك بها..

وشفنا المرأة تقولان الكثير. وهى حريصة على أن تضع الكلام الصامت على شفتيها فمن المعروف أن الشفتين عند الاثارة الجنسية تمتلئان بالدم وتنتفخان وتصبحان أكثر ليونة وحرارة. ولذلك فالمرأة تضع الأحمر على الشفتين. وهذا اللون يجعلها أكثر تضخما. أى أكثر دعوة للرجل. أى أن المرأة تريد أن تقول له: إنها بالفعل قد أثيرت. وأنه لم يبق أمام الرجل إلا القليل، فعليه أن يحاول..

فلتلوين الشفتين ورسمهما ليسا إلا كلاما صارخا بارزا، وليس إلا استعداء للرجل عليها. ومن الغريب أن المرأة تدعو الرجل وتصده. تناديه وتتظاهر بأنها لم تسمع أو بأنها لم تطلب من أحد شيئا ـ وهذا بالضبط ما تفعله فى شفتيها وفى غير شفتيها أيضا..

وهناك مواطن أخرى للنداء والاستدعاء والاستعداء أيضا. فالمرأة عندما ترتدى المايوه من قطعتين فانها تكشف عن بطنها. وعن سرتها أيضا. وإذا كان مسموحا للمرأة أن تكشف عن هذا الجزء على شواطئ البحر فى الصيف. فإنها لا تفعل ذلك فى أى مكان آخر. فقط فى الهند تجد المرأة تكشف وسطها كله. والذين يشاهدون الهنديات فى الزمالك وفى شارعى سليمان باشا وقصر النيل يجدون أن المرأة قد عرت ـ وسطها وكشفت سرتها. ولكن الراقصات يغطين هذا الجزء بقماش شفاف. لأنه لا يصح للمرأة أن تكشف عن التجويف المستدير عند المرأة الممتلئة والمستطيل عند المرأة النحيلة.

وبهذه المناسبة أبدى أسفى على كاتبنا الكبير يحيى حقى الذى دخل التاريخ العالمى لأنه هو الذى أصدر قرارا بأن تغطى الراقصة هذه المنطقة. وبذلك لا يكون الرقص «شرعيا» إلا إذا غطت المرأة بطنها. وكثيرا ما وضعت الراقصة الورود فى هذا الجزء من بطنها. أى أنها غطته، ولم تغطه. أى أنها أخفته وأبرزته فى نفس الوقت. ثم جعلت الغطاء كأنه ليس غطاء.. وفى ذلك كلام كثير يفهمه الرجل. أو يدعى أنه فهمه. فإذا كان الرجل مخمورا، وهو غالبا كذلك، فإنه يرى ويتوهم ما يحلو له. وكل هذا مقصود!

وهناك الأرداف أيضا. وأنثى الانسان هى الوحيدة بين كل الاناث التى تتميز بهذين الردفين. وهما كتلتان من الدهن الناعم مستديرتان.. ومن المعروف أن ـ إناث الحيوانات الأخرى تظهر البروز فى مؤخرتها ومقدمتها فى مواسم الاخصاب فقط. ولكن الانسان ليس له مواسم للاخصاب، لذلك استدارت وانتفخت أماكن كثيرة فى جسمه على مدار السنة والمرأة تعلم أن استدارة الردفين وفى نفس الوقت ليونتهما واهتزازهما يثير الرجل. وقد ساعدتها الملابس والكورسيهات على ذلك كثيرا.

ولا نجد إلا عند قبائل البوشمان فى جنوب أفريقيا هذه الأرداف الممتلئة الثقيلة بل أن هذه القبائل حريصة على تأكيد وجودها. ولذلك تجد المرأة إذا مشت فإنها تتعمد أن تنحى إلى الأمام لتزداد أردافها بروزا.. وفى أوروبا وفى العصور القديمة وجدنا لوحات لنساء لهن أرداف ثقيلة. وهذا غريب. وربما كانت هذه أحلام يقظة بعض الفنانين الذين كانوا يشتهون هذه الأنوثة الصارخة، فلما لم يجدوها خلقوها على الجدران!

وفى العصور الحديثة أصبحت الأرداف على النحو الذى نراه على الشاشة: صغيرة مشدودة. وعلى جدران المعابد الفرعونية القديمة نجد

راقصات ليست لهن أرداف. ولكن فى نحافة راقصات اليوم. وحتى فينوس أشهر جميلة فى التاريخ، لو عاشت حتى اليوم فإن خط ردفها لن يزيد عن ٢٨ بوصة.

ومنذ وقت بعيد ونحن نعرف الأرداف الصناعية. أى اضافة «حشو» من القماش والقطيفة وأحيانا من الجلد لتعويض المرأة عما فقدته من الدهن. وعندما اتسعت الفساتين سنة ١٨٧٠ لم يعد من الضرورى أن تكون للمرأة أرداف صغيرة أو كبيرة فالفساتين قد انتفخت واستدارت وأخفت ما تحتها، ولذلك اتجهت العيون إلى أماكن أخرى للنداء الجنسى فى جسم المرأة ـ لأنه لابد أن تكون هناك ميكروفونات تصرخ فى مكان ما!

ننتقل بعد ذلك إلى الساقين. وهذا الانتقال ضرورى. فمنذ أقدم العصور أهتم الرجال بجمال ساقى المرأة. وهى تعرف ذلك. ولذلك فالمناورة والمداورة بينهما لا تنتهى. وهو يريد أن يرى وهى تخفى وتظهر وهناك ألف حيلة. واهتمام الرجل بالساقين سببه أن الساقين طريقان إلى الأماكن المحرمة. إلى المنطقة الحرام. ولاتزال الساق الجميلة هى: الممدودة الناعمة اللينة. ولذلك تحرص المرأة على أن تكشف الساق وأن تغطيها. فيقصر الفستان ولكنها تغطى الساق بجورب طويل.. وإذا جعلت الجورب شفافا فإنها ترتدى تحت الجورب جوربا أخر. والمرأة استخدمت الكعب العالى ليجعل ساقها أطول. وإذا جلست المرأة فإنها تضع ساقا على ساق، وهذا من شأنه أن يسحب فستانها إلى الوراء قليلا، فيبدو جزء آخر من الساق. وتنتهز المرأة هذه الفرصة لتسحب فستانها إلى الأمام قليلا. ثم تضغطه على ساقيها فتبرزهما أكثر والمرأة أصبحت الآن كالعمارات الجديدة، مداخلها جميلة فقط.

ومع السيقان اهتم الرجل بقدم المرأة. فالمرأة تحشر قدمها فى حذاء ضيق. وهذا يشوه قدميها. ولكن الجمال فى القدم الصغيرة. وفى الصين يضعون قدم الفتاة فى نعل من الحديد وقصة سندريلا معناها أن أخوات سندريلا كانت لهن أقدام كبيرة ولكن سندريلا لها قدم صغيرة. ولذلك تزوجها الأمير.

والأم تنصح ابنتها بأنها إذا جلست فيجب ألا تفتح ساقيها. عيب. وإذا وقفت ألا تفعل ذلك أيضا. ولكن عندما ارتدت الفتاة بنطلونا أصبح فى إمكانها أن تجلس كما يجلس الرجل تماما.. وارتداء البنطلون الضيق أعطى المرأة شيئا من الحرية ومن التحدى أيضا. فلم يعد محرما عليها أن تفتح ساقيها عند الجلوس وفى نفس الوقت تعرض جسمها وكأنها لا تقصد ذلك! تماما كما تفعل فتاة وهى تقاومك أن تمر بشفتيها على خدك، أو تضربك بصدرها أو تتساقط عليك.. فهى تفعل ما لا تريد وهى تريد ما لا تفعل!

نعود مرة أخرى إلى انبطن بصفة عامة..

فاما أن يكون البطن مشدودا وميالا إلى الانخفاض قليلا، وهذا واضح عند الشبان الأصحاء. أو يكون للانسان كرش، وهذا واضح عند الأطفال الجياع والرجال الذين يأكلون كثيرا. ويكفى أن ننظر إلى رجل فوجئ باقتراب فتاة جميلة أنه بسرعة «يشفط» بطنه. ومعنى ذلك أنه يعلم أن الكرش عيب وأن عضلاته قد ارتخت وأن الشباب هو الكرش المشدود والعضلات القوية. ومعنى ذلك أن الكرش دليل على الكسل وعلى البلادة. ولكن الرجال استطاعوا أن يواجهوا هذا الكرش بالعقاقير فهم يعيشون

على ريجيم. والريجيم يجعلهم أكثر نحافة.. ويتعاطون الفيتامينات، وهـى مقويات طبية.

ولابد من أن يكون هناك سبب وجيه لظهور راقصات كشفن البطن وهزه بعد ذلك.

لابد أن يكون ذلك قد ظهر فى «حريم السلطان» ولابـد أن يـكون ذلك السلطان قد تجاوز الخمسين. لأن الرجل حيويته تبلغ مداها عند الخمسين ثم تهبط بعد ذلك. وأى إنسان يعيش بعد الخمسين فهو يعيش فى الـوقت الاضافى وهو إنسان عنده مال وعنده مركز ولذلك فهو غيـر قـادر علـى الصيد. وإنما الفريسة يجب أن تجىء عند قدميه: بفلوسه ومركزه. وعليها هى أن تقوم بفتح شهيته بالقوة. ولذلك فرقصة هز البطن هى دعوة مقبولة لاثارة الرجل فهى تشير إلى كل شىء. وتطبقه أمام عينيه. وليس الـرقص الشرقى إلا إشارات وتعبيرات وتطبيقات مهذبة لرغبات غيـر مهـذبة وكأن الراقصة الشرقية تقول: إن كنت قد نسيت فاننى أذكرك. وأن كنـت غيـر قادر فأنا أقدر منك عليك وعلى غيرك. وفى حريم السـلطان كان السـلطان عاجزا عن الكثير، وكان يكتفى بالفرجة على الكثيرين والكثيرات..

وهناك منطقة أخرى للنداء هى: الخصر ومنذ أقدم العصـور والمـرأة حريصة على أن تجعل خصرها يبدو ضيقا أو صغيرا. تكاد تمسكه بيـديك «فتتكسر» المرأة.. والمرأة تلجأ إلى طريقتين لكى تجعل خصرها صغيرا. أما بأن تلف حوله حزاما مشدودا أو بأن تجعل نهديها وردفيها أكثر بروزا. وبذلك يبدو الخصر غائرا. وفى القرن الماضى فى أوروبـا كانـوا يقـولون أن عمر الفتاة يجب أن تعرفه من خط استدارة خصرها فـإذا كانـت فى

الثامنة عشرة وجب أن يكون خصرها ١٨ بوصة وهكذا وتعـذبت المـرأة ومرضت وشوهت بطنها وصدرها ورئتيها لذلك.

وكان خصر ملكات جمال العالم ٢٤ بوصة، أما خط الـردفين فهـو ٣٣ بوصة وخط النهدين فهو ٣٠,٥ بوصة.أما ملكة جمال العالم هـذا العـام فخط الصدر: ٣٦ بوصة وخط الخصر ٢٤ بوصة وخط الردفين ٣٦ بـوصة والردفان أكبر من النهدين ببوصتين عادة. ولكن القاعدة يبدو أنها سـوف تتغير قليلا، فسوف يكون النهدان أكبر من الردفين ببوصتين.

ويبدو أن مناطق الاثارة لها استدارة الردفين أيضـا، مثـل النهـدين والكتفين والركبتين والكعبين. فالعين تتجه إلى الأماكن المستديرة الممتلئة الناعمة اللينة.

ونهدا المرأة ليس لهما نظير عند إناث الحيـوانات الأخـرى. فهمـا مستديران ممتلئان حتى فى غير أوقات الرضاعة والولادة. وهاتان الـكرتان فى صدر المرأة تعطيانها قوة وشخصية.. كأنها تحمل سلاحا مستعدا وهى تتباهى بذلك. ويمكن أن تعرف ما تعانيه المرأة التى ليس لها صدر أنها تحار كيف تبرز القليل الضئيل الذى عندها. أنها ترتدى السوتيان الـكبير المبطن بالجلد. أو أنها تلجأ إلى الطبيب لاجراء عمليات جراحية.. تـؤدى إلى نفخ الصدر وحشوه بمواد كيميائية.

وفى القرن الماضى كانوا يضغطون على الصدر حتى يصـبح مسـطحا. وليس ذلك دليلا على عدم الاهتمام بالنهدين. ولكن على شدة الاهتمام به والخوف من أثاره على أعصاب الرجال واخلاقياتهم.

والمرأة حريصة على أن دفع نهديها إلى الأمام وعلى تضييق المسـافة بينهما بشكل بارز، وعلى كشف البلوزة أو الفسـتان السـواريه.. وبـذلك

تتعاون المرأة مع الترزى مع القماش على خلق تمثال من اللحم اللين البارز لخطف عين الرجل ولا تردها بعد ذلك!

وعندما تشيع موضة الفتيات الصغيرات على الشاشة وفى المجلات، تصبح النهود الصغيرة هى الأجمل. وعندما تشيع موضة الأنثى الناضجة فإن النهود الكبيرة هى الأروع وعندما تشيع موضة الأمومة، فإن النهود المتدلية هى التى تهم الرجل. وإن كانت النهود الصغيرة لا تدل على فهم سليم للانوثة. ولذلك شاع الشذوذ الجنسى بين الرجال، فى كل العصور التى لا يهتمون فيها بالنهود الأكثر استدارة وامتلاء وبروزا وقد كتب أديب فرنسى سيمون دى بوفوار عن شذوذ الرجل الفرنسى الذى أحب طفلة مثل بريجيت باردو فلا هى شاب ولا هى شابة.. وإنما مثل توت عنخ آمون وسط بين الرجولة والأنوثة. وهذا دليل على أن ذوق الرجل قد فسد، فلم يعد الحب الأنثى، لأنه لم يعد رجلا!

ومن المعروف أن ٢٨ (فى المائة) من جسم المرأة يتكون من الدهن و١٢ (فى المائة) من جسم الرجل من الدهن. وحاجة المرأة إلى الدهن أكثر. وحاجة الرجل إلى الدهن أقل. ويتوزع الدهن فى جسم المرأة فى أماكن كثيرة النداء وصارخة الدعوات للرجل أن يقترب وأن يلمس ــ وكل شىء بحساب!

ولابد أن تكون «بشرة» المرأة لها دلالة مثيرة. وبشرة المرأة أكثر ليونة ونعومة ولذلك تحرص المرأة على أن يكون ملمسها ناعما ولونها لامعا ورائحتها جميلة. وكلها نداءات كنداءات الورد إلى الفرش والطيور أو تقترب.. والمرأة حريصة أيضا على أن تزيل من بشرتها كل ما يجعلها خشنة ــ مثل الشعر. وأن تضع الصابون والزيوت والعطور فى كل مكان..

والذين يصنعون الصابون والشامبو يعرفون ذلك. فهناك مثلا : صابون الحب.. وشامبو الغرام.. وعطر النشوة.. الخ.

ومنذ أقدم العصور كانت الملكات يصنعن حمامات من الزيوت أو من اللبن الساخن وكان من المألوف في الحروب أن تجد عددا من الحمير - انثى الحمير واسمها الاتان في مؤخرة الجيوش. لماذا؟ لأن عشيقة القائد - غالبا - أو زوجته - نادرا - ترافقه وهى في حاجة إلى حمام من لبن الحمير الساخن.. وكذلك كانت تفعل بلقيس ملكة سبأ عندما ذهبت للقاء الملك سليمان.. جعلت لنفسها ستة حمامات ثلاثة من لبن الحمير والثلاثة الأخرى من الزيوت والعطور وكانت تخرج من الواحد وتدخل في الذى يليه.. وكانت هذه النعومة في بشرتها تجعلها قادرة على الهرب من أحضان عشاقها.. فكانت هذه النعومة تعطيها الاثارة والدعوة إلى المطاردة!

ولابد أن ظهور موضة الفساتين التى تشبه قمصان النوم - الامبير مثلا - أى في عصر امبراطورية نابليون كان الغرض منه أن تكشف المرأة عن استدارة الكتفين.. وأصبحت الموضة : تقبيل المرأة في كتفيها بالقرب من عنقها ومن وجنتيها وشفتيها.. أنها خطوة إلى الأمام. وكان من التعبيرات المألوفة في ذلك الوقت أن يقال : أنه أى العاشق - لم يصل إلى لمس كتفيها.

ليس بعد! وفي نفس الوقت غطى الرجل كتفيه. بل أنه شد الكتفين بالبطانة والحشو مما جعل الكتفين عريضتين قويتين. واتجهت المرأة إلى التعرية الكاملة للكتفين وجانب من الذراعين والابطين. وتعمدت المرأة في الحفلات العامة إذا مدت يدها بالسلام والتحية، أن تجعل الرجل يفيق عن بعد.. وبذلك تمد ذراعها.. وتكشف ما تحت الذراع.. وكان الرجال

لا يصافحون المرأة وهم واقفون أمامها وإنما إلى جوارها قليلا لكى تقع العين على الكتف وعلى الابط فى نفس الوقت.

وكذلك الوجنتان.. أنثى الانسان هى الوحيدة التى لها وجنتان. مستديرتان وهاتان الوجنتان تتلونان طبيعيا وصناعيا. وفى سوق الحريم كانت الفتاة التى يحمر وجهها خجلا هى الأغلى ثمنا. ولم يعد هذا ضروريا الآن. فقد جاءت الكيمياء تريح المرأة من الخجل والوجل. فكلاهما صناعى. ولم يعد الرجل يبحث عن شىء من ذلك فقد استعانت المرأة بالعلم الحديث كله لتخفى ما تريد وتظهر ما تريد.. ويحار الرجل فى كل ذلك!

أما العينان فهما أقوى وسائل التعبير عند الانسان. وأقدر الناس فى التعبير عن معانى النظرات هو الشاعر ابن حزم الاندلسى فى كتابه «طوق الحمامة».. فعن طريق العينين تقول المرأة ولا تقول. تدعو وترفض وتستسلم وتقاوم. وتطرد.. والمرأة استطاعت بالألوان أن تجعل للعين ألف معنى.. وأن تجعلها أكبر وأكثر لمعانا، وأكثر تخويفا وترغيبا.. والرجل عندما يريد أن يعرف ما الذى تريده المرأة فانه ينظر إلى عينها. أى ينظر إلى مخزن ذخيرتها وغرفة عملياتها ومركز مخابراتها ومحطة إذاعتها.. ومنذ سنة ١٩٦٠ استطاعت المرأة أن «ترسم» عينيها على النحو الذى يريد. بل أن هناك كتبا تقول للمرأة: إذا كنت على موعد غرام، وكان حبيبك صعبا فارسمى عينيك على النحو التالى. ويصف لها الكتاب كيف ترسم العينين الغائرتين.. ويقول لها الكتاب: لا تعامليه بلا عيون مرسومة.. لا تقابليه بلا عيون مرسومة.. رجعة.. بل بدموع جاهزة للهبوط فى أى وقت.. يقول لها الكتاب: إذا كان لقاء اليوم هو لقاء وداع.. سوف تعطينه

خطاباته ويعطيك خطاباتك.. إذا كانت هذه الليلة لتبادل الأسرى.. فاجعليها ليلة قاسية عليه جدا.. ليلة تشعل النار فيها فلا تتركيه إلا رمـادا.. أنـت وبعدك الطوفان.. كونى مثل شمشون الجبار واجعليها رمادا عليـك وعلـى أعدائك.. ولكن لا تفقدى الأمل لحظة واحدة.. ابحثى عن أجمل فسـاتينك واختارى أهدأ ألوانك.. لا تستخدمى الألوان الصارخة.. فهى لا تتفق مـع مزاجك.. ولكن استخدمى ألوان العين الهادئة الناعسة.. كأنك حزينة على هذا الفراق. ولكنه الحزن الأنيق.. والوداع المليء بالجمال. اجعلى هـذه الليلة قاسية عليه.. اجعليه يتذكر طول الوقت أنه سوف يترك هذا الجمـال لغيره.. واجعلى عينيك نائمتين. واجعلى صوتك هامسا.. واجعلى نـظرتك غير مركزة عليه.. كأنك تتذكرين كل ما كان معه.. أما النهاية فهى معروفة مقدما لن يتركك.. أنه ــ ككل رجل ــ وقع فى المصيدة. وليسـت المـرأة إلا مصيدة جميلة للرجل. وليست العين إلا نافذة النفس. وأما نفس المرأة فهى العذاب الأبدى لكل الرجال فى كل العصور. انهم يحاولون فهمها. ولكن المرأة قد فهمت حقيقتها وهى أن تكون جميلة وهذا يكفيها عـذابا ولـذة وانتصارا على الرجل فى النهاية :

وظهرت الرموش الصناعية فى سنة ١٩٦٠.. وأضافت هـذه الـرموش أسلحة أخرى إلى العين !..

والحاجبان.. وبعض العلماء يرى أن الحاجبين قد ظهرا فى وجه الانسان ليمنعا العرق من النزول من الرأس إلى العين.

ولكن من المؤكد أنهما إضافة إلى جمال العينين..

وابتداء من سنة ١٩٣٠ أصبحت المرأة تجعلهما نحيفيـن. بـل أنهـا ترسمهما بالقلم.

والعروس اليابانية حاجبيها فى ليلة الزفاف. (وفى سنة ١٩٣٣ شهدت الصحف البريطانية حادثا عجيبا. فقد تقدمت فتاة لتعمل ممرضة فى أحد المستشفيات وقبلت الفتاة ولكن اشترطوا عليها ألا «ترسم» حاجبيها وأن تتركهما على طبيعتهما.. ورفضت الفتاة.. واحتكمت إلى القضاء. وحكم لها القضاء. ولكن المستشفى رفضتها).

وشعر المرأة له سحره عند الرجل. ومن الملاحظ أن المرأة قد احتفظت بشعرها متوسط الطول فى كل العصور. ولكن الرجل هو الذى أطاله ثم قصره. ثم عاد يطيله الآن. بل أن القضاة الانجليز يضعون الشعر المستعار الذى وضعته الملكة حتشبسوت من ألوف السنين، ليكون لهم الوقار المطلوب.

وعندما أخذت المرأة تستخدم شعرها المستعار.. لم يعد الرجل ينظر إلى شعرها ويتغزل فيه. فهو يعرف طبيعة هذا الشعر، وإنما راح يبدى إعجابه بتكويناته ــ أى أصبح يعجب بالحلاق ! ويعجب بمجموعة الألوان والخطوط فى الوجه وحول الوجه والرأس..

وبعد ذلك يجىء «كعب» المرأة. وليس هذا شيئا مألوفا أو معروفا فى البلاد الأوربية الباردة : موضع من مواضيع الجمال فى الشرق الحار.. ولذلك عمدت المرأة إلى أن تكشف عن كعبها بجعل الفستان أقصر.. أو بوضع الحناء على الكعب فيكون له لون اليدين أو لون الورد أو لون الدم.. والكعب له استدارة الكتفين والنهدين والردفين والخدين..

والمرأة الريفية تعرف أن كعبها يدل عليها..

والفرق بين ست البيت والعاملة هو أن واحدة منهما تمشى حافية والأخرى نظيفة القدمين..

وتتعمد الفلاحة إذا ذهبت لتملأ البلاص من الترعة أو من الحنفيــة أن تسقط الماء على ثوبها. وأن يكون ذلك على صدرها. فيلتصــق الجلبــاب بجسمها، فيبرز صدرها. وأن يسقط الماء على ذيل جلبابها، فترفعه قليــلا فينكشف أسفل الساق وكل الكعب. وعلــى الــرجال أن ينــظروا ويفسروا ويقولوا لأنفسهم وعلى المرأة أن تنتظر ويجيء الكلام من بعيــد. يــدعو ويشجع ويغرى ولا تنسى المرأة كلمة واحدة قيلت من أى إنســـان يصــف شيئا جميلا. لا الفلاحة ولا أكثر بنات المدن ثقافة. فالكلمة الحلــوة هـــى لمس بالأصابع برفق. وما أكثر ما يفعله اللمس.

وإذا كنت قد عرضت مواطن الفتنة والاثارة واحدة واحدة فــإن هــذا لا يحدث فى الطبيعة.. لا يحدث فى الشارع.. وإنمــا كل هــذه المــواطن المثيرة تنفتح مرة واحدة على كل إنسان.. كلها فى وقت واحد.. كلها تنهال علينا.. وكلها تتحدث فى وقت واحد.. وتقول وتعيد وتزيد.. ونحن من ورائها وحولها وأمامها وإلى جوارها نجمع ونضرب ونطرح بسرعة.. طبعا بسرعــة فقد تدربنا كثيرا على «رسم الصور» المطلوبة. و«تتجمع» كل العبــارات والنداءات فى أقل عدد ممكن من الكلمات أو من الحروف، هــل نتقــدم أو نقف بعيدا.. هل نلمس.. أو لا نلمس!

إنما يتعرى الناس حتى لا نراهـم ؟!

(٣)

فى يوم ٥ يوليو سنة ١٩٤٦ انزعج الناس فى أحد الحمامات العـامة فى باريس فقد ظهرت فتاة ترتدى مايوها من قطعتين.. وإنزعاج باريس معناه أن شيئا غير عادى قد حدث. صحيح لقد اعتاد الناس على ذلك.. واتسعت المسافة بين قطعتى المايوه. ولكن فى ذلك الوقت نهضت سيدة فى الثلاثين من عمرها.. جميلة عارضة أزياء. وقالت للفتاة ذات المايوه من قـطعتين: لو كان لى جسمك لقدمته قطعة قطعة للكلاب!..

ويبدو أن هذه السيدة لم تعترض على شكل المايوه، ولكن على الـذى يبدو من المايوه. وصاحبة المايوه الغريب اسـمها مشـلين بـرناردينى. ولم يجد أحد اسما لهذا المايوه.

ولكن تصادف فى ذلك الوقت أن أطلق الأمريكان أول قنبلة ذرية لهـم فى المحيط الهادى على جزر بيكينى (٣٨ جزيرة) بعـد أن أجلـوا سـكانها الأصليين. وبسرعة اتخذ هذا اليوم اسم بيكينى ـ بالياء الخفيفة. ولا يزال البيكينى زينة البلاچات فى العالم..

وفى يناير سنة ١٩٦٤ انزعج العالم كله مرة أخرى لأن رجلا نمساويا اسمه رود جراترايشى قد أطلق قنبلة فاضحة. فقد أعد مايوها من قطعة واحدة لاحدى الموديلات. ولم تكن هذه الموديل جميلة. ولكنها جريئة. ويبدو أن أكثر الدميمات جريئات. فالجرأة تجعلها تفرض نفسها وجسمها على الآخرين.. والمايوه عريان الصدر تماما ـ مثل نساء جزر بالى الأندونيسية ولقى هذا المايوه بسرعة استنكارا من الفاتيكان ومن الكرملين ولم يشأ أن يعيش طويلا. وبعد سنة واحدة ظهر مايوه بلا ظهر..

ونشرت الأديبة فرانسواز دلرنيتا رئيسة تحرير مجلة «فوج» تزف إلى المرأة أن عصر تحررها من استعباد الرجل قد برز. وليس عليها إلا أن تشق القماش على رأس الرجل وأن تلقيه فى وجهه. أو تصنعه كفنا له وتدفنه بلا بكاء عليه ـ فقد أبكاها الرجل طويلا وكثيرا..

وأعلن مصمم الأزياء الايطالى اميليو بوتشى فى كتاب عنوانه «تاريخ الجمال: أزياء» قال فى مقدمة الكتاب: الآن فى استطاعة المرأة أن تكلم الرجل باللغة التى تعجبها أن الرجل لا يملك إلا أن يطيع. ولكن المشكلة دائما، أن الرجل يجد من النساء من تحن إليه.. وبذلك تنهار المقاومة وتسقط كل الخطط لمناهضة الذوق الرجالى فى كل شىء!.

وفى سنة ١٩٦٨ ظهرت الممثلة الأمريكية جين فوندا بفساتين ذات فتحات متنقلة حول جسمها..

ثم نشرت المجلة العالمية «وولد ريبوت» تقول: إن بريطانيا قد قدمت للعالم كله موضة المينى جوب فى سنة ١٩٦٦. وقد روعت شركات الأقمشة، فلم يعد الفستان يحتاج إلا إلى مساحة ضئيلة من القماش. ولكن مخاوف

هذه الشركات ليس لها أساس فقد أثبت الأرقام فى السبعين عاما الماضية. أن الأسهم والسندات ترفع ذيل فستان المرأة.

وفى أواخر سنة ١٩٦٨ تظاهرت النساء فى أمريكا وطالبن بالتحرر من قيود الرجل وقررن أن يخلصن الكعب العالى والسوتيان والكورسيه والباروكة ويحلقن رؤوسهن ويضربن عن استخدام أدوات التجميل. لأن الرجل قد علم المرأة أن تكون حيوانا جميلا. أو حيوانا مثيرا. وأن الرجل قد نشر فى كتبه وصحفه وأغانيه ومسرحياته أن المرأة هى الرغبة. هى رغبته هو. وقد اعتادت المرأة على أن تشغل نفسها فقط بارضاء الرجل جسميا. فإذا حاولت المرأة أن تشغل عقلها بشىء، ثار عليها الرجل. فهو لا يريد لعلاقته بالمرأة إلا رأسا واحد هو رأسه، وإلا جسما واحدا هو جسمها!

فالمرأة هى هذا التمثال الغريزى الذى صنعه الرجل. وقد أصبح من الواجب على المرأة أن تحطم هذا التمثال، أو هذا الصنم، وأن تفلت من الاطار الحديدى والحريرى الذى اختاره الرجل لها — فى كل العصور.

وأعلنت المرأة فى سنة ١٩٦٩ أن أول أغسطس هو يوم المرأة العالمى — يوم تحررها من كل الحيل التى أرادها الرجل.

وكتبت العالمة الأمريكية مرجريت ميد تقول: ليست بهذه الصورة تكون ثورة المرأة على الرجل. بل الثورة تبدأ بأن تكتب المرأة للمرأة وعن المرأة. بأن تقول فكل ما ترتديه المرأة وما تتجمل به ليس إلا مفردات من قاموس الرجل. فكل شىء فى جسم المرأة وعلى أظافرها وشفتيها يقول: وهذا الكلام هو كلام الرجل!

وتقول مرجريت ميد أيضا : لا شيء قد تغير.. فنحن ما نزال في منتهى الهوس.. قديما كنا نحرص على أن نغطي الجسم الانساني بجنون.. أصبحنا نحرص على تعريته بنفس الجنون أيضا فتطوير صناعة الأقمشة الحريرية ليس محاولة لتعرية المرأة ثم العدول عن ذلك في آخر لحظة. فالمرأة ترتدي الفستان الحريري وبسرعة تضع فوقه بالطو.. أو ترتدي القميص المقلم ثم تضع فوقه فستانا من الحرير.. ثم ما هذه الصناعات الفاضحة أيضا. أن نوافذ المحلات التجارية من الزجاج الهائل تكشف ما الذي يعمله الناس في داخلها.. ثم المقاعد المصنوعة من البلاستيك الشفاف أنها تفضح الجالسين والجالسات عليها ـ ثم ما هذه النماذج الزجاجية للمرأة والمعروضة في المتاحف الصناعية.. أنها تعرض كل أعضاء ووظائف الجسم الانساني.. وفي نفس اللحظة التي يراها الانسان يستمع إلى تسجيل صوتي يقول لنا ما الذي يجري أمامنا..

وتقول الدكتورة مرجريت ميد : لم ما هذا الذي تفعله المرأة.. إن المرأة فيما مضى كانت إذا حملت فإنها تحاول أن تخفي ذلك عن الذين حولها، أما الآن فإن العروس تصر على ارتداء فستان يجعلها تبدو حاملا ـ موضة الشوال مثلا !

وتقول مرجريت ميد : ما هذه الضوضاء التي تثيرها المرأة.. أنني أحار في فهم هذا الذي تقوله للرجل.. وبعد ذلك تشكو من البلبلة ـ مع أنها الفاعل الحقيقي. والمتكلم الصارخ. الناطق بالألوان المجسمة وفي حجمها غير الطبيعي !

أما الكاتب المسرحي الكبير آرثر ميللر فقد أعلن في محاضرة في «نادي القلم الدولي أن شيئا غريبا يجتاح الأدباء الآن.. أنهم أيضا يريدون أن

يكونوا عراة. مع أن هؤلاء الأدباء لا يعرضون على المسارح وإنما رجالا فى غاية الهزال.. لماذا؟ لأنهم لا يريدون من المتفرجين أن ينظروا إلى هذه الأجسام. وإذا نظروا أن يشعروا بالضيق. وهذا الشعور بالضيق يساعدهم على فهم معنى المسرحية.. فكان الممثل قد قرر أن يشترك فى إضافة شىء من عنده إلى النص المكتوب.. أما الذى أضافه فهو هذا الاحتقار العريان أو هذا السخط المجرد!

ويكفى أن نتذكر مسرحتين شبيهتين هما: كلكتا.. والشعر.

وهناك مسرحيات أخرى كثيرة يتعرى فيها الممثلون. ومن الغريب جدا أن معظم هذه المسرحيات ليست فيها أية ألفاظة عارية أو نابية. وإنما الذى يشاهد المسرحية يخرج منها بهذا المعنى: كيف يكون الانسان فاضح الجسم محتشم الكلام!

وفى السنوات الأخيرة ترددت عبارات تنطبق على الأزياء وعلى الأدب. فإذا كانت الأزياء أسلوبا لاختيار وإبراز الجسم، فإن الكلمات أزياء المعانى.

مثلا يقال: موضة النظرة إلى أعمق.. أو النظرة الشفافة.. أو النظرة المجردة ــ بكسر الراء ــ أو موضة: يا للهول ما الذى بقى بعد ذلك!

والأزياء العارية قديمة جدا. بدأت من مصر الفرعونية. والنقوش على المعابد تؤكد أن المرأة المصرية كانت تصنع فستانا شفافا بسيطا. وإذا كانت موضة الأكمام هذه الأيام من «جناح الوطواط» فإن الملكة نفرتيتى هى أول من استخدم هذا الكم.

كما أن هناك ملكة اسمها سمنكة (١٣٥٠ ق.م) قد ارتدت فستانا شفافا تماما لا تجرؤ راقصة على أن ترتديه فى جلسة خاصة.

وفى كتاب «الأزياء فى كل العصور» للسيدة مليا دافنبورت تقول إن الراقصات والراقصين فى مصر الفرعونية كانوا يرقصون عراة تماما إلا من بعض الحلى.

كما أن الفتاة مريت التى ساعدت سنوحى المصرى تقول: وخلعت ملابسى كلها حتى لا تبتل ومشيت إلى جواره.

وفى النقوش الموجودة على معبد كراكالا فى روما نجد أن المصارعين كانوا يتقاتلون عراة تماما أمام الشعب.

وفى القرن الثالث عشر فى أوروبا كان الرجال والنساء ينزلون الحمامات العامة عراة.

وفى إنجلترا سنة ١٦٦٠ ظهرت الصدور العارية والأكتاف العارية..

وكانت النبيلة الايطالية الرهيبة لوكريشيا بورجيا تكشف عن نصف صدرها.. وطلته باللون الأحمر. وعندما علمت أن فتاة أخرى قد فعلت مثلها، ذهبت إليها وقطعت نهديها.

ولكن هل كان الرجل الفرعونى مشغولا تماما بالقضايا الجنسية.. أى كان مشغولا بأن يثير المرأة وأن تثيره. هل هذه الأجسام العارية فى كل مكان تدل على ذلك.. هل هذه الشفافية فى الأقمشة تجعل الرجل يشعر طول الوقت بأنه حيوان.. وأنها أيضا. فما الذى يمنع أن يتصارح الاثنان ما دامت الأجسام فاضحة مفضوحة. هل هذا العرى معناه: أن كل شىء ممكن وبلا مقاومة!

الصحيح عكس ذلك. ويكفى أن ترى عيون الفراعنة، رجالا ونساء، أن العيون مفتوحة. والنظرة واسعة غير محدودة.. فلا أحد ينظر إلى أحد.

وإنما الجميع ينظرون إلى بعيد، إلى ما فوق الاجساد.. إلى ما بعد الفناء. إن هذه الشفافية تدل على الاعتدال. وعلى البساطة. وهذه العيون التى لا تضيق ولا تتسع ولا تنحرف ولا تغمز ولا تستهدف ولا تهدف ولا تسدد شيئا فيصيب أو لا يصيب، هذه العيون لم تمتلئ برغبة جنسية.

عندما جاء العالم النمساوى هانس هاس إلى الأقصر. كانت ترافقه زوجته. وكان مشغولا فى ذلك الوقت بتسجيل حركات الناس دون وعى منهم. يقول فى كتابه «الحيوان الانسانى» أن زوجته كانت تمسك ثعبانا من المطاط. وكانت تضعه فى صندوق. وبسرعة انحنت الزوجة على الأرض وارتفع فستانها القصير عن عمد. واتجهت عيون الناس فى الأقصر: مصريين، وأجانب: إلى المرأة طبعا. وعندما أطلقت الثعبان اتجهت العيون إليه. يقول هانس هاس فى كتابه:

لقد كنت ألتقط هذه الصور.

من بعيد.. فأى فارق هائل بين عيون المصريين فى هذه اللحظة وبين عيونهم من ألوف السنين.. أن نظرات الفراعنة قد استقرت فوق الحجر على معنى آخر.. إنها نظرة شفافة سامية سامية بلا جنس!

ويقول هانس هاس: ولكن ما الذى تقوله هذه الأزياء.. لا تقول شيئا.. إنها لا تخفى حقيقة الانسان.. أنه جسم.. ولا تخفى حقيقة المصرى أنه نظيف النفس.. وأنه حيوان أحيانا، إنسان فى معظم الأحيان، الهى عندما يخلو إلى نفسه. ولذلك فعالمه وراء هذا العالم..

وعندما درس الكاتب الأمريكى أيريش فروم ثورة الشباب فى أمريكا وفى أوروبا قال وهو يتحدث عن الحرية المخيفة: إننى لا أنزعج من انتشار

هذه الصور العارية. إنها تدل على شيء واحد. على أن الانسان ليس عنده ما يخفيه. وإذا ظل الانسان يكشف كل شيء فسوف يجد الطعام ولكنه لن يجد اللذة. سوف يجد الرغبة ولن يجد النشوة. سوف يجد الواقع ويفتقد الخيال.. والخيال هو أبو الفنون وأبو الخلود أيضا. ولذلك فالأجسام العارية هى الأجسام التى لا تراها. أن مستعمرات العراة، هى الأماكن التى اختارها بعض الناس ليعكفوا على اختفاء الجسم الانسانى والزهد فيه.. أى إنهم اختاروا هذه الأماكن حتى لا يروا الجسم الانسانى فكأنهم عروه حتى لا يروه. ولو أرادوا أن يروه لغطوه، فالفستان يقول أكثر من الجسم العريان. فالزى فن، والعرى طبيعة.. أو غريزة. وقد ولد الناس عراة، وبعد ذلك فرقت بينهم الأزياء. وقديما قال شكسبير: أن النساء سواء، ولكن الحرير أقام الطبقات بينهن.

وفى مجموعة قصص قصيرة اسمها «الفردوس» لأديب إيطاليا البرتو مورافيا قصة عنوانها «المرأة الخفية» أنها قصة جميلة الشكل عميقة المضمون. أنها قصة زوجة جميلة. أحبت وتزوجت.. وكانت تعلم قبل الزواج أنها مثيرة. وأن زوجها قرر أن يختارها له فى يوم ذهبت إلى حمام السباحة. ولسبب ما قررت ألا تنزل إلى الماء وجلست تحت الشمس وضبطت هذا الرجل الذى أصبح زوجها ينظر إلى ساقيها من بعيد وأعجبته وتزوجها.. وفى يوم من الأيام كانت ترتدى ملابسها فى الغرفة فوقفت عارية تماما. وفجأة قال لها زوجها: ما هذه البقعة!

ونظرت الزوجة إلى حيث اتجهت عينا الزوج، إلى خصرها ثم قالت ولكن أين هذه البقعة أنا لا أراها!

ولكن الزوج عاد يقول لها هناك إلى جوار النافذة

وتطلعت إلى البقعة واندهشت كيف أن الزوج استطاع أن يرى البقعة هناك دون أن تتوقف عيناه لحظة على جسمها الجميل. الذى رأى جانبا ضئيلا منه فاختارها كلها زوجة له. وذهبت إلى البقعة وأسندت ظهرها إليها، وسألت زوجها: وأين هذه البقعة. وهل هى كبيرة بهذه الدرجة. فقال دون أن يرفع رأسه.. كبيرة فى حجم الرمانة!

وقالت له: الآن فقط عرفت أنك لم تعد تحبنى. وسألها: ولكن لماذا؟

ولم تشأ أن ترد عليه. لقد أحست أن جسمها شفاف لا يحجب شيئا وراءه. أو أنها بلا جسم، فلم يعد زوجها ينظر إليه. فلم يعد لها، أو يعد له أى وجود.. أن بقعة على الحائط تلفته وتشغله وتثيره، وهذا الجسم العريان الجميل، لا يستوقف عينيه..

وفى هذه الأثناء ظهرت إحدى قريباته وكانت ضيفة عندهم.. فرآها فى المرآة وقال لها: فستانك أقصر من اللازم!

وكان فستان الزوجة فى هذا اليوم أقصر من اللازم بل أنها تعمدت أن تكشف صدرها.. ولو نظر إلى نفس المرآة لوجد أن الزوجة قد كشفت الكثير. ولكنه لم ير إلا هذه الضيفة. تأكدت الزوجة أنها بلا جسم.. وأن الجسم العريان لم يعد جسما ولا شيئا..

وعندما ذهب الرجل إلى صيد البط لاحظت أنه يختلس القبلات من هذه الضيفة وقررت الزوجة أن تنتهز هذه الفرصة وتطلق عليهما الرصاص.. وطارت بطة. وأصابها الزوج وسقطت البطة دامية.. وتعثرت الزوجة وسقطت على الأرض.. وهى على الأرض رأت قدمى زوجها.. ولاحظت أن حذاءه مر بالقرب من وجهها. حتى الحذاء لم يعد يشعر برأسها.. أنها «خفية» لأنها

تعرت أكثر مما يجب.. فقررت أن تتغطى أكثر مما يجب حتى يراها الزوج من جديد.

وفى الكتاب المقدس أن إخوة يوسف عليه السلام قد جردود من قميصه الملون ثم رموه فى البئر.. فكأنهم جردوه من الشىء الذى يجعله مرئيا، ثم أخفوه بعيدا عن العيون!

ومحاولات كثيرة لن تنتهى لأن يقترب الانسان من الانسان ليرى أكثر وأعمق.

وكما أن الانسان يلمس بيده، فإنه أقدر على اللمس بالعين أيضا..

وكما أن الانسان يضع أمام عينه عدسات من الزجاج ليرى البعيد قريبا، ويرى الصغيرة كبيرا، فإن الانسان أيضا يضع الأثواب على أجساد النساء ليرى أوضح.. أن العدسات - أو هذا الفاصل الزجاجى - هو وحده الذى يجعلنا قادرين أوضح وأعمق.. وكلما أصبحت عدسات المراصد أكبر وأوسع، أصبحت أقدر على أن ترى أعمق أعماق الفضاء.. إنها إذن هذه الحوائل أو الفواصل من الزجاج والحرير التى تجعلنا نلمس أصعب الكائنات عن بعد: الانسان..

فإذا اقتربنا تغيرت الصورة، وتنوعت واعوجت وتلونت، مفردات الكلام!

كلمـــات كثيرة
من قمـــــاش
نراها ولا نسمعها
(٤)

عندما انتشرت موسيقى «الخنافس» البريطانية فى العالم قبل أن أوروبا كلها قد تحررت من أمريكا.. وعندما انتشرت مـــوضة «الميـنـــى جـــوب» البريطانية قبل أن العالم كله قد تحرر من دكتاتورية الأناقة الفرنسية..

فهذه الموضات وغيرها ليست تحررا أو تطورا فنيا فقط، ولـــكن هـــذه الموضات هى لغات متعددة لظروف متغيرة..

فعلى الازياء يقال كلام كثير.. لأن الأزياء صـــورة لـــظروف وأحـــوال واضطرابات فردية واجتماعية فى عصـــور متتـــالية.. وليس صـــحيحا أن الانسان يمشى فى خط مستقيم وفى اتجاه واحد..

فالانسان كثيرا ما ارتد وانتكس وتقهقر.. وكل الموضات أكبر دليل على ذلك.. فموضات الرجال الآن ترجع إلى خمسين عاما وأحيانا إلى مائة عام وموضات النساء ترجع إلى أربعين عاما.

صحيح أن وزن ملابس المرأة يعادل عشر وزن ملابس الـــرجل وهـــى أخف وأصح ـ لأنها تعرض جسم المرأة للشمس والهواء. ولكن مـــلابس

المرأة أكثر تعقيدا وأكثر صعوبة.. وربما كانت ملابس المرأة هـى أكبـر دليل على تطور صناعات النسيج والأصـباغ والمسـتحضرات الـكيميائية والمجوهرات واللؤلؤ والجلود والزجاج.

فتاريخ المرأة مكتوب على أزيائها ـ وهو تاريخ كتبه الرجل وعـرضته المرأة. فما أكثر ما تقوله الأزياء لكل عيـن تـراها أو تلمسـها أو تثـار لسماعها من بعيد أو من قريب.

ولم يحدث أن اضطربت خطوط أزيـاء المـرأة وبلغـاتها المتعـددة، كما حدث بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. ومـاأكثر الاضـطرابات الاقتصادية والسياسية والعسكرية وما أعجب محاولات المرأة فى أن تتحرر من الرجل. وما أروع محاولات الرجل فى أن يعيد المرأة الأم، بعد أن مـل من المرأة الزوجة والمرأة العشيقة. وعنـدما حـاولت المـرأة أن تـكون أما للرجل، فإذا بها تجد نفسها أما لطفل.. وعندما حاولت المرأة أن توقظ الرجل فى الطفل، لم تجد إلا الطفل فى الرجل.

وبسرعة نستطيع أن نقول أنه ابتداء من سنة ١٩٢٠ دخلـت السـيارة حياة الناس.. وكان دخولها بداية مرحلة جـديدة فى الحـركة والانتقـال والتداخل بين المدن والقرى والدول. وكان من الضرورى أن يمشى مصممو الأزياء وراء المرأة ليروا ما هى الأزياء التى تريحها والتى تجعلها جميلة. والتى لا تفضحها بضيقها والتى لاتتمزق فى كل مرة تحاول المرأة أن تقود السيارة ـ يجب على مصممى الأزياء أن يـراعوا «الـوظيفة» الجـديدة للمرأة..

وفى سنة ١٩١٩ استطاع العالم الانجليزى وذرفورد أن يحطم الذرة..

أما التليفزيون فقد ظهر فى أوروبا سنة ١٩٢٨.

كما ظهرت فى الفن مدرسة جديدة اسمها «التكعيبة» وهــذه المــدرسة أشاعت الخطوط الهندسية فى كل شىء يلمسه الرجل أو يرتديه..

ومن أهم نتائج الحرب العالمية الأولى ذلك الشعور بالقرف عند الشبان. فهم لا يريدون أن يكرروا حماقة الماضى. ثم أنهم قد تملصوا وتنصلوا من كل أسباب واستمرار ونتائج الحرب. فلا هم الذين أرادوها أو أشعلوها أو ماتوا بسببها. فهم يلقون بأنفسهم على كل جديد. لأن ظهور الجديد إعلان صارخ بأنه لا قديم ولا عودة إلى شىء مضى. فالثورة كلها على المكان من أجل الزمان.. والزمان هو المستقبل.

ولأول مرة فى تاريخ الانسان أصبح عدد النساء أكبر من عدد الــرجال. فقد جاءت نار الحرب وأكلت الرجال. وكان مــن الممــكن أن يبــدو ذلك ملحوظا إذا سار الانسان فى شوارع العواصم الكبرى. ولكن المــرأة هــى التى جعلت ذلك غير واضح. فقد عادت المرأة من الحرب ترتدى مــلابس الرجال، وتجعل شعرها قصيرا مثلهم. فهى ترتدى برنيطة وليس من السهل أن تحشر كل رأسها فى هذه الخوذات العسكرية. فكأن المرأة قد قدرت أن تدخل معسكر الرجال بملابس وموضات الرجال. ولكن هناك أعمالا كثيــرة وأبوابا واسعة انفتحت أمام المرأة لكى تعمل فى المقعد الذى تركه الرجل بوفاته. وكان من الطبيعى أن تقف الفتاة على قدميها دون مســاعدة مــن أحد. ودون طاعة لأحد. فقد كفر الناس بالطاعة العمياء التــى أدت إلــى الحرب العالمية. وتحررت المرأة وعملت ولبست وأقامت وحدها فى الشقة أو بيت، مع زوج أو مع أى إنسان.

أما الجنود العائدون من الميدان فقد تعبوا من حياة الدخان والخنادق والأسلاك والنار والظلام واليأس، فقد قرروا أن يعيشوا وأن تــكون لهــم

بيوت. وهذه البيوت ليسكنوها مع أولادهم من زوجات محترمات. يختلفون عن العشيقة وعن بنات الليل. ولذلك فإن هذا الحنين إلى البيت جعل المرأة تعيش من أجل البيت والمطبخ والأولاد والكنيسة. أنها امرأة زوجة وأم تحمى أولادها ويحميهم الزوج.

وامتلأ جسم المرأة. وأصبح الامتلاء هو المثل الأعلى للجمال. وكانت المرأة تستخدم الكورسيه منذ سنة ١٨٣٠، ولكنه بعد الحرب العالمية الأولى قد نزعته. كما أن المرأة عادت إلى استخدام الصديرى الذى يضغط على صدرها فيخفى بروزه واستدارته ـ أنها المرأة الأم.

وفى العشرينات ظهرت الفساتين بلاأكمام ولها فتحة صدر واسعة.. وفى سنة ١٩٢١ اختفى خط الوسط. ونزل حتى أطراف الأرداف. وهذه الخطوط تعود بالموضة إلى العصور الوسطى.

تقول مدام كوبت أديبة فرنسا : كأن المرأة كانت فى أجازة من أنوثتها، وفجأة قررت العودة إلى البيت. وأغلقت الباب والنافذة وسمعت عشرينات هذا القرن ضحكا ولعبا.. فالزوج قد عاد وأولاده سعداء!

وظهرت الجوارب الحريرية الملونة : الأحمر والبيج والأحمر المحروق فى سنة ١٩٢٤. لقد اختارت المرأة اللون البرنزى لها وللرجل. وهو لون الشمس كما تريدها، أى الشمس كما يتقلب أمامها. وليس لون الشمس كما تريده الشمس أو تفرضه علينا. وبذلك عوضت المرأة زوجها وصديقها عن الخشونة التى لقيها أثناء سنوات الحرب.

واختفى كعب الحذاء المحنى وظهر الكعب المستقيم. وكانوا يسمونه فى ذلك الوقت بالكعب الروسى. وهذا الحذاء يحمى الجوارب الحريرية. ولكن له

عيبا خطيرا. فالفتاة التى ترتدى الاحذية ذات الكعوب العالية الغليظة تؤكد للناس أنها تمشى على رجليها، أى أنها لا تركب سيارة. تركبها أو تقودها بنفسها.. ولذلك كانت الموضة أن ترتدى المرأة أحذية ذات كعب رفيــع.. وهى بذلك تقول ليس من عادتى المشى فأنا أركب سيارة.

وفى سنة ١٩٣٠ ظهرت موضة المانيكير فى أوروبا، وان كان المــانيكير هذا قد عرفته المرأة المصرية من ألوف السنين. وأصبحت المرأة حريصة على أن تبين أظافرها الدموية وهى تدخن أو تشرب علنا ـ فقد أصبح هذا من حقها، ودليلا على أنها تساوت بالرجل، أى تحررت.

وعندما ترقص المرأة فى الأندية والحفلات لم تعد تميل إلــى الــرقص الهادئ وإنما إلى الرقص العنيف الذى يكشف حيويتها وشبابها. فلم تعــد تحب القيثارة، وإنما تفضل رعشة السكسفون. واستغنت عــن أوركســترا الغجر بالجاز الزنجى الأمريكى.

أما خطوط أزياء المرأة فهى دغرى وهى أمينة على جســمها. تــكشفه بحساب تكتم أسرارها فى هذا الجانب، وتشيعها فى الجــانب الآخــر. وأن كانت معظم أزياء المرأة فى هذه العشرينات تبدو كأن مصمميها قد جعلوها لكى نراها من الخلف وهى تسير.. أى أن المرأة كانت حريصة علــى أن تسمع كلمات الاطراء، وليس مهما أن ترى قائليها.. فوجه الــرجل لا يهــم ولكن حضوره هو الذى يهم!

والأفلام كانت تعرض علينا وجه المرأة وعينيها العاطفتين وشفتيها وقد انطبقتا فى صمت. وكانت الأفلام بلا ألوان فى ذلك الوقت. ولكن التركيز كله على الوجه.. مادامت المرأة لا تتحرك بدرجة كافية. ومادام الرجال ينظرون

إليها بعد أن تكون قد تجاوزتهم قليلا. فالجديد هو أن يروا وجهها على الشاشة!

وتعاونت دور الأزياء مع مصانع النسيج فى أن يكون الكم طويلا، مادامت المرأة حريصة على بقاء الفستان قصيرا. وظل ذيل الفستان طالعا نازلا. واصحاب المصانع ترتفع قلوبهم وتهبط مع ذيل الفستان. ولكن الاتجاه العام دائما إلى رفع ذيل الفستان.

وفى سنة ١٩٢٧ ارتفع الفستان إلى منتصف الساق نهارا، نزل حتى الكعب ليلا.

وبعد ذلك بوقت قصير حدثت الأزمة المالية الأولى فى أمريكا..

واتجهت العيون إلى أمريكا. ورأت أوروبا أن الفتاة الأمريكية الرياضية حريصة على كشف ساقيها.. على عكس الفرنسية التى تحرص على كشفها واخفائها من وقت إلى آخر. وانتصرت الفتاة الأمريكية.. أو الأنوثة التى لا وطن لها ولا دين ولا لون.

أما فى الثلاثينات فقد هبطت على العالم طبقات من اليأس والحزن.. فثلاثينات هذا القرن عرفت حروبا متعددة ومختلفة: الحرب فى الحبشة وفى الشرق الأقصى والحرب الأهلية فى أسبانيا والحرب العالمية الثانية. والعالم كله عرف النازية والفاشية والفلانفة ـ حرب فرانكو ـ وحارت موضات مصممى الأزياء بين تحرير الجسم وخنقه. وأصبحت الخطوط عصبية. فالخصر مخنوق. والأكتاف عالية عارية وعاد الكورسيه يشدد الخناق على الأرداف. واتسعت الجونلات.

وكان من نتائج الحروب فى كل مكان والخوف على البيت وعلــى الأسرة وعلى الأمومة والأنوثة، أن عادت المرأة إلى ما كانت عليه. طال شــعرها. وشجعت جريتا جاربو على ذلك فى كل أفلامها. ومنذ أزمــة ميــونخ ســنة ١٩١٨ وبعد سفر تشمبرلن الانجليزى إلى لقاء هتلر عادت بــرنيطة أهــل البترول وأضيفت لها ريشة من أى لون.

وفى هذا الوقت ظهرت المدرسة السريالية فى الرسم والشــعر.. وظهــرت مبادىء الوجودية الأوربية.

وفى سنة ١٩٢٣ كان مصمم الأزياء الايطالى اســكباريللى قــد قــدم البرنيطة التى على شكل حذاء متهالك أسرعت النساء بوضعها على رأسها لأنها موضة!

وظهرت المرأة بالشورت وكذلك البنطلون ولم يعد أحد ينظر إليها علــى أنها شاذة ــ وإنما هى تتمشى مع الموضة.

ولأول مرة منذ ألفى سنة ظهرت أقدام المرأة عــارية ــ لأول مــرة فى أوروبا طبعا ولابد أن تجمل المرأة أقدامها.. فظهر البديكير ــ أى صــبغ أظافر الرجلين وأول الألوان هو أحمر عادة..

وتعرى ظهر المرأة فى سنة ١٩٤٠ وما بعدها.

وفى سنة ١٩٤٧ ابتدع مصمم الأزياء الفرنسى كريستيان ديور فســتان «النظرة الجديدة» أو «الطلعة الجديدة» وهذه الموضة تعيد للمرأة أنوثتها فالفستان طويل. والشعر الطويل، وعاد الكورسيه والصديرى أيضــا. وأعلن الأطباء فى ذلك الوقت أن الصديرى الذى يضغط على صــدرها لا يمــكن الرئتين من التنفس. ولذلك فالصديرى يجب أن يراعى وظائف الأعضــاء.

وعاد الصديرى أوسع والصدر ابرز وأكثر استدارة.. وظلت المرأة الهندية على ساحل الملبار ترتدى الصديرى الذى «يفعص» صدرها ويسويه ببقية الجسم.

وعندما انتهت الحرب فى سنة ١٩٤٥ كان ذلك انتصارا للانسانية والحرية ولكن أجهزة الدعاية أمسكت الناس وهى تضحك وأوقفتها وهى ترقص، وأخرجت الملاعق من أفواهها، وأرجعت الطعام من معداتها وراحت هذه الأبواق تشكك الانسان فى الانسان، وتشكك فى السلام. وتعيد الخوف إلى عرشه وتكرر ليل نهار، أن الحرب قد خمدت، ولكن سباق التسلح قد بدأ. وأن نهاية الانسان سوف تكون أسرع وأوجع واستولت حروب الأعصاب على الانسان وإذا كان الانسان قد وضع سلاحا فإن المرأة وضعت سلاحا آخر ـ والأزياء سلاحها وارتدت المرأة أزياء تشبه أزياء الجنود بألوانها وخطوطها.. فكما أن الوحدة الفكرية ضرورية، فالوحدة المظهرية ضرورية أيضا.

فعادت موضة سنة ١٨٨٠ موضة النظرة الجديدة.. ولكنها لم تطل.

ولكن شيئا تغير. فقد كانت باريس مصدر الاشعاع الأناقى والجمال منذ عصور فرساى. عندما كان بلاط فرساى هو بلاط البلاط.. ومن هذه الضاحية الملكية خرجت كل أناقة المرأة.. حتى ملوك فرنسا كانوا يبعثون بالعرائس الصغيرة إلى كل عواصم العالم. وهذه العرائس من القماش ترتدى أجمل أنواع الفساتين.

فقد كان ذلك سابقا على عصر عارضات الأزياء بمئات السنين.

وإذا كانت فرنسا هى دكتاتورية الأناقة، فإن رجال فرنسا ليسوا أحسن مصممى الأزياء!

وفى سنة ١٨٤٦ وصل إلى باريس شاب انجليزى عاطل اسـمه «ورث» هذا الشاب كانت عينه على كل فستان وفى خياله تعديلات جديدة. وبدخول هذا الشاب إلى فرنسا دخلت العناصر الأجنبية على صناعة الأناقة. ومـن بعده جاء كثيرون وكثيرات.

وانتشرت الموضات عن السـينما والتليفـزيون والسـباحة وأصـبحت الموضات ديمقراطية.

ولكن بقى هؤلاء العباقرة الشواذ : مصممو الأزيـاء. وأكثـرهم شـواذ جنسيا فى كل العالم. ومن العجيب أن هـؤلاء الـذين ارتبـطت حيـاتهم وأمجادهم بالمرأة لم يبعدوا عنها كثيرا بل أن شذوذهم جعلوه موضة. ولو عرفت المرأة لماذا اخترعت أصناف معينة من العطور وقد ملأت السوق.. أو لماذا ارتفع الفستان إلى منتصف الركبة أو فوقها قليـلا، لـرفضت أن ترتدى هذه الأزياء ولو ساعة أو يوما فهناك أسباب شخصية شـاذة هـى التى جعلت المزاج الشخصى أو النزوة الخلفية ظاهرة عامة.

بعد «النظرة الجديدة» ظهر الشوال والترابيز والأمبير.

وظهرت الباروكة على كل رأس. وظهرت البنطلونات الضيقة والقمصـان الملونة والمشجرة وتصلح للجنسين.

والمرأة الفرعونية والرجل الفرعونى كلاهما كان يحلق شعره بـالموسى. وتضع الباروكة. وكان الرجل يضع اللحى والشوارب المستعارة.

واليهود فى عصر التوراة كانت لهم شعور طويلة. وقصة شمشون ودليلـة تدل على ذلك. فلما سألت دليلة البطل شمشون أين قوته، قـال إنهـا فى شعره. وفى سفر «صموئيل» نقرأ أن ابسالوم كان يحلق شعره مرة كل سنة وكان شعره يزن مائتى «شاقل» ــ أحد الموازين القديمة.

والقديس بوليس كان يقول : عار على الرجل إذا طال شعره، والمجد للمرأة إذا أطالت شعرها.

وأما شارلمان فكان شعره ينزل إلى كتفيه وابنه كان شعره قصير، وحفيده كان أصلع.

وفى القرن الثانى عشر كان هنرى الأول ملك انجلترا يرغم رعاياه على حلاقة شعرهم.. وبعد ستة قرون فعل القيصر بطرس الأكبر نفس الشىء. مع رعاياه.. ثم اختفى شعر المرأة تحت أشكال وألوان من القبعات أكثر من ستة قرون. وكانت المرأة إذا حاولت أن تظهر خصلة منه، جعلت هذه الخصلة من الشعر المستعار. ثم تراكمت الورود فوق رأسها لتخفى شعرها. أو لتكشف عنه بصورة متلصصة كما كان فى الريف المصرى!

وبعد الثورة الفرنسية أصبحت الثورة على كل شىء.. على كل أوامر واستبداد الرجل ودكتاتوريته غير المعقولة فى كل شىء. وأطل شعر المرأة من رأسها. وارتكبت المرأة كل المحرمات.

يقول د. دوبى يوهانسن فى كتابه «الجسم والأزياء» صفحة ٢٣٣ : أصبحت الثورة إعلانا سريا. وهذه تسمية غريبة فهى إعلان، أو كالاعلان اتفق عليه كل الشبان. وهم فى نفس الوقت لا يجاهرون به. فهم لا يريدون كل ما كان قديما وهم يلقون عن أكتافهم ويلات التاريخ القديم. وهم يضربون ويبطشون ويلعنون ولكنهم فى نفس الوقت لا يفعلون ما يضير الغير. حتى هذه الألعاب البهلوانية التى يقوم بها رواد الفضاء لم تعد تضحكهم. أن هذه الرحلات تتكلف ملايين الملايين والناس أحوج إليها فى كل مكان. والألعاب البهلوانية والدعوات والصلوات المفتعلة فوق القمر

لا تشغلهم عن الحقيقة المؤلمة، أن الآباء قد سلبوا الأبناء ملايين الملايين هم أحق الناس بها.. فلم ينخدع الجيل الجديد عن بشائع وفضائح الأرض. ولم ينسوا حرب فيتنام. أن كل الأزياء تقول كلاما كثيرا، إلى جانب الجنس والجمال والدلال، قضايا فى السياسة والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والحروب. ابتداء من القفطان المصرى القديم إلى أحذية القوارق وياقات الصين، ومجوهرات فارس ولؤلؤ اليابان. إن هؤلاء الشبان الذين يفضلون الملابس القديمة القذرة المهلهلة.. إنما يحاولون أن يلغوا الفوارق بينهم وبين الفقراء العاجزين عن شراء الجديد أنهم لا يساهمون بمليم واحد فى شراء أروع الأقمشة التى تنتجها أعظم مصانع النسيج فى العالم.. أنهم يرفضون الموضات لأنهم يرفضون الفوارق بين الرجال والنساء.. أن مثلهم الأعلى هو الملابس الصينية التى يرتديها الجميع والقبعات الصينية التى يرتديها الجميع.. ويفضلون الأحذية الروسية التى يرتديها كل أبناء الجنسين.. أن سلوكهم العدائى للمجتمع القديم هو نوع من الاحتجاج والاعتراض العنيف إنهم يفعلون ما يفعله البوذيون احتجاجا على حروب فيتنام.. أنهم يكوون بالعرق والنيران جلودهم ويلعنون الذين أشعلوها نارا على كل المطالبين بالحرية والكرامة للشعوب.

ويقول د. يوهانسن أيضا.. أنه فى داخل الأزياء معارك جادة.. أن هناك محاولات متجددة لاسقاط الرجل عن عرش الأناقة. واتاحة الفرصة للمرأة أن تقول كلمتها فيما يعجبها وما يجب أن يعجب به الرجل.

ثم أن هناك حربا أخرى بين البيض والسود.. فلا تزال الموضة بخطوطها وألوانها من أجل البيضاء والشقراء ولكن هناك عروشا للسوداوات والسمراوات قد أقيمت. ثم أن هناك عارضات أزياء ذات ألوان

أخرى يتقدمن الصفوف. إن دور الأزياء تكسب كثيرا. إن الذى حاولته السيدة كوكو شانيل كان نوعا من الكفر فهى اخترعت ملابس للعاملات. وقدمت هذه الملابس للطبقة الراقية أنها أدخلت الشعب قصور الملوك دون أن يدرى بذلك.. أن الأزياء ليست عبثا، أن ملايين الملايين من الجنيهات تنفقها الشعوب عن طيب خاطر.. ولكن المعانى وراء هذه الأزياء هى التى لا يمكن أن نقدرها بمال..

ويقول يوهانسن: أن النبيل الفرنسى الذى وقف أمام زوجته التى عادت غاضبة إلى أهلها يقول: لو كنت شيئا آخر غير هذه الأزياء.. والنبيل الفرنسى يقصد إنها لا تساوى إلا فساتينها. ومعه حق. لولا أن هذا الأمير هو الذى لا يرى من المرأة إلا فساتينها.. ولكن المرأة شىء آخر غير الفساتين. إنها كائن حى.. وذوق متجدد.. ثم أن الذين صمموها، لم يطلعوه على هذا المعنى.. أنهم اختاروا نفس الخطوط للنبيلة وحاشيتها.. وكان الخلاف فقط فى نوع القماش.. أن النبيل لم يعرف «الجريمة» التى ارتكبها مصمم الأزياء.. أنه ديمقراطى خبيث.. أنه ميكروب شعبى قد تسلل إلى قصر النبيل.. إلى جسد امرأته.. إلى عينيه هو.. وليس عليه ألا يستخدم عينيه وينظر إلى حاشيته. لو فعل لادرك الثورة الأنيقة الحريرية التى أحاطت بسريره.

فما أكثر ما تقوله الأزياء لمن يلمسها بعينيه عن بعد، وبيديه عن قرب.. كثيرا جدا يقال بلا كلمات بين الرجال والنساء!

من عينيك خرجت
ودخلت
هذه المعانى وغيرها !
(٥)

ما معنى أن تنظر إلى إنسان؟ ما معنى أن تملأ عينيك منه؟ ما معنى أنه يملأ عينيك أو أنك أسقطته من عينيك.. أو ما معنى أن تقول: وكأننى ما رأيت وما سمعت ولماذا ننظر إلى إنسان بنصف عين أو بجانب من العين.. أو ما الذى تقصده وأنت تكرر: أنه إنسان تسمعه ولا تراه؟ أو تراه ولا تسمعه.. أو لا تشبع منه العين والأذن؟

ثم ما معنى أن ترتاد إنسانا بعينيك أو تكتسحه من فوق لتحت أو من تحت لفوق ــ وهى عادة نسائية مؤلمة وأسلوب رجالى وقح؟

ونحن أطفال نعتمد تماما على أمهاتنا وفى هذه المرحلة من العمر نحب الحب بمعناه الحقيقى: العطاء الدائم. فالأم تعطى بحساب ومن غير حساب. والطفل يتقبل وينتظر ويعيش على حبها.. ويجد كل شىء قريبا منه قريبا من كل أطرافه.. وكلما كبر الطفل بعدت المسافة التى بينه وبين أمه. وعبر هذه المسافات الصغيرة يمد الطفل أعضاءه.. ينظر ويبتسم.. وينتظر القبلات والأحضان والطعام والأمان فى حضن الأم.. فى السرير الذى يشبه حضن الأم: فى النعومة والدفء والأمان..

ويكبر الطفل ويبعد الطفل.. ويمد الطفل يده إلى العالم حوله.. أن أمه قد ابتعدت قليلا. وهذا طبيعي. وهو قد استطاع أن يتحرك وأن يرى وأن يلمس وأن يفهم. وأن يقف على رجليه هو، وليس على رجليها، وينام على سريره هو، وليس على صدرها، وأن يأكل بيده هو، لا من يديها..

ويكبر الطفل ويصبح كل شيء حوله بحساب.. أو عليه هو أن يعمل حسابا لكل شيء وأن يتحفظ هو وأن يتحفظ الذين حوله. أنه لم يعد طفلا. ويجب ألا يكون. ولابد أن يتعلم أن هناك حدودا وسدودا وحقوقا وعليه أن يفكر قبل أن يطلب ويفكر قبل أن يأخذ ويعتدل إذا أخذ ويشكر إذا أكل. وينتظر وربما كان الفارق بين الأطفال فى عالم الانسان وعالم الحيوان، أن طفولة الانسان أطول. وصلته بأبويه أعمق. ففى عالم القرود ـ أقرب الحيوانات إلينا ـ نجد أن القرد إذا كبر فإن أمه تطرده. وهو منذ هذه اللحظة لا يصبح ابنها. وإنما يصبح واحدا من الذكور المتنافسين عليها، أى يصبح غريبا عنها. انتهى كل شيء!

ولكن الطفل أو الشاب أو المراهق أو الرجل يظل على صلة بأمه ونساء آخريات يحاول أن يجد الزميلة والصديقة والخطيبة والحبيبة والزوجة. ولا يمكن أن تكون الصلة التى بينه وبين أمه هى صلة زمالة. وإنما هى صلة حب. كل الحب؟ طبعا لا.. بعض الحب فهو فى حاجة إلى حب من نوع آخر. والأم قد تطور حبها، ثم أن لدى الأم أبناء آخرين يشغلونها. ثم أن الابن لا يستطيع أن يظل على حجرها أو على صدرها.. لقد كبر واتجه إلى صدور أخرى وحياة ثانية وبيت جديد..

وإذا كان الطفل قد اعتاد على الحب، نوع معين من الحب، حب العطاء الدائم فإن الحب بعيدا عن الأم سيكون من نوغ آخر. أنه حب كرة القدم:

هات وخذ.. يعطى ليأخذ. أو يعطى وهو يأخذ.. تمـاما كمـا يحـدث فى القبلات.. فأنت تأخذها وتعطيها فى نفس الوقت!

فكيف هذا الحب بعيدا عن الأم!

هذا هو السؤال الذى يواجه الطفل إذا كبر. كيف يبدأ كيف يسـتمر؟ كيف يتم أو كيف نقع فيه أو كيف يقع لنا أو يقع علينا؟

ونحن أطفال كل شىء قريب. ونحن كبار فكل شىء بعيد.. ونحن أطفال كل شىء حاضر وجاهز. ملتصق. ونحن كبار فكل شىء هناك بعيد ينتظرنا لنذهب إليه كيف تبدأ العلاقة بالجنس الآخر. كيف تبـدأ ؟ كيف تمضى؟ كيف تقوى؟ كيف تثبت؟ هذا هو السؤال أيضا.

يقول العالم الانجليزى دزموند موريس فى كتابه «السلوك الودى» وهو من أمتع الكتب التى صدرت هذا العام:

إن هناك اثنتى عشرة مرحلة لكى يكون هناك حب. والانسـان لا يمـر بهذه المراحل واحدة واحدة. وإنما من الممكن أن يقطعها الانسان بسرعة تتفاوت من شخص إلى شخص. وهذه المراحل تبدأ بأن ينظر إنسان إلى جسد امرأة. وبعد ذلك إلى وجهها وإلى عينيها.. ثم يلمس يدها وذراعهـا وكتفها.. الخ.. ويعانقها ويقبلها.. ويحبها ويتزوجها بعد ذلك.

والكاتب الانجليزى يرى أن هذه المراحل لا ينطلق فيها الانسان بهـذا الترتيب وإنما هذا الترتيب بقصد الشرح والتوضيح فقط

وشاعرنا شوقى أشار إلى ذلك عندما قال: نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء.. فلقاء يكون فيه دواء، ولقاء يكون فيه الداء.. إلخ.

والانسان يقع فى الحب كما يقع من السرير، أو كما يقع من النافذة.. كل واحد حسب ظروفه. والمثل الأسبانى يقول: وقع واقفا، أو وقع جالسا، أنه وقع فى الحب! أى لا يهم كيف وقع، المهم أنه وقع. والحب وقوع.

والمرحلة الأولى هى: النظر إلى الجسم..

فالانسان يبدأ عادة ينظر إلى امرأة من بعيد.. وبسرعة يقوم عقله بعمليات حسابية. فيقول: طويلة.. قصيرة.. شقراء.. سمراء.. رشيقة.. ويدخل فى تفاصيل الرشاقة.. أنيقة.. ويناقش مفردات الأناقة.. قصيرة.. غبية.. ربما كانت المرأة أسرع من الرجل فى النظرات الخاطفة السريعة والتى تلم بكثير من التفصيلات. فالمرأة مدربة تدريبا غريزيا على النظر من بعيد، والتظاهر بأنها لا ترى.. فهى بسرعة تكون قد عرفت أن كان قميصك قد نقص منه زرار، أو أن حذاءك لامع مثل أظافرك مثل أسنانك.. وأن كان شعرك ناعما أو خشنا.. وإن كنت تلميذا غلبانا، أو والدا لتلاميذ وأنك غلبان.. والمرأة عندها قدرة شيطانية على أن تعرف بسرعة فائقة أشياء كثيرة فى وقت قصير من مجرد النظر إليك. ولو حاول رجل أن يقتل امرأة بسكين وكان ذلك مفاجأة. فإن هذه المفاجأة وهذا الرعب لا يضعف من قدرتها على الملاحظة. فهى تستطيع أن تقول بعد ذلك أن السكين كان صدئا، وأنه سكين بصل، فقد كانت فيه رائحة البصل وأنك وأنت تمسك السكين كان هناك بعض الصابون على ذقنك وأنت لم تكمل حلاقة جزء من الجانب الأيسر من شفتك العليا ـ مع أن العكس لو حدث للرجل، فإنه ينسى أن كانت المرأة التى تريد أن تقتله قد أمسكت سكين بصل أو سكين ورق.. وينسى ان كان هذا شعرها أو باروكة ـ أنه لا ينسى ولكن قدرته على ملاحظة الجزئيات وبهذه السرعة الهائلة، لا ترقى إلى مستوى قدرة المرأة، أية امرأة، أو ضابط المباحث الجنائية!

والانسان يكون حرا إذا نظر إلى جسم امرأة، لا تراه، ولكن إذا أحست المرأة وهذا يحدث كثيرا، بأن رجلا ينظر إليها، فنظرت إليه فأنه يحول عينيه بعيدا عنها. كأنه يعتذر أو يتوارى ــ أو يريد أن يقول أنه لم يقصدها. وإنما يقصد واحدة أخرى وقفت بعيدا.

وعلى الرغم من أن المرأة تعلم أنها ستكون ملتقى العيون، وأنها وقفت أمام المرأة ساعات تنظر إلى نفسها بعيون الآخرين، فإن النظر إليها يضايقها. أو على الأصح اختلاس النظر يضايقها.. أو أصح من ذلك، النظر غير المرغوب هو الذى يضايقها.. وليس شيئا قليلا أن ينظر رجل إلى المرأة. أن كثيرا من الكلام الصامت يقوله لنفسه. فالرجل يملأ عينيه من كل الألوان والخطوط والانحناءات. ويقول ويبتلع ريقه. والمرأة أيضا. ولكن هناك أناسا يملأون العين بسرعة.. وهناك أناسا ينظرون وكأنهم يملأون العين على مهل.. وتجىء عملية الملء مثل عمليات تعبئة جوالات البصل : واحدة واحدة.. فنجد الرجل غالبا ــ والمرأة نادرا ــ ينظر إلى أعلى. وإلى الوسط. وإلى أسفل. على مهل شديد. ويضع كل واحدة فى الجوال.. وأحيانا يغير رأيه فيلقى بالأشياء ويبدأ من جديد..

وهناك أناس يلتقطون الجسم، كما تلتقط الكاميرا الصورة.. فى خطفة عين أو ومضة عين. وبسرعة هائلة تكون لديهم كل المعانى. وأكثر من ذلك يتحولون من مجرد النظر إلى الجسم خلسة، إلى النظر إليه علنا.. أى على مرأى من صاحبة الجسم وبعلم منها..

وهذه النظرات لا تخلو من معنى.. لذلك اتخذت الأديان موقفا عدائيا من النظرات والرغبات أو النظرات التى هى رغبات.. أو النظرات الراغبة أو« الرغيبة ».. والرسول عليه السلام يقول : لك الأولى وعليك الثانية ــ أى

أن النظرة الأولى العابرة التى تخلو من الرغبة، لا بأس منها، ولكن النظرة التالية المتأنية المتفحصة هى التى ينهى عنها، لأنها ليست مجرد نظرة وإنما هى نظر وفحص وارتياد ولمس بالعين.

والمسيح عليه السلام يقول أيضا : من نظر إلى امرأة فاشتهاها فكأنه زنى بها !

والتوراة عندما روت قصة آدم وحواء جعلتهما يستنكران أن يرى كل منهما الآخر عاريا أو ينظر الواحد إلى الآخر وهو عريان. مع أنهما زوجان أو أب وابنته التى خرجت من ضلعه.

وفى التوراة أيضا أن نوحا عليه السلام عندما شرب النبيذ، نام على الأرض وتعرى وسخر ابنه منه.. وجاء اثنان من أبنائه والقيا عليه الغطاء. ولما صحا الأب وعرف ما فعله حام ابنه لعنه بأن يكون أسود الوجه، وأن يكون أولاده كذلك. لماذا ؟ لأنه ما كان يجب أن يرى جسدا عاريا، أن يرى أباه ولا يخجل ويتأنى فى النظر إليه.. فهذه النظرة مليئة بالكلام.. مليئة بالمعانى التى تؤذى شعور الأب.. أما الولدان الطيبان فقد كانت نظراتهما عابرة. أما كانت لهما نظرات مليئة بالأسف على الأب، والأسف للابن..

فكل شىء يبدأ بالعين التى ترى.. والتى تقدم لنا معلومات عن الخطوة التالية.. فكيف تتصرف بعد ذلك؟ هل تتقدم خطوة. أو تختصر الخطوات كلها ونقفز إلى النهاية أو نقفز على النهاية.. والناس يفضلون النظرات المتفرجة من بعيد.. ولذلك يجدون لذة فى المشى فى الشوارع أو النظر من النافذة.. فهم يرون الكثير فى وقت واحد.. ويفضلون الذهاب إلى الشواطئ فالعين تمتلئ من كل الناس، وليس من واحد بالذات.. ويذهبون إلى

السينما ليشاهدوا أناسا على الشاشة.. يشـاهدون أنـاسا لا يعـرفونهم ولا يرونهم ويقرأون القصص. وفى القصص نظرات إلى العراة والعـاريات. وهى نظرات آمنة مطمئنة فأنت ترى من لا يراك ولا يحس بك.. ويقلبون فى المجلات العارية على مهل وفى أى وقت وبحرية كاملة..

وفى فبراير سنة ١٩١٢ عندما فـوجئ النـاس فى بـاريس بـأن راقصات «الفولى برجير» قد توقفن فجأة على المسرح ونـزعن مـلابسهن تماما وانطفأ النور. لقد كن عاريات: لحظة واحدة اهتزت بـاريس لـذلك وغيرها من العواصم الأخرى.. لماذا؟ لأن شيئا ممنوعا قد أبيح فى ثـانية واحدة. ولأن العيون صدمت، فهى لم تتهيأ لهذه الشـحنة الخـاطفة. أو الشحنة المخطوفة.. فكأن الراقصات لم يقدمن شيئا، وإنما سرقـن مـن الناس شيئا. هذه السرقة العارية المتفق عليها هى التى هزت الناس..

ولا تزال النظرات المتأنية، سرقة متأنية أيضا!

وإذا مضينا فى مراحل تكوين علاقة بين رجل وامرأة، فـإن المـرحلة التالية ستكون: النظرة من العين إلى العين.. وهذه النظرة أجـرأ. أو أن هذه النظرة قد اتخذت على أساس معلومات جمعتها من نظرتك الأولـى، فأنت قلت لنفسك: ممكن. أى يمكن أن تـذهب فى نـظراتك، أو فى بنـاء علاقاتك الجديدة، أو مغامراتك القادمة، على أساس أن تراها.. أن تـراها فى وجهها لتراك: أو على الأصح: أن تريها أنك تراها.. وأن تريك هى أنها تراك وأنها تعلم ذلك وتشجعه أو ترفضك وأن عينيها إشارات مرور حمراء. أى لا تتقدم. أو أن رموش عينيها سكاكين تقطع كل صلة تحاول أن تمدها إليها.. والأغنية الشعبية التى تقول: ورمش عين الحبيبه يفرش على فدان، لم يكن المقصود أن رمش عينها طويل وعريض فقط، ولـكن أن عينيهـا

قد رحبت وفرشت هذه المسافة الهائلة ليتقدم المحبوب.. فهى التى أقامت الجسور وفرشت الأرض ودعت ورحبت وانتظرت!

وأنت لا تستطيع أن تنظر إلى فتاة «عينى عينك» دون أن يكون هناك معنى .. وفى استطاعتك أن ترى ذلك فى الأتوبيس أو فى الأسانسير أو فى السينما.. جرب وأنت تنظر إلى أى وجه رجل أو امرأة. فإنك ستجد نفسك فى حرج شديد.. لماذا تنظر إلى عينيه مرة ثانية.. ولذلك تجد معظم الذين يركبون معا يحاولون النظر إلى أية جهة أخرى.. فالذين يركبون الأسانسير معا ينظرون إلى السقف أو إلى الأرض.. أو إلى أى شىء آخر إلا وجوه الذين حولهم. لأنه لا معنى. لا ضرورة. وكذلك لا تستطيع أن تنظر إلى عينى فتاة إلا إذا كانت هناك أسباب قوية. إلا إذا كان هناك اتفاق صامت عابر معناه: لا مانع أن تنظر أنت وأن أنظر أنا..

فإذا فلتت من العين ابتسامة.. عين الفتاة. كانت هذه الابتسامة إضاءة للطريق بينهما. تماما كما تدق على باب شقة. فينظرون من فتحة الباب، فيرحبون بك.. فيضيئون النور ويفتحون الباب.. ويصبح الباب المفتوح ذراعين يحتضنانك أى: أهلا وسهلا.

والمرحلة التالية أن تجد نفسك قد اقتربت وقلت شيئا. وهذه مرحلة: الصوت للصوت.

أى أن تكون مسموعا وتكون هى مسموعة.. ومن صوتك تعرف هى، ومن صوتها تعرف أنت، أى نوع من الناس. ذوق. مهذب. متعلم. رجل. لك تجارب أو خام. كل ذلك من الصوت. وعندما تتكلم يظهر فمك وأسنانك.. ويلمع وجهك كله.. وتتحرك قسماتك.. ومع حركة القسمات تبدو أنت أوضح.. يدا وجسما وقلبا..

والمثل يقول : والعين تعشق قبل الأذن أحيانا. ومعناه أيضا : أن الأذن تعشق قبل العين أحيانا.

فإذا كانت العين قد عشقت والأذن أيضا، فأنت تمضى فى طريق مفتوح

ويحدث كثيرا أن تسمع فتاة وراءك أو أمامك. ويعجبك كلامها. أسلوبها. نبرة صوتها. وهذا الاعجاب بالأذن يجعلك تستدير لترى وتسمع..

ويحدث أن تخطئ فى طلب رقم تليفون وترد عليك فتاة.. ويعجبك صوتها وتلتصق أذنك بالتليفون لعلك تعرف صورة صاحبة الصوت. أى لعلك تضم« الضوء إلى الصوت » معا، لتذهب إلى أبعد من ذلك..

ومن الغريب أن صاحبات الأصوات الجميلة فى الدنيا لا يملأن العين، وان كن ملأن الأذن وزيادة. وفى استطاعتك أن تستعرض صاحبات الحناجر الذهبية من الرجال والنساء. ولكن الأذن تعتذر للعين. بل أن الأذن إذا امتلأت أغمضت العين.. وتحول العينان إلى أذنين أيضا.. كأننا نسمع ولا نرى. وليس من الضرورى أن نرى. فإذا امتلأت الأذنان فاضتا على العينين. حتى أقفلت العينين تماما وأسعدنا ذلك!

والشاعر الأعمى هوميروس كان يقول للطيور: غردى حتى أراك!

وكان يرى الطائر الجميل الصوت جميلا، ويرى قبيح الصوت قبيحا. أنه يرى بالأذن!

والحادثة المشهورة لنابليون عندما قرر أن يطلق زوجته جوزفين.. استدرجها إلى قصر مالميزون. وسار الاثنان فى الحديقة معا. وسبقها نابليون بخطوة. وتوقف فجأة أمامها واصطدمت به.. وحاولت أن تقف فى مواجهته فقال لها: جوزفين. لم يبق أمامنا شىء يجب أن أطلقك!

وابتعد عنها خطوة. فقالت له : ولكن أريد أن أراك وأنت تقولها !

وهى خبيثة تعرف أنه ليس أسهل من أن يقول الانسان ويخفى عينيه.. ولكن ما أصعب أن ينظر إلى عينى غيره. وأن ينظر إليه غيره. أنها أرادت أن توقعه فى مصيدة نظراتها، ولكنه هرب بعيدا عنها..

وعادت تقول له : أننى أستطيع أن أرى وجهك الآن.. أنه مزيج من الوقاحة والخجل !

إنها سمعته ورأته فى نفس الوقت ! ولكن مثل نابليون لم يكن يخجل مما يقول أو يعمل أنه ملك ملوك العصر الحديث. واعتدل نابليون ليقول لها : فى استطاعتك أن ترى الصورة كاملة.. أننى أطلقك !

وتجىء مرحلة ثالثة وهى أن يحاول الانسان ـ عادة ـ أن يقترب أكثر فيلمس يديها.. وهى مرحلة : اليد لليد.. نلمسها بالسلام. ويكون السلام عابرا خاطفا. ولكن هذا اللمس العابر فيه أول لقاء جسمى بين الاثنين. وقد يشعر الرجل بشىء ولكن المرأة التى ركبت الطبيعة على كل خلاياها عيونا الكترونية تقوم بعمليات حسابية سريعة أن يده خشنة.. باردة أو ساخنة.. لينة.. أو جامدة.. فيه رجولة.. أو أنوثة.. فيه شجاعة أو جرأة.. فيه أدب ورقة.. هو مؤدب ككل الصيادين ـ انظر إلى صياد السمك كيف ينتظر هادئا بالساعات فإذا «غمزت» السنارة تحول إلى وحش !

إن الرجل عادة عندما يمد يده فإنه لا يفعل أكثر من أن يمد يده.. ولكن المرأة عندما تمد يدها تكون قد مدت ذراعا أقرب ما تكون إلى

« الايريال » لتعرف أكثر وتسمع أكثر وتشم أكثر وتعطى أكثر.. وتأخذ أكثر..

لابد أن الفنان المجهول الذى رسم تمثال فينوس الشهير لم يشأ أن يجعل لها ذراعين. وإنما جعلها جميلة بعيدا هناك تمتد إليها الأيدى ولا تمد هى يدا واحدة.. يتقرب إليها الناس ويقتربون.. وتبقى هى هناك تنظر وتنظر. ولا يعرف أحد أن كانت تريد أو لا تريد.. أنها أمامهم وهذا يكفى. وعندما لم يبق من تمثالها إلا جسمها بلا ذراعين ولا رأس، أحس الذى يراه أنها أيضا قررت أن تلغى تفكيرها.. فى شىء أو فى أحد. أى لا تبادل أحدا أى شىء أو أى حس أو أى معنى.. وبذلك يصبح وجودها انكارا واستنكارا لأى إنسان يصرخ ولا يجد صدى، يقول ولا يجد أذنا، يفكر ويجد عقلا.

وبعد ذلك تتوالى مراحل القرب والاقتراب واللمس العابر واللمس العميق من الرجال والنساء ـ فى كل مكان لتكون هناك علاقات إنسانية زوج وزوجة. وأب وأم.. وأطفال من جديد يبحثون عن بديل لأحضان الأم. ويكون حب أو لا يكون حب.. ويكون النظر خاطفا أو عميقا، ويكون السلام لمسا أو عناقا.. وفى زحام الحياة والناس تطيش المعانى وتضيع الأهداف.. وتزداد التوابل فى الطعام، والعرى فى الكلام والأغانى والأفلام.. ومعنى ذلك أن العين فى حاجة إلى من يثيرها وإلى من يشهيها.. ومعنى ذلك أيضا أن الاحساسات قد تبلدت وبردت وتجمدت. وأن الحياة هى الاحساس. ولذلك يجب ايقاظه. وإذا كنا نستنكر العرى وفى نفس الوقت نصر عليه. فكأننا نقول أيضا : أنه لا يزال شيئا مرغوبا، وأن كان الناس يخجلون من ذلك. أو يكذبون وينافقون. ولكن الحياة سوف تستمر. أراد الأحياء أو لم يريدوا..

وليس الحب ـ أعمق العلاقات بين الجنسين هى «مصنع» بناء الأجيال.. أو الحضن الدافىء الآمن لخلق محبين جدد.

والجيل الذى يصنع العرى وينبذه هو الجيل الذى يبتدع الصراحة وينكرها. ويصدق فى التعبير عنها، ويكذب فى تفكيرها.

وقديما عندما رسم الفنان العظيم مايكل انجلو لوحة المحاكمة الأخيرة للمسيح فى القبة المسدسة لكنيسة القديس بطرس جعل المسيح والعذراء والحواريين عراة.. وجعل الشياطين أيضا.. وثار بعض رجال الكنيسة والبابوات. وكان لابد من تغطية الأجسام المقدسة. وجاء واحد من تلامذته ووضع بعض القماش على أصحاب القداسة وأصحاب النجاسة أيضا.. أن هذا العمل الفنى العظيم قد أدان العصر كله. وأدانه العصر أيضا. ولكن بقى الاثنان فى وقت واحد. بقى الفنان العظيم، بلوحته الرائعة، وبقى الكذب العظيم بأقمشته الضئيلة الواهية..

وعندما أقام السنيور ماسيمودلا أربيته أحد النبلاء وليمة كبرى احتفالا بعودة الفضيلة إلى هذه اللوحة، لاحظ واحد من الشعراء أن المدعوين قد أكلوا وشربوا بسرعة. فقال جملته الباقية: إنكم ابتلعتم الطعام ولم تشعروا له بلذة.. واخفيتم النبيذ فى بطونكم ولم تعرفوا له طعما.. إذن.. لقد بدأ العصر الذى يفضل فيه الناس: الخبز على القبلات!

وهى نفس العبارة التى تتردد على كل الأفلام النفسية: أننا فى عصر الآلة.. فكل شىء يتم بصورة عادية ـ أى كأنه عادة ـ السلام والكلام والحب.. فالناس يأكلون أو يتأكلون ولا يعرفون القبلات.. يمارسون الحب ولا يحنون إلى الحنان..

إن الناس يصنعون العلاقات.. الصلات.. الارتباطات.. الرباطات.. ويتقيدون بها، ولأنها قيد، يتخلصون منها.. وينسون أن الحياة هى كل معانى الحب.. وأن الحب وحده لا يكفى!.

هذه الحركات باليد
ودلالتها الغـريبة !
(٦)

إذا قلت أن الانسان حيوان، فأنت تقول أن الانسان سيارة أو طيـاره بلا فرامل ولا عجلة قيادة. ولذلك يجب أن تقـول أن الانسـان حيـوان اجتماعي.. أي أن المجتمع هو الذى يربطه ويضبطه ويـوجهه ويعتـرضه ويعترض عليه..

ولكن لا يستطيع الانســان أن يعيش بمفـرده ـ وإذا اسـتطاع بعض الوقت، فلكي يعود إلى المجتمع أكثر عطشا وجوعا.. وإذا أرغم على العزلة كل الوقت فهو سجين لأنه مجرم أو سجين لأنه مجنون.. أما إذا استطاع ذلك واحتفظ بعقله فهو راهب.. وهو استطاع ذلك لأنه لـم يعـد حيـوانا ولا إنسانا، وإنما هو كافر بالاثنين.

وإذا ما كان هناك اناس، كان هناك كلام. وإذا لم يكن الكلام ممـكنا، جاءت الاشارات من بعيد تؤدى عمل الكلام. وهذه الاشارات باليد وبالرأس وبالوجه كلها تقول كلاما. وهذا الكلام بلا صوت أى بلا حـروف. ولـكن المعني قد تسلمناه من المجتمع. والمجتمـع قـد اكتسـبه بعـد عشرات

السنين. مثلا، لاحظ ما يفعله النّاس ساعة الوداع فى المطار أو فى الميناء أو ما تفعله عندما تغادر صديقا فى المستشفى وهو ينظر إليك من النافذة أو من بين أسلاك السجن أو ما تفعله الأم وهى تودع طفلها الذى ذهب إلى المدرسة لأول مرة.. ما هذه الأشارات باليد وبالذراع وبالعينين والحاجبين والشفتين.

كلها تدل على شيء واحد : على أن هناك لمسا باليد من بعيد. هذا اللمس البعيد له معنى. قد لا يتوقف الانسان عند هذا الذى يفعله كل يوم دون تفكير. ولكن الذى يريد أن يفهم السلوك الانسانى كيف يكون وكيف تعقد، وما دلالته، يجب أن يتوقف ليفهم هذا السلوك وغيره. من الأفعال وردود الأفعال الانسانية.

مثلا : ما الذى تقصده أنت عندما يزورك زميل أو صديق.. فإذا بك تربت بيدك على كتفه أو على كرشه أو تضربه على ظهره.. أو على قفاه مداعبا.. ماذا تعنى بذلك أو ما الذى تقصده عندما تبتسم له لمجرد أنك رأيته.. قد لا تبتسم ولكن ماذا يحدث لو أن رئيس دولة قابل رئيسا آخر لم يبتسم له ـ أنها أزمة دولية. وهذا هو التفسير الوحيد لصور الزعماء الضاحكة فى المناسبات الرسمية. لأن «تكشير» الزعماء له دلالات خطيرة..

ولكن الضرب على اليد والظهر والكتف كلها أنواع من اللمس الرقيق.. لا هو ضرب ولا هو سلام وإنما هو مداعبة.. معناها : أن كل شيء يكون أو سوف يكون بهذه الرقة.. وليس من المألوف أن يقرص الرجال بعضهم البعض، فى أى مكان ـ ولكنها عادة مألوفة عند النساء.

الطفل هو الوحيد الذى تستطيع أن تلمسه فى أى مكان من جسمه. ولا يلومك أحد ولكن إذا كبر الطفل أصبحت هناك مناطق لا يصح لمسها

ـ لا هو يلمسها ولا أنت ـ وإلا كانت هناك معان جنسية شاذة أنت لا تقصدها.

والرجل الكبير فى السن من حقه أن يداعبك دون أن تحمل مداعباته أو ملامساته أى معنى. فالرجل الكبير فى السن قد أصبح فوق مستوى الشك. عاجزا تماما كأنه طفل وكذلك رجل الدين. فرجل الدين له حريات فى اللمس لأنه فوق مستوى الشك أيضا أو من الواجب أن يكون كذلك. أننا لا نزال نذكر يوم مقتل الرئيس كنيدى عندما اقترب رجل الدين وأمسك يدى جاكلين كنيدى طويلا حتى ضايقها ـ أنه استغل الموقف ـ وبدلا من أن يرتفع إلى ما فوق الشبهات نزل عن مستوى الموقف وتجرد من مسوحه الدينية فلم ير إلا امرأة. ومعروف فى ذلك الوقت أنها صرخت ولعنت القسيس!

وكثيرا ما يلجأ الرجال إلى حيل معروفة. من بينها أن يقول الرجل عن امرأة: أنها مثل ابنتى.. وبهذه العبارة يعطى لنفسه تصريحا بأن يلمسها بيديه.. عنقها أو ذراعها.. وربما أحست المرأة أنه كالأب بالفعل فلم تشعر له بأى دلالة جنسية. ولكن هو الذى يجنى هذا المعنى الذى أخفاه وراء ادعائه الكاذب.!

ومن الممكن أن تصطدم الفتاة فى الطريق العام. وتهبط بسرعة من سيارتك وتقترب منها وتلمسها وتقول لها: إن شاء الله سليمة!

وحتى لو قالت أنها سليمة. فأنك أحيانا تحاول أن تنهضها أو تحملها بين ذراعيك.. والموقف يجعل أسلوبك بريئا، ولكن الحقيقة غير ذلك.!

ومن الممكن أن تجد فتيات يهجمن على لاعبى كرة القدم، أو الممثلين أو المطربين ويلمسهن بأيديهن إعجابا.. ولا أحد يعيب عليهن ذلك. ومن

المؤكد أن اللاعب ينسى الدلالة الجنسية بهـذا اللمس ولـكن ليس مـن الضرورى أن يكون ذلك احساس الأخريات!

ثم ما معنى التصفيق! وما معنى أن نضرب يدا بيد ـ نحن نضرب اليد اليسرى باليد اليمنى عادة. فالتصفيق هو نوع من العناق. فـأنت عنـدما تعانق الشخص فانك تضم ذراعيك حواليه. ولكن عندما لا تجده فأنك تضم الهواء الذى بين اليدين. ومن الممكن أن تشير بيديك متماسكتين لشخص من بعيد لتقوله له هذا المعنى ومع العناق يحدث هذا الصوت المعـروف. فالتصفيق هو عناق مسموع لشخص بعيد. والعالم كله يذكر ماذا حدث يوم وقف رائد الفضاء السوفيتى جاجارين فى الميدان الأحمر يتلقـى تحيـات الشعب. فقد كانوا يمرون أمامه ويصفقون واحدا واحدا. كأنهم يعـانقونه واحدا واحدا.

وفى الهند يقف الزعيم أمام الملايين وقد ضم يديه معا ثم يجعل اليدين قريبتين إلى صدره. ومعنى ذلك أنه يعانق الملايين ويضمهم إلى صدره

أذكر أننى فى أول لحظة وصلت إلى أحد الفنادق الهنـدية كان التيـار الكهربى مقطوعا فوقفت خارج الغرفة أصفق للخادم. وجاء خادم واثنـان وثلاثة ووقفوا ينظرون دون أن يتقدم واحد منهـم نـاحيتى ولـم أفهـم. وسألتهم لماذا لا يردون فقالوا: ولكنك لم تطلب أحدا فقلت: أننى أصفق؟ فقالوا: بل ظننا أنك تريد أن ترقص، وتوقفنا نتفرج!

فالتصفيق نداء لشخص بعيد أيضا عندنا. ولكنه فى الهند ضبط لايقـاع الرقص نحن فى المسارح نصفق للممثلين. والممثلون فى روسـيا والصـين يصفقون للجماهير أى يردون على التحية بالتحية، وعلى العنـاق بعنـاق أيضا. فالتصفيق هو لمس من بعيد.

وهناك الانحناء أيضا. ما معناه؟ معناه أن الانسان فى حالة احترام أو خشوع أو الذل يحاول أن يبدو صغيرا. ولذلك ينحنى. والانحناء يجعل جسمه مكتوما. أى أقل من حجمه العادى. وكذلك تفعل الحيوانات عندما تتكوم عند أقدامنا وبعد ذلك تتمسح فينا وتقبل أقدامنا. فهذه الحيوانات تتضاءل.. أى أنها تريد أن تقول أنه لم يعد خوف منها فهى، أصغر، بل هى صغيرة، بالفعل. وأننا نحن الأكبر والأقوى.

وأن هذا التضاؤل من جانبنا هو نوع من الاحترام للآخرين. والآخرون يفعلون نفس الشىء. ففى اليابان ينحنى الانسان مادام حيا. فى الشارع يتوقفون وينحنون وعلى مائدة الطعام نقول لصاحبة البيت: شربة الصراصير هذه لذيذة، فتنهض السيدة وتنحنى شكرا. وكذلك زوجها. وتنحنى أنت الانحناء للجميع.. وراقصة الباليه تنحنى فى نهاية الفصل أو فى نهاية كل رقصة. وهذا الانحناء هو دعوة للجمهور أن يصفق لها وهى تنحنى بأن تقدم رجلا وتؤخر أخرى.. والرجال والنساء يفعلون نفس الشىء. وليس سبب ذلك أن هناك مساواة بين الرجال والنساء. ولكن سببه أن عادة الانحناء هذه قديمة منذ كان الرجال يؤدون أدوار النساء على المسرح.

وهناك الانحناء الذى يشبه الركوع أو الذى يشبه السجود. بعض الشعوب تفعل ذلك لرؤسائها وملوكها.. ويفعلون ذلك لله أيضا.

ومن شذوذ الامبراطورة تيودورا زوجة الامبراطور العادل جوستنيان أنها تكره خضوع الرجال ـ وهى لم تكن على علاقة برجل واحد. بعشرات ولذلك كانت تحتقر العلاقة المتعطشة المتسولة والأيدى المستطلعة والأرجل المرتجفة. ولذلك كانت تأتى بعشرات من الخدم ينزعون ملابسها كلها.

ويلقونها على الأرض.. ثم يرمون فوقها بحبات القمح.. بمئات الألوف من الحبات.. ثم يطلقون عليها عشرات من الأوز الجائع يلتقط الحب فى شراهة!

وتقول تيودورا: لأننى أكره الرجال وأيديهم المرتجفة وخشوعها الكاذب!

وفى ساعات الوداع ترى الناس يضمون أيديهم للوداع.. كأنهم يضمون الذين يودعونهم ويقبلون أيديهم ثم ينفخون القبلات فى الهواء كأنهم يقبلون الهواء الذى يفصل بينهم.. أو كأنهم يبعثون إليهم بالقبلات الطائرة ــ وكل ذلك لمس من بعيد..

وهناك التقبيل للصديق وللزميل وللابن، وتقبيل الامتنان والاعجاب.

لقد فزع الانجليز عندما شاهدوا لاعبى كرة القدم من أمريكا اللاتينية.. وجدوهم يتعانقون ويقبلون بعضهم البعض. لقد ضاقوا بهذا الشذوذ. فالانجليز فى ذلك الوقت يرونه شذوذا منفرا.. ولكن إعجابهم ببراعة اللاعبين. ثم إدراكهم للمعنى وراء ذلك جعلهم يعتادون عليه.. ثم يفعلونه الآن.

وهناك تقبيل بالمواجهة. شخص يواجه شخصا ويقبله فى وجهه أو على جبينه أو على خده أو على عنقه. ولابد أن تقبيل كتفى المرأة سببه أن الرجال نسبيا أطول من النساء.. فهذا التقبيل الودى هو الممكن عند المواجهة. فلا هو تقبيل حقيقى ولا هو مصافحة ولا هو عناق.. وإنما هو شىء من ذلك كله!

وهناك الامساك باليد.. أو بالذراع..

وهناك من يصافحك فيظل ممسكا بيديك فترة طويلة. بعض الناس يضيق بذلك. ويرى أن هذا ليس مصافحة وإنما هو اعتقال. بعض البلاد

العربية تصر على ذلك. وهناك من يمسك بـذراعك.. أو يضـع ذراعـك فى ذراعه.

والشعوب تختلف فى فهم ذلك.. فلو فعل ذلك رجلان فى أوروبا، لرأوا فى ذلك شذوذا. لأن المألوف أن تفعل الفتيات ذلك.. ومن المألوف أكثـر أن يفعل الرجل والمرأة ذلك. والمرأة عادة هى التى تضـع ذراعهـا فى ذراع الرجل بل وتطلب ذلك!

ولكن إذا حدث هذا كله بين المحبين فالمعنى مختلف. والـطعم غيـر ذلك. والأغنية تقول: هات إيديك ترتاح للمستهم إيديه.. فـاللمس مـريح. والمعنى أبعد من ذلك طبعا ولكن هذا هو الذى يمكن أن يقال فى أغنيـة على لسان سيدة!

وبعض الكباريهات الأوروبية تطلب من روادها أن يضعوا أيـديهم وأن يتعانقوا وأن يسايروا الأغنية قبلة قبلة ـ ومعنى ذلك أن الأغنية تـريد أن تكافئ الجمهور على أنه استمع إليها. وأن تكون المكافأة فورا!

والناس يقبلون الأشياء أيضا.. فمن يقبل المصحف الشريف ومن يقبـل الكتاب المقدس أو ايقونة ـ تمثالا صغيرا ـ للمسيح أو العذراء أو أحـد القديسين. والمعنى هنا هو احترام وتقديس وبركة.

وهنا من يقبل خاتم القسيس.. أو خاتم البابا ـ ولنفس المعنى أيضا.

وبعض اللاعبين يقبل «زهر» الطاولة.. وتقبيل الزهر، هو تقبيل الحظ أو القدر.. أو هو تقبيل العناية الالهية.. وهذا التقبيل هو نوع من الـرشوة. ظاهرها الاحترام. ولكنه احترام مشروط. والشرط هو: أن اللاعب يحتـرم القيم العليا، إذا هى ساعدته على أن يكسب خصمه!

وكان شعراء الطروبادور ـ أى الطرب ـ الأسبان والفرنسيون يقبلــون جدران بيت المحبوبة. ويقبلون الأرض تحت قدميها.. والشـــاعر العــربى القديم قال:

أمر على الديار ديار ليلــى أقبل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار ملكن قلبــى ولكن حب من سكن الــديار

وعندما كان نابليون بونابرت يمر فى شوارع القاهرة لمح فرنسية كانــت زوجة لأحد ضباطه استدعاها. وبعث بزوجها بعيدا عن مصر ووقــع فى أسر الانجليز وقتلوه. ولكن هذه الفرنسية قالت لــلامبراطور: أى شـــىء إلا أن أقبل يدك!

وكان من عادة نابليون أن يستمتع بهوان النساء وذلهن. ولــكن هــذه المرأة رفضت أن تكون عشيقة مهانة.

وفى الهوان والذل نحن نقول: حتى لو قبل حذائى. أو قبل التراب الذى يمشى عليه حذائى.

والأغنية تقول: أبوس القدم وأبدى الندم على غلطتى فى حق الغنم!

وهو منتهى الذل والهوان أيضا.

وهناك الشىء العادى جدا بيننا وهو: المصافحة. والمصــافحة تــكون عابرة. وتكون رقيقة وتكون عنيفة. وكل واحدة لها معنى عندنا.

وتقول كتب الاتيكيت: الرجل لا يصح أن يمد يده للمــرأة ليصــافحها وإنما الذى ينتظرها أن تمد يدها.. وتقول كتب أخرى: بل يجب أن تبــادر أنت وتتقدم إليها، وتمد يدك..

وتقول كتب الاتيكيت: إن الشاب لا يمد يده إلى الذى أكبر منه سـنا. بل عليه أن ينتظر وكتب أخرى تقول: بل امدد يدك إلى الذين هـم أكبـر منك!

حاولت ذلك مع د. ران، وقد كان أستاذ اللغة الألمـانية. وهـو رجـل سويسرى وقد قابلته بعد تخرجي فى الجامعة بسنوات. مددت يدى وقلبـى كله فى أصابعى ولكن الرجل وقف لا يمد يديه. وأحسست أن الأمطار قـد سقطت بيننا. والجليد أيضا وسمعت الرعد فى أذنى عندما قال لى: ومـن أنت؟

فقلت: تلميذك فلان.

وجاء صوت الرعد مدويا ضاحكا: هه.. كيف حالك؟

وصافحنى ومضى. فهو لم يشأ أن يصافح أى يد امتدت إليه. مع أنـه عاش فى مصر عشرين عاما. ورأى أننا نصافح بعضنا البعض بمناسبة وغير مناسبة ـ بل أننا نصافح التماثيل لو وجدنا أيديها ممدودة!

والمرأة تقبل يد المرأة..

والمحبون لا يتصافحون ـ لأن المصافحة هى ملامسات فاترة لا تليـق بين اثنين علاقتهما من نار.

ومن النادر أن يتصافح الأزواج أيضا ـ لهذا السبب أو لأسباب أخرى كثيرة.

والمثل الشعبى يقول كثرة السلام دليل على قلة المعرفة!

والزوج لا يقصد عندما يصافح زوجته، أن يقول أنه لا يعرفها إلا قليلا.. أو أنه كان يتمنى أن يعرفها قليلا أو ألا يعرفها نهائيا!

ولكن ما هى حدود اللمس المسموح بها اجتماعيا. هناك قيود وسدود وحدود. فمن الممكن أن تكون قبلات بين الرجال والنساء فى المحطات وفى المستشفيات. وهذه القبلات يجب أن تكون ودية عابرة. فهذا هو المسموح به فقط.. ولكن القبلات العاطفية بين المحبين ينكرها المجتمع ويرفضها ويرى أنها جريمة وأنها هتك عرض وقلة أدب، وإذا فعلت ذلك وجدت نفسك مجرما فى حق الآخرين. ومعتديا على القواعد والأصول التى وضعوها. ولذلك يجب أن تكون علاقتك العلنية سطحية مهما كانت حقيقية هذه العلاقة!

ولكن ماذا يحدث إذا أنت قبلت ـ علنا ـ إنسانا عزيزا عليك وبصورة عاطفية. هنا فقط يشعر الناس بالضيق. لأنك اعتديت على احتشامهم ولا لأنك تسللت وراء أسوار الأدب وخطفت ما ليس لك، ولكن لأنك فضحت الناس. فالناس أحوج إلى الحب. وإلى الصدق. وإلى الحنان فليس فى هذه الدنيا أكثر من كل ما هو عزيزى.. وليس أقل من كل ما هو عاطفى! والحب يدعيه الناس فى كل علاقة. الحب يرويه بائع الأحذية وبائع الفاكهة وبائع الدواء وبائع الرقيق الأبيض. كل الناس ليس فى أفواههم إلا الحب، وليس فى قلوبهم إلا الكذب.. وظهور الصدق فجأة، مثل ظهور الضوء فجأة. أنه باهر فاضح أنه ينبهنا إلى ما ينقصنا فى هذه الدنيا.

والناس لا يفعلون ذلك. يكذبون. ينافقون. يخافون. ولذلك يقنعون بالقبلات والاعناق والصدق والحنان من الدرجة الثالثة ـ فهم يتفرجون على الذين احترفوا القبلات على الشاشة.. أى أنهم يتفرجون على صورة صوتية لأناس كانوا فى حالة عناق وقبلات. وبذلك أعطت الناس حقوقها لبعض الناس. ثم راحت تحقد عليهم.

إن عالما يحتاج إلى الصدق فى كل علاقة بين رجل وامرأة. فى كل لمسة ود. وكل لمسة صدق هى لمسة حنان.. وأن لمسة واحدة صادقة لخير ألف مرة من ألف عناق كاذب.

والناس كاذبون منافقون إذا لم يصارحوا أنفسهم بـأن نصـيبنا مـن الكراهية والحقد أضعاف ما عندنا من الحب، وما عندنا من الحـب هـو أضعاف ما عندنا من الحنان ـ أى اللمس الرقيق الرفيق مع كل الصـدق الأمل فى دفء أطهر وأبقى!

.. أطباء وحلاقون
واللمس المشروع !
(٧)

الموسيقار العظيم بتهوفن الذى مات أطرش متفائل رغم ذلك، لأنه قال: ان رحمة الله تتجلى فى حب الانسان للطبيعة وبحثه عن الأصدقاء، فلـولا ذلك لكانت الدنيا جحيما للجميع!

والدنيا تصبح جحيما إذا كانت المسافات بين الناس بعيـدة. وهـذه المسافات لا يملؤها إلا الخوف والقلق. ولـذلك فـالمحبون أشـجع مـن الكارهين. وما يزال العشاق يرددون هذه العبارة فى كل العصور: ان حبها قد أضاف إلى قلبى ألف قلب!

واثنان من الناس لا يستريحان إلا عن طريق الأمان: العاشق والطفل!.

وأمل الناس جميعا ان كانوا أطفالا، أن يكون لهم أمان الأطفـال. وإذا كنا نفطم الطفل عن رضاعة اللبن فإن شيئا آخر لا يفطمه عنه إلا الموت: الأمان.

ولا أمان إلا بالقرب. والقرابة. والاقتراب.

وفى العصر الحديث ازدحم كل شيء حولنا. وامتلأت الدنيا بالغرباء. فأنت لا تعرف من ترى ولا تعرف من يراك فى البيت الذى تسكنه والشارع والمواصلات وأماكن العبادة كلنا غرباء. ولذلك فالمسافات بيننا متباعدة وغير مسموح لواحد منا أن يقترب من أحد إلا بحساب. وكل شيء حولنا كالمصافحة باليد : شكل وعلاقة عابرة وبلا احساس.

إن الكاتب الأمريكى جاك كيرواك هو أول من صرخ من عشرين عاما فى إحدى رواياته ماذا جرى للناس.. أين وضعوا أيديهم.. لقد قطعوها ثم دفنوها.. ماذا جرى لهم.. إن أحدا منهم لا يصافح أحدا؟!

وهذا الكاتب أيضا هو الذى قال : هؤلاء مثل كرات البلياردو.. دائريون لا أطراف لهم. لا يتلامسون ولكن يتخبطون.. يفرقعون كالسيوف.. ثم يتلاشون !

وحتى إذا لم نجد لمسة الود أو لمسة الحنان، فإننا نخلق الجو المناسب لها ولأن هذا «الجو» مألوف لنا جميعا، ظهر فى حياتنا اناس من «حقهم» أن يلمسونا.. أعطيناهم ترخيصا باللمس على مهل : الأطباء مثلا !

فعندما نمرض ونتمدد فى الفراش ويبدو علينا المرض، يقترب منا الكثيرون ويسألون.. ويلمسون أيدينا وجباهنا.. ونجد أنفسنا قد تحولنا إلى أطفال صغار. فالصوت منخفض والحركة عاجزة. ونحن نطلب مساعدة الآخرين.. ويتحول السرير إلى «حضن» مؤقت. وفى هذه الحالة يصبح الناس جميعا كآبائنا وأمهاتنا.. ويجيء الطبيب وهو الشخص الذى له حق اللمس. ويمسك أيدينا فى يده.. ويلمس الوجه والبطن والذراعين والساقين والظهر ويقوم الطبيب بدور الأم للرجل الذى جعله المرض كالطفل — وما أقسى الحياة التى يكون فيها الطبيب هو الأب والأم فى حياتنا !.

ولكن بعض الناس الذين لا يجدون لمسة الود، فانهم يتسولونها.. فالأب الذى لا يجد الحنان من أولاده يجد لذته الوحيدة فى أن يكون مـــريضا. فى أن يثير شفقة الجميع. وسوف يجد ما يريد ولكن بشرطين : بشرط أن يكون مريضا بالفعل. وبشرط ألا يطول مرضه، فإذا طال مرضه، يشعر الذين حوله باليأس من شفائه وبأن الشفقة عليه كالقسوة عليه لن تؤدى إلى نتيجـــة. فهو لن يشفى من مرضه !

وشاعرنا الرقيق المتشائم كامل الشناوى كان يقول :

أشترى الحب بالعذاب أشتريه فمـــن يبيـــع !

وليس أروج من تجارة العذاب هذه. فهى بغيـــر فلـــوس يـــا صـــديقنا العزيز.. أنها هواية وحرفة كل إنسان وبلا مقابل !

وإذا خرج المريض من الفراش، خـــرج أيضـــا مـــن حضـــن الأسرة والأصدقاء واستقبله المجتمع بقسوته وجفائه وبروده.. واتسعت المســـافات بينه وبين الناس. وأصبح بعد ذلك يتعذب لأنه فى صـــحة جيـــدة. فـــكأن الانسان صبح بعدا عن الناس لأنه فى صحة جيدة.. وقريبا لأنه مريض أو بعبارة أخرى : أن الانسان يستمتع بسوء صحته !.

وهناك أناس يفضلون الصحة الجيدة على قرب الناس، وآخرون يفضلون قرب الناس مهما كان العذاب.

ومن الذين لهم حق اللمس أيضا : الذين يعملون فى تدليك الناس. وهذا التدليك لأسباب صحية أو أسباب جمالية. فهناك التدليك بســـبب أمـــراض عضلية وعصبية.. وهناك التدليك من أجل الرشاقة.. وكذلك التـــدليك مـــع

حمام البخار. وعند التدليك يجىء رجل لرجل أو سيدة لسيدة. وهذا الحرص على أن يكون الرجل هو الذى يدلك الرجل، سببه ألا يشعر أحد بأن هذا اللمس له أية دلالة جنسية، وكذلك بالنسبة للمرأة. وفى بعض معاهد التجميل يحرصون على أن يقوم بالتدليك شخص واحد حتى لا تتكون أية زمالة بينك وبين الشخص الذى يقوم بتدليكك فى الأندية الرياضية أو فى معاهد التخسيس. والآن أصبح يمكن الاستغناء عن شخص المدلك باستخدام الآلات الحديثة..

وفى اليابان تقوم بالتدليك سيدة عمياء. ولو كانت سيدة فقط لتغير معنى التدليك أو معنى هذا اللمس الناعم المنظم. ولكن لأن السيدة عمياء فإن التدليك لا يكون له إلا هذا المعنى ولا يكون الاحساس إلا أنه تليين للعضلات!

وعندما كانت بعض الملكات فى أوربا تحتاج إلى تدليك عنيف فإنها كانت تسلم جسمها للرجال. وكان الرجال يدلكونها بشرط أن يضعوا الجوانتيات فى أيديهم... أى يدلكونها دون أن يلمسوها!

وأشهر الذين لهم حق اللمس الحلاق. والحلاق قد ظهر حديثا فى التاريخ.. بعد أن قرر الانسان أن يطيل شعره.. فقد كان الانسان مضطرا إلى ازالة شعره تماما بسبب الحشرات. ولذلك فالآباء الذين يستنكرون على أولادهم أن يطيلوا شعورهم لا يعرفون السبب الحقيقى للشعر القصير. فلا خوف من أن يطول الشعر بعد أن اختفت البراغيث والقمل من الرأس..

والحلاق له حقوق كثيرة. فهو لا يكتفى بأن يقص الشعر وتنتهى علاقته بالزبون بعد دقائق ولكنه يغسل الرأس ويدلكه. وتذهب يداه إلى أبعد من

الشعر. أنه يدلك الوجه والعنق والكتفين.. وحلاق السيدات ليس هو وحده الذى يقضى وقتا طويلا فى غسل الشعر وتجفيفه وتصفيفه ثم تثبيتـه بعـد ذلك. بل أنه لا يكتفى بهذا القدر. أنه أحيانا يصبغ الأظافر. أظافر اليدين والقدمين.

واحساس حلاق النساء بأنه قريب جدا من بشرتها ومن جسمها. فـإن هذا الموقف الخاص به جعله يتخذ سلوكا غريبا. فهو إما أن يكون جـادا صامتا لا يتكلم، ولا يرد كأنه آلة.. وكأنه لا يحس بملامسة المرأة.. وهذا يعطيها شيئا من الأمان.. وإما أن يكون فى غاية الرقة والنعومة والمجـاملة ـ أى أنه يستعير منها شيئا من الأنوثة. وهذه الأنوثة تعطى شـيئا مـن الأمان.. ومعنى هذا الأمان أن هذا اللمس بلا دلالة فهو لم يعـد رجـلا خشنا.. أو يكون الحلاق مبتذلا يحتقر الموقف من أوله لآخـره.. ومعنـى جرأة الحلاق وتشجيعه للنساء على المداعبة معه بصورة مكشوفة: إن هذا اللمس منه لوجه وعنق المرأة شىء تافه وانه لا يعبـأ بـه. وأن المـرأة لا ترى فى ذلك أى شىء فلا هى أعطت ولا هو أخذ!

وماسح الأحذية هو أيضا من حقه أن يلمس أقدامنا وأرجلنـا. ونحـن عادة نجلس أو نقف فى وضع أعلى. ويجلس ماسح الأحذية فى وضـع دون ذلك. وهذا الوضع من ماسح الأحذية يضعونه بأن يجعل حركاته لها طابع الأمر والنهى. فهو يمسح الحذاء ـ وقد وضع رأسه بالقرب من الحذاء بدلا من أن يطلب إلينا أن نرفع قدمنا ونضع الأخرى فإنه يدق بالفرشاة، كأنـه قاض فى محكمة. أو يدق جرسا ولا يفتح فمه.. كأنه حريص على أن يجعل العلاقة بيننا وبينه غير شخصية.. حذاء وفرشاة.. شىء جالس وشىء آخر واقف أو جالس إلى أعلى قليلا.

وكثير من الدول قد منعت المواطنين أن يمارسوا حرفة مسح الأحـذية. وتركت هذا الهوان للغرباء مع مسح دورات المياه!

ومن الذين لهم حق اللمس أيضا: طبيب أمراض النساء والولادة..

وكانت النساء يقمن بعمل المولدة. ولكن الرجال تفوقوا على المـرأة فى هذا الفن. ثم مضت مئات السنين قبل أن يوافق الرجال على أن تنـكشف زوجاتهم على هؤلاء الرجال. ومنذ مئات السنين كان الرجل يدخل تحـت الغطاء فى الظلام ويقوم بعملية التوليد دون أن يرى مـاذا تفعـل يـداه. وعندما حاول بعض الرجال أن يروا، ماتوا وماتت الأمهات ومات الأطفـال أيضا!

والتاريخ يحتفظ لنا بأوصاف هؤلاء الرجال. ففى العصور الوسطى كتب أحد الأدباء يقول: ليس أحقر من رجل بخيل وزوج نذل إلا هذا الذى يولد النساء.. ولا أقذر من يديه ولا أبغض من رائحته ولا أوقع من عينيه!

ولكن أصحاب هذه العبارات لم يجدوا حلا آخر لولادة المرأة.

ومضت مئات السنين لكى تذهب المرأة الحامل إلى الـطبيب ليـكشف عليها أولا بأول.. ثم يولدها بعد ذلك ولم يخطر على بال زوج أو زوجة أن تصف طبيب أمراض النساء بأنه رجل قليل الأدب لأنه لا يكاد يرى سيدة حتى يقول لها: اقلعى.. نامى.. حامل!

لا أحد يقول ذلك وإلا كان عليه أن يجد حلا أسعد من ذلك!

ولهذا السبب نجد أن أطباء الولادة يتخذون أسلوبا جافا خشنا وأحيانا وقحا وهم فى الحقيقة ليسوا كذلك. ولا يقصدون ذلك. ولكن أطباء الـولادة

يريدون أن يقولوا لكل امرأة: إن هذا الذى يرونه لا يهمهم ولا يثيرهم. كأنهم ليسوا بشرا، لا الطبيب بشر ولا المريضة بشر. أى أنه لكى يعطيها الأمان يبدو فى ملابس لا إنسانية.. فى ملابس آلية وهو لا يقول لها: أنت حامل.. وإنما يقول: أنت حبلى.. ولا يحدثها عن المرض الشهرى، وإنما يقول لها: الدم..

وهذا الأسلوب الذى يبدو خشنا، هو وحده الذى يعطيها الأمان ويجعلها تشعر أن لمسه العميق لها، ليس له أية دلالة جنسية عنده.. أو عندها..

ثم هؤلاء الذين يمثلون على المسرح أو على الشاشة والذين يرقصون والذين يتشاجرون أى الذين احترفوا اللمس أمام الناس.. هذا اللمس ليس له الطعم الذى يتخيله المتفرج. فالممثلون يعانقون ويقبلون ولا أحد يستنكر ذلك. وإنما يرى الناس أنه طبيعى.. وكثيرا ما تجد الشاب يعانق العجوز. والناس يضحكون أو يقرفون.. أو يتضاربون وبعد ذلك يتصادقون.. أى أنهم يتضاربون بغير سلاح كالانسان البدائى ثم يتصادقون كالانسان المتحضر.. أما لماذا يفعل الممثلون ذلك؟ فالجواب ـ هو أن المؤلف كتب ذلك.. أو المخرج أراد ذلك.

أى أن الذين تراهم على المسرح مرغمون على أن يتعانقوا ويتقاتلوا..

والمجتمع أيضا ينظر إلى الرقص على أنه «لمس» مشروع.. فأنت عندما ترقص تتقدم وتتأخر وتدور.. كان فى نيتك أن تفعل شيئا ثم تردك الموسيقى عنه.. أو الناس الذين حولك.. وأخذ الرقص أشكالا فردية وجماعية.. ولكن هذا الرقص أصبح شيئا ملعونا عندما ظهرت رقصة «الفالس» فى القرن الماضى.. وأصبح من حق الراقص أن يقبل زميلته.

هنا ثارت الدنيا كلها على هذا الانحلال وهذه الموجة الخطرة على كل القيم الحضارية.

وقد نشرت صحيفة «التيمس» الانجليزية مقالا قديما فى أغسطس سنة ١٨٩٤ تقول فيه : ومن الذى يستريح ضميره إلى أن ترقص ابنته أو زوجته هذه الرقصة الشنيعة.. كيف تسكت عنها وهى تدور وتتعلق فى كتف هذا أو ذاك. إذا لم يكن هذا انحلالا وانحطاطا وسفالة لا قرار لها، فأى اسم فى القاموس يمكن أن يدل على ذلك؟

وبعض الناس فضل أن ترقص ابنته مع فتاة أخرى. وهنا صرخ الناس أنها إذن رقصة الأمازونات.. أى الفتيات اللاتى يكرهن الرجال، وقد قطعن نهودهن. ومن هنا جاءت تسمية الأمازون أى التى لا صدر لها حتى لا يرضعن، وحتى لايحملن ولا يلدن قبل ذلك!

وفى سنة ١٩١٢ ظهرت رقصة التانجو. وهذه المواجهة واللمس القريب جدا بين الراقصين وقد وصفت بالانحلال : إذ كيف يتخاصر الناس ويهزون أردافهم. ما هذا؟

وفى سنة ١٩٢٠ وما بعدها دخلنا عصر الجاز. عصر الاهتزازات العنيفة ووصفوا هذه الرقصة بأنها زنجية استوردها الشيوعيون من أواسط أفريقيا ليهدموا بها الحضارة الأمريكية وسخافات أخرى كثيرة.

وفى الخمسينات ظهر الروك أندرول وأشكال أخرى كثيرة للرقص المودرن.. أو الرقص الصاخب. ومن الغريب أن الرقص الجديد كله يتباعد فيه الراقصون : فكل واحد يتحرك فى مكانه وبعيدا عن الراقص الآخر. ما المعنى؟ معناه أن الرقص قديما كان يقضى على شىء من الحرمان

الجنسى أو العاطفى، ولكن الانسان لم يعد يشكو من هذا الحرمان. ولــذلك فهو يرقص فقط، لأن مكان الرقص هو مكان للرقص فقط.. ولم يعد محروما كما كان أجداده!

فهل صحيح أن الانسان لم يعد محروما؟

يمكن أن نجيب ـ بعد هذا كله ـ عن السؤال: بــأن الانســان يجــد الكثير من الحب، ولا يجد إلا القليل من الحنان. وأن الانسان فى بحثه عن الحنان يفقد إيمانه بالانسان وبالانسانية.. ولذلك يجب أن يبحث عن أشياء كثيرة بديلة تماما كما يتفرج على الذين يحبون، وهو لا يجد من يحبه، أى أن يحب غيره وأن يحبه غيره.

من لا يجد ما يحب
فإنه يحب ما يجد !
(٨)

كان ذلك فى مدينة مانيلا بالفلبين.. لقد اهتزت السفارة المصرية من الدهشة ومن الضحك، أن اثنين من ضباط البحرية الأمريكان يطلبان مقابلة السفير لأمر هام جدا، ولما سئلا أن كان الأمر له علاقة بالسياسة. فهز الضابطان رأسيهما وكتفيهما ليقولا : بل السياسة شىء تافه !

إذن الأمر أخطر من السياسة..

ولا أعرف من الذى ترجم مشاعر هذين الرجلين بأنها عدوانية. وأن هناك خوفا على حياة السفير المصرى ولما رأى الأمريكيان دهشتنا وخوفنا تكلما فى الموضوع. أن واحدا منهما عنده كلب بلدى ويريد بعض المعلومات عن الكلاب المصرية. يريد أن يعرف سرعتها ووزنها وعمرها ثم يريد أن يحصل على أنثى لهذا الكلب. وكيف يحصل عليها وأن كانت هناك أية صعوبات صحية أو مالية..

وكانت دهشتنا أعظم. فالكلاب أهم عنده من السياسة. ثم أن الأمر جاد وأهم من ذلك أن الكلب له اسم طويل.. إن اسمه جاك كارنبتر.. وصاحب

الكلب اسمه : وليام كارنبتر. وقد اختار هذا الاسم لأن لـه أخـا قتـل فى البحرية. وكان يحمل معه هذا الكلب تعويذة. وقرر الأخ أن يحتفظ بالكلب وأن يعطيه اسم المرحوم أخيه!

أما كيف وصل هذا الكلب إلى جزر الفلبين فهذه قصة أخـرى طـويلة ولكن المهم أنه وصل وعاش، ويريد صاحبه أن يعـرف أن كان الـكلب فى صحة جيدة وإن كان هذا هو حجمه الطبيعى. وإن كانت سرعته فى الجرى هى التى سجلها، أم أن الكلب يمكن أن يجرى أسرع من ذلك.. ومـطلوب من السفارة المصرية أن تعاونه فى هذا الأمر الخطير!

وبصراحة لم نجد ما نقوله غير أننا رثينا لحاله، وتطوعنا جميعا بـكتابة عناوين كاذبة لأسماء دكاترة فى القاهرة لا وجود لهم.. ولما سألنا أن كانت فى القاهرة مجلات باللغة الانجليزية عن الكلاب المصرية، هززنا رؤوسـنا بأن هناك مجلات كثيرة. وأضفنا إلى قائمة الأكاذيب أسماء مجلات للكلاب فى مصر!

ولا شىء يدل على حب الرجل للكلب إلا امتنانه العميق جدا لنا علـى هذه المساعدة القيمة. وأنه لن ينسى لنا أبدا هـذه المعـاونة الانسـانية العائلية الصادقة. وأنه كان على يقين من أنه سوف يجد مـا يسـعده فى السفارة المصرية فما معنى هذا؟

المعنى هو أن الانسان فى هذه الدنيا فى حاجة إلى أحد قريب منه. إلى دفء الآخرين والأخريات فإذا لم يجد أحدا من الناس، فإنه يتجـه إلـى الحيوانات الأخرى. بل أنه يعطى لهذه الحيوانات صفات إنسانية، ويتعلـق بها كما لو كانت بشرا ينقصها الكلام.. وإن كان الحنان والوفاء والأمـان لا ينقصها..

إن الكلاب والقطط والطيور والأسماك والقرود والخيول وغيرها، هي حيوانات بديلة.. أى أننا عندما لم نجد الانسان اتجهنا إلى هذه الحيوانات.

والانسان الذى لا يجد الحب فى بيته، يبحث عنه خارج البيت. والحب خارج البيت لا يقوى الحب فى البيت. وإنما ينافسه ويقضى عليه.

وإذا كان هناك زواج بغير حب، كان هناك حب بلا زواج.

فالحب خارج البيت له شكل الخيانة وطعمها.

ولكن إذا لم يجد الانسان حتى هذا النوع من الحب، أو كان عاجزا عنه، فإنه يبحث عن الحب عند تلك الكائنات التى لا تخونه. والتى لا تعرف إلا الوفاء وإلا الصدق وإلا الامتنان.. هذه الحيوانات تستسلم لحريتنا فى اللمس.. فى الربت عليها ودغدغتها واحتضانها وتقبيلها. الكلب يقفز إلى أرجلنا وينحنى عليها يقبلها ويلعقها. فتمتد أيدينا إلى جسمه.. إلى ظهره ورأسه وتداعبه.. وتكون المداعبة امتنانا متبادلا. هو سعيد ونحن أكثر سعادة ونحن أكثر سعادة بذلك..

والقط أيضا أكثر تداخلا فى أجسامنا.. أنه يلتوى وينطوى ويتكرم ويدخل تحت الغطاء.. ثم أنه رقيق ناعم الملمس.. كان كل جسمه خدود ناعمة، وشعره حرير..

وقصص وفاء الكلاب لا أول لها ولا أخر.. وأكثر هذه القصص قد رواها الانسان وجعلها جميلة.. وجعل جمالها نوعا من التخليد لها.. وفى نفس الوقت جعل التخليد نقدا خالدا لسفالة الانسان . وكلما امتدح الكلاب شتم الانسان. وكلما عرف الانسان الانسان، ازداد حبا للكلاب.

وأشهر الكلاب التى عرفها الانسان كلب أهل الكهف.. الذى نام على باب الكهف فى انتظارهم أن ينهضوا من نومهم أكثر من ثلاثمائة سنة.. وهذا الانتظار هو الولاء الطويل مهما تغيرت الظروف خارج الكهف. بقى جالسا وهو لا يدرى إن كان أصحابه قد ناموا إلى الأبد، أو ناموا ليعودوا إليه.. إن انتظاره هو وفاء بلا قيد ولا شرط!

وفى أوربا وأمريكا مئات المجلات التى تعنى بصحة «حيوانات الزينة» وهذه تسمية خاطئة لهذه الحيوانات المدللة. لأن هذه الحيوانات ليست لزينة البيت، ولكن لزينة الحياة لأهل البيت.. بل هى ضرورية للحياة نفسها!

والأرقام تقول لنا أن الأمريكان ينفقون خمسة آلاف مليون دولار على الكلاب والقطط. والانجليز ينفقون مائة مليون جنيه.. والألمان ينفقون ٥٠٠ مليون مارك.. والفرنسيون ـ ينفقون ١٢٥ مليون فرنك..

وعدد الكلاب والقطط فى أمريكا ٩٠ مليونا.. ويولد فى أمريكا عشرة آلاف قط وكلب كل ساعة. وفى فرنسا ١٦ مليون كلب. وفى ألمانيا ٨ ملايين كلب. وفى بريطانيا ٥ ملايين كلب..

وهذه الحيوانات لها مصانع لتغذيتها ولها مصانع لعلاجها. ولها مصانع مشغولة بملابسها.. ولها مقابر أيضا.

أكثر من ذلك أن كثيرين يتركون وصاياهم لهذه الحيوانات. أصحاب ملايين تركوا للكلاب ثرواتهم، بدلا من أن يتركوها لأقاربهم.

فالمليونير الأمريكى كليفتون شيز قد أوصى بثلاثة ملايين دولار لكلبه وسلالة هذا الكلب ونصت الوصية على أن تكون سلالة هذا الكلب نقية مائة فى المائة.

وكان لهذا المليونير إخوة غير أشقاء. وفى الوصية كتب: إن ثروتى أعطيتها لمن يستحقها. ولا يستحق هذه الوصية إلا من أحبنى بلا مقابل. ولا أجد أحدا فعل ذلك غير كلبى ولذلك فثروتى ثمن لوفائه..

وبعد ذلك جاء فى الوصية أن يبنى لهذا الكلب بيت محاط بحديقة. وأن تزوره كلبة اختارها. وأن تقيم معه حتى تلد. وأن يرث أولادهما هذه الثروة أيضا!

وبعض الناس يرى أن هذا نوع من الجنون. ولكن الحياة بلا حب جنون. والحب بلا وفاء جنون. وإذا لم يجد الانسان من يحبه، فإنه يشترى هذا الحب. وليست الكلاب إلا نوعا من الحب يمشى على أربع. ومن طبيعة الانسان أن يحب. ومن طبيعة القلب أن يدق لأحد. فإذا لم يكن هذا الأحد من الناس، ففى الكلاب والقطط أجمل بديل!

ولكن كيف يحب الناس كلابهم وقططهم فى أمريكا، وفى نفس الوقت يشردون ملايين الأطفال فى فيتنام، أو يشردون ملايين الأطفال الزنوج فى أمريكا نفسها!

إن الذين يطلقون الرصاص هم أنفسهم الذين يحبون الكلاب. بل أن الطيارين الأمريكان يحملون معهم الكلاب والقرود ويداعبونها ويطعمونها ويعنون بصحتها بعد كل غارة على أبرياء فيتنام وفى سجلات الحرب العالمية الثانية أن حراس معسكرات الاعتقال الألمانية كانو يربون الكلاب، وفى نفس الوقت يحرقون اليهود وخصوم هتلر فى الأفران.

فما المعنى؟ والمعنى إن الانسان لا بد أن يحب. لا بد أن يستريح إلى أحد من الناس أو من الحيوان، ومن طبيعة الانسان إذا أحب أن

يلمس. وإذا لمس أن يلمس أكثر. ولذلك امتدت الأيدى وراء الأسوار.. وامتدت الأيدى وراء الأقفاص .. وهذا ما يحدث فى حدائق الحيوان. الناس يتفرجون على الحيوانات السجينة. ورغم التحذيرات فإن الأيدى تمتد إلى أقفاص الوحوش ولا تعود الأيدى ـ تأكلها الوحوش ولكن هذه هى طبيعة الانسان.

ولكن ماذا يحدث لو ماتت كل الحيوانات فجأة؟ شىء فظيع ومروع لو حدث ذلك. أنه يؤدى إلى تمزق ملايين القلوب وخراب ملايين البيوت وتشرد ملايين العمال والأطباء.

وليس معنى ذلك أن الكلاب إذا ماتت، أن يتجه أصحاب الكلاب إلى أى بديل آخر.. ليس معنى ذلك أن العجوز التى عاشت لكلبها ومن أجله، أن تهجم على أول واحد يدق بابها. سواء كان الزبال أو بائع اللبن أو صاحب العمارة.. وليس معنى ذلك أن الرجل الذى مات ابنه وزوجته وعاش من أجل عشرات من القطط أن يهجم على أى بيت ويلقى بنفسه فى أحضان أهل البيت. لا شىء من ذلك. بل أن صاحب الكلب إذا مات كلبه، فإنه لا يقتنى من بعد كلبا آخر.. وإذا ماتت القطط فإن صاحبتها لا تطيق أن ترى قطة واحدة بعد ذلك. لقد أحبت القطط وعندما ماتت دفنت حبها معها إلى الأبد!

إن الامبراطور الرومانى السفاح كاليجولا كان له كلب. وكان رجال البلاط لا يحبون هذا الكلب. لأن الامبراطور إذا جلس معه انشغل عن كل شئون الدولة. وقد حدث أن دخل عليه أحد الزعماء الساسيين يستشيره فى أمر هام. فصرخ الامبراطور: ألا ترى أننى مشغول؟ ورد عليه الزعيم قائلا: لا أرى ذلك.

فصرخ الامبراطور : اذهب ومزقه تماما !

قالها الامبراطور للكلب. وهجم الكلب على الزعيم ومزق ملابسه. وخرج الزعيم غاضبا. وفى اليوم التالى وجد الكلب ميتا. ولا أحد يعرف كيف مات .. وقرر كاليجولا ألا يدفن هذا الكلب وأن يظل نائما أمام فراشه.. ولما لم يطق كاليجولا رائحة الكلب.. أمر بأن يدفن تحت سريره. وعندما دفن الكلب روى له رجال البلاط ـ وهم كاذبون ـ إن آخر صوت أطلقه الكلب هو : كاليجولا.

وأقام الامبراطور احتفالا هائلا لهذا الكلب الذى لم ينسه حتى الموت !

وهناك حيوانات أخرى لها هذا الأثر فى حياة الانسان : الخيول والأسماك وطيور الزينة.. والزواحف مثل الأفاعى. ولكن الأفاعى لم تفز بمثل هذا الحب من أحد. رغم أن بعض هذه الأفاعى قادرة على احتضان الانسان والالتفاف حوله. ودغدغته وذلك بأن تضم عضلاتها حوله ثم ترخى هذه العضلات.

ولكن الثعابين ساءت سمعتها من أيام آدم وحواء. ثم أن من بينها عددا هائلا ساما. ولذلك فإن عددا قليلا من الناس يحب الأفاعى. أو تربيتها.

وكذلك الأسماك. ولكن عيب الأسماك أنها حيوانات للزينة. فقط للزينة. ولا يمكن أن يكون بيننا وبينها هذا الود. هذا اللمس. هذا التفاهم هذا الامتنان اليومى.. وكذلك الطيور أننا نداعبها. نضعها على أيدينا.. على أكتافنا.. ولكن ليست بيننا وبينها هذه اللغة الصامتة كالتى بيننا وبين الكلاب والقطط.

وإذا كنا نتحدث عن العطف على هذه الحيوانات وحبها والامتنان لها، فكيف نفسر حيوانات المعامل التى يقتلها العلماء كل يوم فى كل مكان.

وحجتهم أن قتل الكلاب والقطط والفئران والأفاعى والقرود هو من أجل أن ينقذوا البشرية. فهم يجرون تجاربهم على هذه الحيوانات من أجل صحة الانسان وبقائه.. وإذا كان العالم سوف يذكر كلب أهل الكهف فإن أحدا لن ينسى الكلبة «لا يكا» التى وضعها الروس فى قمر يدور حول الأرض.. وتركوها هناك تموت فى أغرب جنازة عرفها الانسان فقد كان «نعشها» يدور حول ملايين المشيعين لها فى كل مكان.. وكان موت لايكا من أجل الانسانية.. فبعدها انطلقت سفن الفضاء تحمل الرجال حول الأرض.. وبسبب الفئران التى وضعها الأمريكان فى أقمار صناعية حول الأرض تمكن رواد الفضاء من الدوران حول الأرض والهبوط على القمر.. فهذه الحيوانات عاشت وماتت ليعيش الانسان!

وفى بريطانيا سنة ١٩١٠ قتل العلماء ٩٠ ألف فأر.. وفى سنة ١٩٤٥ قتلوا مليون فأر.. وفى سنة ١٩٦٩ قتل العلماء ستة ملايين فأر ـ أى أجروا عليها تجارب حتى الموت

وفى سنة ١٩٧١ وقف أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى يهاجم العلماء ويقول: إنهم يستهلكون عددا كبيرا من حيوانات المعامل. وأن هذه الحيوانات تموت بعد تجارب فى غاية القسوة!

وهذا العضو أراد أن يهز الرأى العام البريطانى ضد وحشية العلماء. ولكن هل يستطيع هذا العضو أو غيره أن يقنع أما أصيب ابنها بالدفتريا، أو أما أصيب ابنها بشلل الأطفال.. أو واحدة من الأمهات التى تشوه أطفالها بسبب مادة الثاليدوميد، أن هؤلاء الأمهات على استعداد لقتل هذا العضو من أجل أن يسترد الأطفال صحتهم!

شىء غريب يحدث بين الانسان والحيوان. إن الانسان يريد أن يجعل الحيوان «بديلا كاملا» عن الحب الذى فقده. ولذلك نجد فى المجتمعات

المنعزلة علاقة جنسية بين الانسان والحيوان. وهذه العلاقة قديمة جـدا.. أن الملكة سميراميس كانت تركب الخيول عارية تماما.. وكانت أديبة فرنسا جورج صاند تركب الحصان عارية وتختار الوضع المقلوب على ظهر الحصان..

والتوراة تحدثنا عن اليهود منذ أقدم العصور. وكانـت بينهـم وبيـن الحيوانات علاقات جنسية حرمها أنبياؤهم وقضاتهم.

ففى سفر الخروج (٢٢ - ١٩) نقرأ: من اضطجع مع بهيمة يقتل قتـلا وفى سفر اللاوين (١٨ - ٢٣) نقرأ ولا تجعل مع بهيمة مضـجعك فتتنجس بها ولا تقف امرأة أمام بهيمة.. أنها فاحشة!

وتقرأ أيضا: وإذا اقتربت امرأة إلى بهيمة تميت المـرأة والبهيمـة.. إنهما يقتلان دمهما عليهما!

وفى سفر التنبيه (٢٧ - ٢١) نقرأ: ملعون من يضطجع مع بهيمة ما!

وهذه البهائم ليست هى القطط والكلاب وإنما الخيول والحمير وغيرها.

إن الانسان يبحث عن اللمس.. عن اللمس إلا من عيون الناس. إلا من الجوع إلى أحد. إلى قرب أحد. مادام لا يجد الواحد الذى يحب، فـإنه يختار أى أحد. إن الانسان فى العصر الحديث يعيش بـالملايين.. ولـكن الملايين مثل ملايين ألواح الثلج.. أو ملايين الصخور. كل واحدة تماسكت وانطوت والتوت على نفسها وانسدت منافذها ونوافذها ولكن الانسان لا بد أن يشعر بالدفء بالعين أو باليد أو بالقلب.. فإذا لم يجد دفء الشـمس بحث عن شىء أخر بديل.

تعيس جدا من يحب ما يجد، لأنه لايجد ما يحب!

.. الملايين تدخن
لسـبب آخـر !
(٩)

التدخين ضار بالصحة، وهذه حقيقة علميـة، ورغـم ذلك فـإن عـدد المدخنين يعد بعشرات الملايين فى العالم. وقد لجأت الدول إلى التحـذير من التدخين وفرضت على شركات السجائر أن تضع هذا التحذير مـع كل علبة سجائر. وأصبحت نكتة فالمدخن يفتح علبة السـجائر ويلقـى بهـذا الانذار المكتوب ثم يدخن تماما كالذى ينزع فتيل قنبلـة يـدوية ويلقيهـا بعيدا.. أو كالذى يقطع الدائرة الكهربية فى لغـم أرضى. ويسـحب عشرات الأنفاس ابتهاجا بسلامته!

ولكن هناك نوعين من المدخنين: واحد يبلع الأنفاس وواحـد «يهف» السجائر أى ينفخها دون أن يبتلعها. ولكن لماذا يدخن الناس؟ والجـواب أن المدخنين قد أدمنوا النيكوتين.. ولكن الذين لا يبلعون السجائر لا تنقل إليهم نسبة عالية من النيكوتين تجعلهم مدمنين. إذن لماذا يدخن الـذى لا يبتلع أنفاسه ولا يملأ بها صدره؟

هذا هو السؤال: والاجابة عن هذا السؤال هى أن الانسان يدخن لانه لابد أن يدخن. وإذا لم يدخن فإنه سوف يفعل شيئا آخر، وهو يدخن لأنه

لابد أن يضع شيئا بين شفتيه. شيئا ناعما يلمس شفتيه برفق. ولا بـد أن يدخل فى صدره شىء ناعم دافئ.

لقد اعتاد الانسان وهو طفل أن يرضع ثدى الأم. أن يضع حلمة الثدى بين شفتيه ويمتصها. وعن طريق الرضاعة تهدأ أعصابه وينام.

والطفل عندما تحاول الأم أن تفطمه فإنها تضع فى فمه «بزازة» وهـى بديل عن الثدى وحلمة الثدى. وأن تضع فى داخل البزازة سائلا دافئا ومن الواجب أن يكون فى درجة حرارة لبن الأم أو جسم الأم. وبعد ذلك تفطمه ببزازة بلا لبن. أى تعطيه بديلا عن الثدى وليس بديلا عن اللبن.. ولـذلك فرضاعة البزازة يسمونها الرضاعة بلا تغذية!

والملايين الذين يضعون السجارة والسيجارة والغليون انما هم جميعـا يستخدمونها بديلا عن ثدى الأم. وهذا البديل يعطى نفس اللمس الـرقيق الناعم، ويدخل فى الصدر هواء دافئا.. وحتى الذين يريدون أن يمتنعوا عن التدخين فإنهم يضعون فى أفواههم السجائر دون أن يدخنوها.. أو يضعوا «المبسم» أو «الفم» أو الغليون وبلا سجائر. وكأنهـم يسـتشعرون لمس الشفتين بلا دخان. فالأصل هو أن نضع شيئا ناعما بيـن الشـفاه. ولـو لاحظنا الذين يدخنون لوجدنا أنهم فى كل مرة يضعون السجارة أو ينقلونها من أفواههم تلمس أيديهم الشفتين والوجه.. تماما كما كنـا نلمس صـدر الأم ونحن نرضع.

والذين قرروا أن يتوقفوا عن التدخين يلجأون إلى اسـتخدام اللبـان. واللبان هو نوع من المطاط الحلو. نمضغه ونبلع ريقنا. فاللبان هو نوع آخر من البزازة. ولكن فى داخل الفم. وهذا اللبان كأنه نوع من الرضاعة بـلا غذاء أو كأنه نوع من السجائر التى لا تدخنها. وربما استراح من يمضـغ

اللبان الى ذلك ولكن الناس ـ عادة تضيق بالذى يمضغ لأنه كالذى لا يكف عن الأكل دون أن يأكل.. فلا هو يأكل حقيقة ثم يتوقف بعد ذلك، ولاهو طفل يرضع.

فكأننا نقضى على التوترات العصبية أو الأزمات النفسية باستخدام نوع من « الرضاعة ». وهذه الرضاعة تضر بالصحة. أي أننا نخفف التوتر باستخدام السجائر التى قد تؤدى إلى المرض. فنحن نقضى على الأزمة بعمل أزمة أخرى.. وكأننا نحاول أن ننقص عدد سكان العالم بالمرض أو باستخدام الحروب، أو كأننا نحل أزمة المساكن بوضع الناس فى السجون.

إن التوتر اليومى لن ينتهى وإزالته مجهود لن ينتهى أيضا وضيق الانسان بالسجائر يخلق توترا جديدا، يحتم علينا أن نضاعف التدخين!

ومن الملاحظ أن بعض الذين يتوقفون عن التدخين يزداد وزنهم، وهذا طبيعى. لأنه إذا توقف عن التدخين، أى عن عادة التدخين، فإنه يكون شديد التوتر. ولذلك يحاول أن يهدئ أعصابه بتناول الكثير من المشروبات أو من الأطعمة. وهذا يؤدى إلى زيادة وزنه. وأثناء التدخين كان يكتفى بابتلاع الهواء ونفخه.

وهذه المشروبات التى يعتاد عليها خارج البيت، أو فى البيت، ليس سببها أنه عطشان أو جوعان. ولكن السبب الحقيقى هو أننا نحاول أن نخفف من حدة التوتر، فكأن الأعصاب ملتهبة ونحن نلقى عليها بالمشروبات والأطعمة!

ونحن نجعل الأكواب والفناجين ناعمة اللمس، لكى يكون لها ملمس خاص على الشفتين. ونحن نرفض الأكواب ذات الأطراف الحادة أو

الخشنة لا لأننا لا نطبق ذلك، ولكن لأن لدينا شعورا عميقا بأن تكون فى نعومة ثدى الأم.

ونحن نشرب أيضا عن طريق «شفاطة» هذه الشفاطة هى أيضا كالسيجارة - الرقيقة.. أى كالثدى النحيل الضامر الممدود.ولنفس السبب أيضا!

وهناك أناس يفضلون الأكواب أو الكؤوس التى تشبه الكرة. والتى تلتف حولها أصابع اليد. كما تلتف أصابع الطفل حول ثدى أمه..

ونحن فى كل هذا الذى نعمله. نحاول أن نلمس أشياء بديلة عن أشياء أخرى موجودة فى الأم.. أو كانت موجودة فى الأم عندما كنا أطفالا نرضع اللبن والحنان.. أو نرضع الحنان.

ثم ما هذه المخدات التى نضع عليها رؤوسنا لننام. إن هذه المخدات يجب أن تكون لينة ناعمة. يجب أن نضع عليها رؤوسنا فتستسلم الرؤوس. فإذا كانت المخدات جافة لم ننم.. وإذا كانت لينة أكثر مما يجب، فإننا لا ننام. فكأننا أيضا نبحث عن صدر الأم، أو عن شىء مثل صدر الأم. والمخدة هى البديل.. وبعض شركات المخدات ترسم على المخدات صورا لكواكب السينما أو بطلات الرياضة. أحيانا تكتفى برسم الوجه فقط. فإذا نام عليها أحد أحس أنه قد وضع خده على خد نجمته المفضلة.

وحاجة الفتاة إلى الحنان والدفء والرقة. تجعل العلاقة التى بينها وبين مخدتها شيئا عجيبا. فالفتاة لا تنام إلا على مخدتها هى. وأحيانا تنقل مخدتها من مكان إلى مكان. فإذا سافرت حملت مخدتها معها.. وتعانق مخدتها طول الليل. وأحيانا تتحدث إليها.. وتشهدها على ما يحدث لها وحولها فى البيت وما يقع لها من أبويها.. أن الفتاة ترى فى المخدة صدر حنون كأنه صدر الأم.

وفى سنة ١٩٧٠ اخترعت شركات المخدات والمراتب الأمـريكية مـرتبة مملوءة بالماء الدافئ. ووصفت هذه المرتبة بأنها «الترف السائل» والماء فى داخل المرتبة فى درجة حرارة الجسم. وهذه المرتبة السائلة هى بديل عن بطن الأم نفسها .فقط كأن الجنين يسبح فى ماء دافئ.

وقبل ذلك بألف سنة كانت قطر الندى تنام على سرير، والسريـر فـوق بحيرة من الزنبق. وكان السرير يهتز تماما كما يهتز جنين فى بطن أمـه.. وإعلانات الشركات الأمريكية تقول: كيف ترقص روك أندرول وبعدها تنام.. كيف تجعل النوم بحيرة من الماء الـدافئ. كيف تعيش فى الجنـة دون أن تموت.. كل ذلك لترغب الناس فى هذه المراتب الدافئة السائلة!

وأخر موضة للمقاعد هى أن تكون هذه المقاعد مسحوبة ولها أطـراف حانية على من يجلس عليها كأن هذه المقاعد أحضان.

ولابد أن الناس عندما يسافرون فإنهم يفضلون الذهاب إلى الفنـادق. لأن الانسان فى الفندق يجلس على سريره وكل شىء يجىء حتى فمه وليس عليه إلا أن يضغط على زرار ويجىء الطعام والشراب دون أن يتحرك مـن مكانه كأنه طفل وليس عليه إلا أن يضغط على صدر الأم فإذا كل شـىء جاهز عنده.

ولابد أن تكون الحمامات الدافئة نوعا من الاحضان السائلة. خصوصا إذا كانت درجة حرارة الماء مثل درجة حرارة الجسم الانسانى، والأطبـاء ينصحون كل من يشكو من توتر فى أعصابه أن يتمدد فى حوض به ماء دافئ فقط. ولا يفكر فى شىء.. بعد دقائق سوف يهدأ، كما يهـدأ طفـل أعيـد إلى أمه. واستقر فى حضنها!

وهناك بعض « الحركات » نفعلها نحن دون أن نجد لها تفسيرا. مثلا إذا اضطرب الواحد منا أو وجد نفسه فى موقف حرج، فإنه يضع يده فى جيبه. كأنه يتساند على نفسه. أو كأنه يتساند على إنسان آخـر. والحقيقـة أن وضع اليد فى الجيب أو وضع اليدين له معنى آخر فنحن عندما نضطرب فى حاجة إلى أحد يلمسنا. أن يسندنا. يحتضنا يعانقنا. ووضع اليد فى الجيب يعطى هذا المعنى: إن يدا قد امتدت إلينا.. وهذه اليد تلتف حولنا. وهنا يشعر الانسان أنه ليس وحده. وإنه قد وجد ذراعا تمتد إليـه أو حـوله. وكان الرئيس كنيدى يلعب فى زرار الجاكتة عندما يواجه الجمـاهير.. وكان تشرشل يمسح بيده على جبينه.. وكلاهما يؤكد نفس المعنى: إن أحدا قد اقترب ولمسنا وكان فى هذا اللمس نوع من الاحتضان.

ونحن نطلب من الطفل ألا يضع يده فى جيبه وهو يتحدث إلينا.. وكذلك نطلب من الذين يصغروننا فى السن أو فى المركز. ولكن لماذا؟ لأن الـذى يضع يده فى جيبه هو إنسان قد استرخى قليلا أو يريد ذلك. ونحن عندما استدعينا طفلا أو غيره لكى نتحدث إليه أو نلومه أو نعاتبه أو نأمره فإننا أردنا أن يكون فى حالة انتباه. أو حالة تحفز أو حالة استعداد لأن يعمـل شيئا جادا. فالموقف جاد، وليس موقف استرخاء ونوم!

وشىء من ذلك يحدث عندما تصاب المرأة بضيق أو بحرج وسط الناس. فإنها بسرعة تفتح شنطة يدها وتنظر فى المرآة. والذى تراه فى المرآة لـم يتغير ولكن الحقيقة غير ذلك. فهى قد قررت أن تمسـك أحمـر الشـفاه وتلمس به شفتيها.. ثم تضع البـودرة علـى خـدها.. واللمس للشـفتين والخدين يعطيها شيئا من الهدوء. فهى قررت أن تفعل ذلك، أما النـظر فى المرآة فليس له أى معنى.. وإنما هى تحاول أن توهم الذين حولها أنهـا

أحست بشىء غير عادى فى وجهها وقررت أن تصلحه. ولكن الحقيقة هى أنها قررت ذلك. والمرأة ليست إلا نوعا من التعمية. ومحاولة ألا يكون تصرفها مفهوما أمام الآخرين!

والرجال يلجأون إلى حيل مماثلة. فيجد الواحد منهم قد راح يسوى الكرافته أو يسوى شعره.. أو ينفض البنطلون أو يشد جوربه.. ولا شىء يدل على ضرورة أن يفعل ذلك مطلقا. ولكن اضطرابه وتوتره حتم عليه أن يلمس بيده كل هذه الاشياء، واللمس يهدىء أعصابه!

وفى أساطير الأغريق أن الاله ديالدوس الذى استطاع أن يطير هو وابنه ليكاروس من أثينا إلى جزيرة كريت، كان يحب أن يقال عنه أنه أول من اخترع شراع السفينة وأنه أوصى أصحابه بأنه عندما يموت أن يلفوه فى شراع سفينة وأن يلقوا به إلى البحر.. وأن هذا الشراع سوف ينفتح ليظل سابحا إلى الأبد.

ولكن هذا الاله حرم من حنان الأم فى سن مبكرة. ولذلك نجده يتمرغ فى الليل على الأعشاب. وعلى الأغنام.. وعلى أوراق الشجر.. وعلى سطح الماء. وعلى بخار المواقد وعلى السحب.. ان الاله ديالدوس هو صورة نموذجية للطفل الذى يريد أن يصنع لنفسه ألف نموذج لصدر الأم وحنان الأم.. صحيح أنه إله ولكن فى داخله طفلا إنسانيا جائعا إلى حنان الأم.. أن الهة الاغريق كانوا قادرين على أن يصنعوا لأنفسهم ولغيرهم كل شىء.. ولكن شيئا واحدا لم يقدروا عليه! أن يجدوا بديلا عن صدر الأم وثدى الأم ودفء الأم.. عن أول وأصدق وأعمق وأبقى مصدر للحنان!

إن الطفــل
رجل صغير.. غلط!
(١٠)

انظر إلى طفل صغير يلهو بالقرب من أمه.. انظر إلى عصفور وقف على حافة العش.. إلى قرد يتمرغ فوق الأشجار. إن لدى الصــغار شــجاعة.. وجرأة.. وحرصا على تعريض أنفسهم للخطر.. ولكن لماذا.. لأنهم يعتمدون على الأم، على قربها. على حنانها. وعلى أن يديها أقرب إليهم من الخطر. على أن صرخة واحدة تجعلها تقفز من أى مكان لانقاذهم.

إن هذا «الحب الجاهز» والحنان المترصد هو الــذى يعــطى الــطفل شجاعة على العالم الجديد. أن يدفعه إلى ارتياده. وكل العلاقات والروابط والصداقات التى تربطنا بمن حولنا هى التى تغرينا بتكوين علاقات أخرى، نعيش بها، وعليها ومن أجلها.

فنحن فى هذا العالم غرباء. انظر إلى الذين حولك فى أى مــكان. مــن الذى تعرفه منهم لا أحد. ومع ذلك يجب أن تتصرف كأنك تعرفهم ويجــب أن تعمل على اتقاء ضررهم وكسب صداقاتهم. وإذا لم تستطع أن تــكون صديقا للجميع، فلا أقل من أن تكون زميلا أو رفيقا. أو معايشا أو لا عدوا ولا صديقا.. مع أن هذا موقف صعب.

والذى لا تربطه بأحد صلة قوية، كالذى لا يجد المسكن أو الغطاء ولذلك فهناك رأى يقول: إن الانسان يجب أن يجعل حياته سهلة لمن يدخل فيها، وسهلة لمن يخرج منها أيضا. ولذلك لا يفرح كثيرا بأحد، ولا يحزن عليه أيضا ولو استطاع الانسان ذلك فإن حياته سوف تكون قاسية. لأنه من الضرورى للانسان أن يحب وأن يكون محبوبا.. هكذا عشنا طويلا فى أحضان الأم نحبها وتحبنا.

وهناك رأى يقول: احتفظ لنفسك بنفسك ولا تعرضها فتهون والشاعر العربى القديم يقول:

عرضنا أنفسنا عزت علينا ومارخصت فاستباح بها الهوان
ولو أنا منعناها لعزت ولكن كل معروض مهان

والمثل الأعلى لهذا السلوك الاجتماعى والنفسى أيضا هو: أن الانسان يكفى خيره شره.. وقفل بابه عليه ويقول: يا دار ما دخلك شر. والباب الذى يجىء منه الريح يجب أن تسده لتستريح!

ولكن كيف الحياة بلا هواء أو ريح.. كيف الأبواب لا تنفتح ولا تنغلق كيف لا يكون خير ولا شر؟ كيف لا تمد يدك لتأخذ، ولتعطى أيضا.. كيف تكون لك يد ولا تمدها للسلام أو للشراء أو للقتال أو للعمل. كيف تكون بين الناس ولا تربطك بهم صلة قوية أو ضعيفة. والمثل اليونانى القديم يقول: إن الفم المغلق لا يدخله الذباب. ولكن كيف يظل الفم مغلقا دائما؟

إن الذين يطالبون بالاعتدال فى كل شىء يقولون: بل يجب أن تكون علاقتنا محدودة. أصدقاء قليلون. وأعداء قليلون. أو صديق واحد وعدو واحد. أو عدو واحد يكفى! ولكن كيف؟

لو أفلح إنسان فى أن يحدد صداقاته وعداواته هكذا، لكان أسوأ أخ، وأتعس صديق، وأقسى قريب.

ولكن ما الذى يجعل مثل هذه المواقف صعبة علينا!

يقول واطسون أحد علماء النفس الأمريكان: إن الغلطة تبدأ عادة من الطفولة. فالأم تغمر طفلها بحنانها. بأحضانها وقبلاتها. إذا بكى سارعت بالطعام. وإذا غضب سارعت بالهدايا.. إن هذا النموذج من سلوك الأم هو الذى يجعل الطفل شابا مدللا ورجلا لم ينضج بعد ولذلك فعلى الأم ألا تقبل ابنها كثيرا.. وألا تعانقه. وعليها أن تتركه يعيش بعيدا عنها. وألا تجعله يشعر لحظة واحدة بأنها تراه. وإذا أحست بشىء من الشوق أو الحنين إلى طفلها فلتنظر إليه من ثقب الباب. ومن الواجب أن تعامل طفلها على أنه شاب، وليس على أنه طفل. وأهم نصيحة: أن تكون قبلات الأم لطفلها على جبهته وليس على خديه أو شفتيه. وأن يتبعها الجميع وبنفس الأسلوب!

ويقول واطسون: بهذا السلوك من الأم، والسلوك من الطفل يصبح المجتمع أصح وأكمل وأشد صلابة وأسرع نضجا!

ويمكن أن نضرب مثلا ملموسا.. فقد لوحظ فى اليابان أن الفتيات لهن سيقان معوجة. كان ذلك قبل الاحتلال الأمريكى لليابان. ولماذا؟ لأن الأم كانت تحمل ابنتها على كتفيها حتى سن متأخرة. وتلتف ساقا الطفلة حول خصر الأم. وتكبر الطفلة وساقاها ملتويتان.. ولكن فى العشرين عاما الماضية خرجت المرأة اليابانية إلى العمل. ولم يعد عندها وقت لتحمل ابنتها. وتركت مهمة حملها للأرض. فاستقامت ساقا الفتاة اليابانية لأنها

مشت على الارض ولم تتعلق من ظهر الأم أو كتفيها. وهذا واضح عندنا أيضا فى الريف!

ومعنى ذلك أن الطفل الذى يركب كتفى أمه، تلتوى ساقاه. والذى يعتمد على نفسه تستقيم رجلاه. والذى يحدث فى الساقين، يحدث فى السلوك العام للطفل. فلكى يستقيم الطفل يجب أن نبعد عنه الحنان الزائد للأم!

ولكن إذا فعلنا ذلك مع أى طفل فإن هذا الطفل الذى لا يعرف الحنان لا يعرف الأمان. والذى لا يعرف الأمان لا يجد الشجاعة على أن يواجه حياته. ويشعر بالغربة والانطواء فى سن مبكرة. ولا يثق فى أحد من الناس. ويكون خائفا من المجتمع. أو يكون كارها لكل علاقة بين طفل وأمه أو بين رجل وامرأة. ويصبح إنسانا كارها لكل علاقة بين طفل وأمه أو بين رجل وامرأة. ويصبح إنسانا آليا. لا يربطه بالناس شىء.. إلا ضرورة التعايش معا، والتجاوز فى المكان.

فى إسرائيل يقومون بتجربة هى: حرمان الطفل من والديه. وذلك بأن يعيش الأطفال فى المستعمرات. حياة جماعية. والأم بعيدة عن ابنها. والأب كذلك. والهدف هو ألا يكون لدى الطفل عقدة التعلق بالأب أو التعلق بالأم. وإنما التعلق بالأرض. وبالمستعمرة. بالدولة وقد أسفرت التجربة عن أطفال فى غاية التعاسة والمرارة. لأنهم حرموا تماما من الحنان إنهم فى صحة جيدة ولكنهم فى غاية الكآبة والحزن. ولذلك فبعض العلماء يطالب بالعدول عن هذه التجربة. لأن نتيجتها خلق وحوش بشرية وتعذيب الآباء والأمهات بلا تعويض معقول!

والتجربة المشهورة لخلق إنسان فى المعمل ـ هوفر الكشتين ـ قد نجحت فى «ابتداع» إنسان ضخم قوى. ولكنه وحش. وليس من الغريب

أن يبادر هذا الوحش بقتل الرجل الذى صنعه فى المعمل. لأنه خلق منفرا خلق بغيضا إلى كل الناس. فقد كان شكله قبيحا. ولكنى أعتقد أنه من الداخل أقبح من الخارج: لأنه إنسان بلا إنسانية.. إنسان عاجز عن الحب.. عاجز عن أن تكون له صلة بأحد.. فالناس يهربون منه، وهو لا يستطيع أن يأوى إلى حنان الناس.

ويكفى أن تذهب إلى ملجأ اليتامى أو اللقطاء لتعرف ما هى مفردات التعاسة الانسانية وكيف يكون الانسان إذا لم يعرف من هى الأم ومن هو الأب؟ وإذا أحس أنه بلا ذنب قد تحول إلى سجين؟ وكيف أنه يريد أن ينسى كل هذا الماضى إذا خرج ليعيش بين الناس؟ وكيف تكون نظرة الناس إذا عرفوا أنه إنسان لقيط.. مثل المستشار فيلى برانت أو برانت أو ابن غير شرعى مثل صوفيا لورين وهتلر. إن القليلين جدا هم الذين استطاعوا أن يفلتوا من هذه المرارة والحقد على كل الناس والتآمر على المجتمع!

وهناك مشكلة أخرى: ماذا يحدث للطفل إذا كان الأب متشددا والأم متساهلة؟ ان الأب لا يكاد يرى طفله حتى يقسو عليه ويضربه. أو يعذبه أو يهدده بذلك. ولا تكاد الأم ترى طفلها حتى تحتضنه وتمسح وجهه ويديه ورجليه بالقبلات وتعطيه بقدر ما يعاقبه أبوه. وليس غريبا أن يلاحظ الأب أن الابن مدلل مائع. وأنه كثيرا ما يرتكب أعمالا حمقاء. أو يتظاهر بالمرض وقد يمرض. ولكن المشكلة هنا ليست تدليل الأم أو قسوة الأب. المشكلة هى هذا الاضطراب فى معاملة الطفل. وحيرة الطفل بين قبلات الأم وصفعات الأب. بين سخاء الأم وبخل الأب. بين الشدة واللين. بين التهديد والهدايا.

وكثيرا ما يقول الأب للأم: أنت فشلت في تربية طفلك. وكثيرا ما تقول الأم: بل أنت الذى جعلت من نفسك عفريتا لا يراه الطفل حتى يهرب. ويقول الأب: أنت تقدمين الرشاوى لطفلك لكى يكرهنى.. وتقول الأم: أنت الذى جعلته يكرهك.. لماذا لا تكلمه. لماذا لا تعلمه؟ لماذا لا تقبله؟ لماذا لا تشجعه على ذلك دائما!

ولابد أن هناك غلطة قد وقع فيها الأب. وهذه الغلطة عمرها أكثر من ألف سنة. فقديما قال الفيلسوف الأغريقى أرسطو: إن الطفل رجل صغير.

أكبر غلطة. فالطفل ليس رجلا. وإنما هو كائن صغير. في حاجة إلى أن نعامله على أنه كائن لا يعرف إلا القليل من هذه الدنيا. لا يعرف القليل عن نفسه وعن غيره. ولذلك يجب أن نعامله على أنه صغير يريد أن يعرف وكثيرا ما يغلط وعن طريق الغلط يعرف الصواب ويتطلع إلى شىء جديد. ولكن إذا تصورنا أن الطفل له عقل رجل وجسم كائن صغير، فقد ظلمنا الطفل. لا أسأنا إليه..

فإذا اختلف الأب والأم في تقدير المسافة التى يجب أن تكون بين الأب والطفل والأم والطفل فإن الطفل سوف ترتبك حياته. فالأب يريد أن يجعله بعيدا والأم تجعله قريبا. ويتذبذب الطفل بين الأب والأم.. ويتلعثم ويتهته.. ويصبح مشلول الارادة والقدرة على الفهم والتمييز بين الخطأ والصواب. والصديق والأم، والعدو والأب..

لابد أن تكون هناك مسافة معقولة بين الأطفال والآباء والأمهات.. وهناك مشكلة أكبر من ذلك. وهذه المشكلة تتعلق بالمسافات التى بيننا فإذا نشأ الطفل على أنه على مسافة قريبة جدا جدا من الأم والأب. فإن هذا الالتصاق بهما يجعله عاجزا. لأنه يعتمد على الأب والأم. وفي نفس

الوقت يكره هذه العلاقة. لأن الطفل عندما يكبر يريد أن تكون له شخصية مستقلة. وأن تكون له خصوصيات. أى يجب أن يكون على مسـافة أبعـد وأبعد، حتى لا يراه أبواه. أن تكون له غرفة خاصة. أن تكون له عـلاقات خاصة. أن يقول: هذا لى وحدى.. وهذا شأنى.. وهـذا رأيـى.. وهـذا مستقبلى.. وهذه فتاتى.. زوجتى.. ابنتى.. حياتى.. آخرتى.. وهكذا.

فإذا اتسعت المسافة بين الأب والأم منذ الطفولة، ولم يكن للأب والأم أى دخل فى حياة الطفل. كان ذلك وبالا على الطفل. وإذا كان الطفل لصيقا بأبويه، فلا مسافة ولا خصوصية، فإن هذا الطفل سيكون عاجزا مشلولا..

ومنذ عشرين سنة ظهرت فى أمريكا دراسة عميقة للدكتور كنـزى عـن السلوك الاجتماعى والجنسى للمرأة والرجل. وكان التقرير مثيرا لأنـه هـز الكثير من العقائد الاجتماعية والنفسية.. وقد لاحظ د. كنـزى أن عـددا كبيرا من النساء الأمريكيات قد استسلمن لـلانحلال الجنسى. دون سـبب واضح. بل أنه لاحظ أن بعضهن شـديد التـدين. ولاحـظ أن أكثـرهن متمسكات بالتربية الفاضلة لأبنائهن. ولكن اهتدى د. كنزى إلى أن المرأة الأمريكية لا تريد الجنس وإنما تريد أن تكون فى «حضن» رجل. أن تشعر بشىء من حنان مهما كان الثمن غاليا.. فالجنس هو وسيلتها إلى أن تكون فى حضن رجل وفارق كبير بين أن يؤدى الحضن إلـى الجنس وبيـن أن يؤدى الجنس إلى الحضن إنها تريد اللمسة الحنون وتـدفع الثمـن مـن جسمها ومن كرامتها.. وكثير من الأمريكيات قد اعترفن للدكتور كنزى أنهن يكذبن على الرجال ويدعين صفات ليست لهن وأن يروين قصصا تبعث على الأسى لا لحاجتهن إلى المال. ولكن لأنهن يفتقرن إلى العطف وإلى الحنان. وهن كاذبات، والرجال كاذبون.. ولكن الانسان عندما لا يجد الحنان فـإنه يتسوله.. يشتريه.. يسرقه!

ومما اهتدى إليه د. كنزى أيضا فى أمريكا. أن اللقاءات والاجتماعات والتجمعات التى يحرص الناس عليها ليست إلا مناسبات للعلاج الجماعى ولكن ما المرض؟ المرض هو أحدث ما عرف الانسان: العزلة الجماعية. أى أن يشعر الانسان بالعزلة رغم أن الناس حوله. ولكن عندما يكون مع الناس بين الناس ضمن الناس وفى مناسبة معروفة يصبح اللمس مشروعا.. أن تمد يدك وتصافح.. أن تساعد واحدة على أن تجلس.. أن تميل عليها وتهمس.. أن تقترب. أن تحرص على مزيد من الاقتراب واللمس. إن هذه الجمعيات أو الجماعات ليست إلا مناسبات قانونية ليكون اللمس مشروعا.. لتكون وسيلة إلى لمس منتظم: صداقة.. حب.. زواج..

بعض علماء النفس يرى شيئا آخر.. فهو يعتقد أن الانسان حيوان اجتماعي ولذلك – بغريزته – يجب أن يكون مع الناس.. وليس من الضرورى أن يشعر بهم تماما كما يمشى فى الشارع أو يذهب إلى السينما أو المسرح أو ملاعب كرة القدم.. إنه وسط الناس.. بينهم.. فى إناء واحد يغلى معهم بالفرحة أو بالنظر أو بالغيظ معهم.. ولا يستطيع أن يتوقف عن الانفعال وهو مع الناس!

ومن الواجب أن نفرق بين هاتين العبارتين: «الانسان له جسم».. و«الانسان جسم»..

فالذى يرى أن الانسان له جسم، يرى أن له جسما وعلاقات وغرائز وعواطف. وأن الجسم هو ضمن مكونات الانسان. ولذلك يمكن إشباع الانسان بأشياء أخرى غير جسمه.. والذى يرى أن الانسان جسم، يرى أيضا أن كل شيء يجب أن يمسه الانسان ذهابا وإيابا.. فبغير جسم الانسان لا إنسانا. ولذلك يجب أن يبدأ اللمس الضيق واللمس العريض

والعميق بالجسم الانسانى نفسه. لذلك إذا وضعنا سياجا علـــى حـــواسه. وقيدناه وعزلناه، فنحن نربى وحشا كاسرا باردا جامدا حزينا..

وكل شىء يبدأ من الطفولة وعلى نمطها.. يبدأ بالأم وعلى نموذج هذه العلاقة لنا علاقات أخرى جديدة بديلة. فليس فى الامكان أن نتخلص مـــن هذه الفترة الخطيرة من حياة أى واحد منا : عندما كنا فى بطن الأم وعلى صدرها وعلى مقربة من قلبها بعد ذلك!

العودة إلى الكهوف
لأسباب عاطفية!
(١١)

منذ عشر سنوات ذهب الناقد الأمريكى الكبير أدموند ويلسون ليتفرج على معرض أقامه الشبان فى إحدى ضواحى سان فرانسيسكو، الطرق جميلة، الحقول واسعة. الحدائق فى كل مكان. الطيور والحيوانات. والسيارات والفتيات. وفجأة وجد خيمة سوداء ممزقة وعلى هذه الخيمة تعلقت الأحذية والملابس الداخلية للفتيات والفتيان. وعلى باب الخيمة هذه العبارة: إن كانت لديك أية فكرة سابقة فلا تدخل!

ورآها الناقد الكبير. وتوقف لحظة ثم دخل. وفى داخل الخيمة وجد عددا من الشبان والشابات عراة تماما. وقد وضعوا على رؤوسهم ريش الهنود الحمر. ونقشوا على صدورهم صور بعض الحيوانات المنقرضة. وعلى وجوههم أسماء القبائل التى ينتسبون إليها وعلى مرأى من هؤلاء العراة وقف الشاعر الأمريكى جينزبرج يلقى قصيدة جميلة. أعجب بها الناقد الكبير. ثم أشاروا إلى باب الخيمة يعلنون انتهاء الزيارة!

وعاد الناقد ليقول: إن الشبان يريدون خراب أمريكا لأنها لم تملأ قلوبهم وعقولهم وأحضانهم بشىء يجعل للحياة قيمة!

فما معنى هذا؟ معناه أن هؤلاء الشبان قد عجزوا عن مسايرة الحياة الخاطفة فى أمريكا. لم يتمكنوا من أن يمزقوا كل العلاقات الانسانية التى تربط الجار بالجار. والابن بالأب. والفتاة بالحب. «لم يمضغوا هذه الحياة. وعندما مضغوها لم يهضموها. وعندما هضموها هضمتهم وهدت حيلهم. وكفرتهم بكل ما هو إنسانى، أمريكى وغير أمريكى».

ولنعد إلى البيت الأمريكى، والبيت فى كل المجتمعات الصناعية الرأسمالية. من الضرورى أن يعمل الجميع، وإلا أصبحت الحياة مستحيلة. زوجة الغنى وزوجة الفقير لأن المثل الأعلى: هو أن يكون الانسان مرتبطا بشىء أو مرتبطا بأحد.. ووسيلة الارتباط هى العمل. أن يكون الانسان رئيسا أو زميلا. خادما أو مخدوما. والعلاقات كثيرة. والروابط ثقيلة. والوقت والجهد والرغبة والهدوء الذى يتبقى بعد ذلك يكون من نصيب الزوج، إن كان هناك، أو زوجة إن كانت، والأولاد.. فلا وقت لأحد!

ومن هذه المسافات البعيدة، وبينها وبسببها، تولد علاقات متباعدة أيضا بين الأقربين: الأولاد والآباء والزملاء والجيران والمواطنين. والانسان حيوان قريب، يجب أن يكون بالقرب من أحد أو من شىء. فإذا لم يجد الأشياء قريبة منه، فإنه يجعلها كذلك بالذوق أو بالقوة.. بالحب أو بالفلوس. بالقهر أو بالذل.

ولذلك اندفع الأطفال، بسبب تباعد الأب والأم، إلى الرجولة المبكرة. أى إلى الاعتماد على النفس.. والخوف من العلاقات التى تعطل الانسان عن عمله وعن دوره فى الحياة الاجتماعية. وكبر الأطفال دون أن يستمتعوا بالطفولة. ودخلوا فى مرحلة الرجولة دون أن يعرفوا ذلك.

وبسرعة وبشعور تلقائى احتشد مئات الألوف من الشبان فى أوروبا وأمريكا لانشاء حياة جديدة. حياة من صنعهم. حياة يقومون فيها بدور الأب والأم. يعطون الحنان الذى افتقدوه ويسرفون فى الحب الذى لم يجدوه.. بل إنهم استنكروا المدينة والمدنية.. المواصلات والنور.. النظام والنظافة.. المكتب والمعبد.. الحلاق والترزى والطبيب والمدرس ورجل الأمن ورجل المرور. واختاروا أن يكونوا على هامش المدينة والمدنية.. فأقاموا الخيام. وحفروا الكهوف وعاشوا بالجملة معا. مثل البدائيين. وأعطوا كل ما عندهم لأنفسهم.. وأقفلوا على أنفسهم الأبواب والنوافذ.. إنهم معا. متقاربون متلاصقون متحاربون. بلا مسافات. بلا أبوة لأحد. ولا بنوة لأحد. وظهر منهم «أنبياء» يبشرون بالمحبة العامة. والسلام التام. والاكتفاء الذاتى، ماديا وعاطفيا!

وحقق هؤلاء الشبان لأنفسهم كل ما كانوا يحلمون به من أخوة وأبوة وحب وجنس ودين وسلام مع أنفسهم ومع غيرهم.

ونبذهم الناس. ولكنهم نبذوا أنفسهم قبل أن يفعل الناس ذلك. واختاروا أن يكونوا بعيدا عن الناس، قريبين من أنفسهم. وكانت هذه الحياة الحارة التى هى كلها أحضان حتى الكهف ليس إلا حضنا دافئا يدق بعشرات القلوب معا!

ووصفهم المجتمع الكبير فى أوروبا وأمريكا بكل الصفات القبيحة قالوا: بدائيون همجيون. وقالوا: شواذ.. وقالوا: قذرون.. وقالوا: وثنيون!

وأحس الشبان أنهم قد تحولوا إلى ميكروبات يخاف منها المجتمع.. وهذه قوة لم يتصورها من قبل. وأغراهم ذلك على التمسك معا. وتماسكوا بعيدا.

وأول شعار رفعه هؤلاء المنبوذون هو اسم : بريابوس !

وبريابوس أحد أبناء الاله فينوس، إله الجمال. ولكن من الغريب أن هذا الابن كان قبيح الشكل. ويبدو أن الاله فينوس عندما ولدته أمه، استغرقت هذه الولادة وقتا طويلا. فمدت يدها تسحب المولود. فشوهت يديه ورجليه وخصوصا أعضاءه الجنسية ولما رأته انزعجت. وأنكرت أنها أمه. وألقت به فوق الجبال. ولكن بريابوس هذا كان قدرا على زراعة الحدائق والـورود. وله قدرات جنسية خارقة. ولذلك التفت حوله النساء وتكاثر عليه الـرجال يريدون قتله.. ولكن بريابوس كان يهرب منهم. أما شكل بريابوس هذا فله وجه إنسان وأذنا ثور وفى يده عصا يضرب بها الطيور. وله صوت حمـار.. ويقال أن بريابوس لم يكن كذلك عند ولادته. وإنما حقد عليه الآلهة الذكور فتكاثروا عليه فشوهوا معالمه الباقية !

وعندما اختار هؤلاء الشبان بريابوس رمزا لهم. لم يـكن ذلك بسـبب رغبتهم فى الاباحة والتلامس الحر، ولكنهم أرادوا أن يذكروا الناس بـأن صورتهم قد شوهها الحاقدون عليهم. فهم ليسـوا كذلك. وإنهـم ليسـوا مجرمين، وإنما هم ضحايا. ويأبى المجرم الحقيقى ألا يصورهم مجرمين. مع أن المجتمع قد جنى عليهم.. لا أحد بالذات هو الفاعل الحقيقى. ولكن الحضارة الصناعية الحديثة. التكنولوجيا هى التى جعلت الطفولة نتيجـة طبيعية لزواج اثنين. وما بعد ذلك لا يهم. فـالطيور والحشرات لا تفعـل ذلك.. أنها أكثر حنوا على صغارها !

والشاب الأمريكى الذى قتل الممثلة شارون تيت كان ضمن قبيلة معروفة باسم قبيلة «بيراموس» وذهبت هذه الكلمة ضمن ملايين الـكلمات التـى صدرت فى الصحف العالمية عنه. وبيراموس هذا عاشق بابلى قـديم. لـم

يسئ إلى أحد. ولا قتل أحدا. وإنما قتل نفسه. فقد كان يحب فتاة اسمها ثيسبا. ولما عرف أهلها حبسوه وحبسوها. وكان بين العاشقين جدار. استطاعت الفتاة أن تشق الجدار وأن تتفق معه على لقاء. وكان اللقاء تحت شجرة التوت الأبيض. وذهبت الفتاة إلى الشجرة.. وهناك وجدت أسدا وخافت وهربت إلى أحد الكهوف. وسقط منها منديلها. وأقبل الأسد يلعق المنديل وترك قطرات من الدم. وجاء العاشق فرأى المنديل داميا، فظن أن الأسد قد أكل معشوقته. فجاء تحت شجرة التوت الأبيض وقتل نفسه. وشربت الأرض دمه. ومنذ ذلك اليوم والتوت لونه أحمر!

ولذلك كان شعار هذه القبيلة: هذه دماؤنا وليست دماء أحد!

ولم يكتف هؤلاء الشبان فى أمريكا وأوروبا بالعودة إلى الحياة البدائية.. بل أن بعضهم أراد أن يقلب التقاليد فى المجتمع حولهم، فجلس الرجال فى الخيام والكهوف. وتركوا الفتيات يأتين لهم بالطعام وبالفلوس. وبعضهم اختار اسم الزوجة بدلا من اسمه هو وارتدت الفتيات ملابس الرجال.. وارتدى الرجال ملابس الفتيات. والأسماء التى اختاروها للقبائل كلها مأخوذة من مجتمعات الغجر فى أوروبا أو من البدائيين فى غينيا الجديدة. مثل قبيلة «تشامبولى». وهذا الاسم قد اختاره الشاعر الأمريكى أرنولد ليفن اسما لملحمته المعروفة.. وهذه القبائل رجالها فى غاية النعومة والرقة ونساؤها فى غاية القوة والصلابة والعنف!

ولم يفكر واحد من مئات الألوف من الشبان فى الاعتداء على أحد. بل أنهم جعلوا شعاراتهم: الحياة تمشى ونحن متفرجون.. المصانع تأكل الناس ونحن نشعل سجائرنا من قلوبهم.. الطاحونة تدور وأسناننا تتسوس منها.

ولأنهم اختاروا الهروب من هذه الحياة التى لا تريحهم هربوا مرة أخرى مستخدمين المخدرات. أو عقاقير الهلوسة. ولم يكن غريبا أن يكون الشاعر الفرنسى بودلير نبيهم فهو الذى ألف كتاب « الجنة الزائفة ».. وهو فى هذا الكتاب يقول : من لا جنة له، فليجعل لنفسه جنة !

وهو الذى يقول : من لا يجد الأحضان الضاغطة، والشفاه الدافئة، والصدور اللينة فالطبيعة كلها أحضان وشفاة ونهود..

وكان بودلير نموذجا للشاعر الذى حرم من حنان الأم. والذى كان يغار على أمه من زوجها.. فهو محروم من الحنان.. وهو مجنون لذلك !

إن هؤلاء الشبان جياع إلى طعام عرفته الحيوانات ونسيه الانسان ويبدو أنه لن يتذكره إلا بثورة عالمية : الحنان. اسمه الحنان بلا مقابل !

والحادثة التى أفزعت اليزابيث تايلور تتردد كثيرا فى كل الدراسات الحديثة لحياة هؤلاء الشبان. فعندما احتفلت اليزابيث تايلور وزوجها ريتشارد بيرتون بعيد ميلادها، تلقت رسائل من انجلترا وأمريكا وإيطاليا وألمانيا كلها تحمل هذه العبارة : إلى العقرب الجميل من عقارب لا تموت !

وعلى سبيل الاحتياط بعثت بهذه الرسائل إلى مكتب البوليس الدولى.. وهى معذورة فى ذلك. فقد سطا عليها اللصوص كثيرا. وهى تغرى بذلك : مالها وجمالها ولكن هذه المرة لم يكن هناك أى سبب معقول لذلك.

ولكن البوليس الدولى اهتدى إلى السبب الحقيقى لهذه التسمية. فمن المعروف أن أطول فترات « تسخين » عاطفى بين ذكر وأنثى هى التى بين أنثى وذكر العقرب فالذكر يظل يروح ويجىء أمام الأنثى. فإذا التفتت إليه اتجه إليها. وراح يقترب منها ويلتصق بها. صدرا ورأسا. وفى هذه الأثناء

يمر ذكر آخر. ويحاول أن يعتدى على الذكر الأصلى. ويظل يطارده ويلسعه. فإذا مات الذكر الأصلى تقدم الذكر الجديد وراح يقوم بنفس المناورات. وإذا عاش الذكر الأصلى فوجئ بعدد من الاناث يهجمن على أنثاه ويحاولن أن يخلصنه منها. وإذا قدر لها أن تعيش، فإن القبلات والأحضان تتوقف لحظة. ويعود الذكر إلى استعراض نفسه أمامها. فإذا التفتت إليه عاود الأحضان بصورة عصبية. وهذه العصبية تجعل من الصعب عليه أن يفلت منها فى الوقت المناسب. وإذا ضاقت به الأنثى ـ وهذا يحدث كثيرا ـ فإنها تلسعه فيموت. وتظل تسحبه من مكان إلى مكان.. وبعد ذلك تهجم عليه تأكله كله أو تكتفى برأسه.. وتقف فى انتظار ذكر آخر..

فهؤلاء الشبان عندما اختاروا لأنفسهم اسم العقارب التى لا تموت، كانوا يقصدون أنهم يحبون ولكن دون أن يقتلهم الحب، أو دون أن يقتلوا أحدا من أجل الحب.. وإنما هم فقط يتخيلون ما لا يجدون. ويهربون مما يجدون إلى عوالم أخرى: ووسيلة الانتقال إلى هذه العوالم: المخدرات وحقن الهلوسة.. فهم يريدون الجنة دون أن يموتوا.. ويدخلونها كلما أرادوا ذلك!

وعندما حاولت إحدى قبائل الشبان أن تقيم لنفسها معبدا. اختاروا تمثالا «مكسور الرقبة واليدين».. أى فينوس التى لا تنطق.. والتى لا تحتضن أحدا. وإنما هم الذين يتكلمون ويعانقون..

ثم أقاموا تمثالا نصفيا للامبراطورة مسالينا. وكانت امرأة شهوانية. ولم تكن تكتفى برجال القصر وإنما كانت تذهب إلى بيوت الدعارة بملابس وأسماء مستعارة. وكانت تدخل فى مراهنات. ويكون الرجال ضحاياها وكانت مسالينا تبكى فى نهاية كل ليلة وتقول: إن نصفى العلوى يبكى على نصفى السفلى.. أننى لا أرتوى ولا أشبع.

ولذلك أقاموا لها نصف تمثال. وجعلوا نصفها العلوى غارقا فى الضحك. ثم قلعوا عينيها. وتحتها هذه العبارة: من كان يرى بالقلب فلا حاجة به إلى العينين!

وفى الديوان الذى صدر بعنوان «شعراء سان فرانسيسكو» يقول روبرت تمبلهوف وهو يودع حبيبته التى قررت أن تعود إلى بيت أبيها بعد أن علمت أن أمها تبكى من أجلها ليلا ونهارا حتى توشك أن تموت. يقول الشاعر:

«لا أحسدك يا حبيبتى، فلم أعرف لى أما.. ولكنى أحسد أمك على أن لها فتاة جميلة مخلصة مثلك.. أجمل ما فيك أنك أعطيت جسمك لمن تحبين، وأبقيت قلبك لمن تحبك.. ولكننى أرثى لك، فلن يطول عناق أمك لك. لن يطول. لقد تنبه حضنها متأخرا.. أنها اليوم سوف تنتقل إلى حضن التراب، وسوف تنتقل صورتها على الحائط إلى حضنك أنت.. سوف تعيش أمك وهما دائما فى خيالك.. تماما كما عشت أنت وهما دائما فى ذاكرة أمك.. كأنه لابد أن يموت أحد ليصبح الوهم حقيقة. والحقيقة وهما».

إنهم لم يخرجوا على مجتمعهم.. ولكن المجتمع هو الذى أخرجهم بالقسوة. وطردهم بالانشغال عنهم. وهدمهم عندما بنى الأسرة الجديدة. فذهبوا بعيدا معا. ليكون لهم معا كوخ يحلمون فيه بالسعادة الزائفة ماداموا لا يجدون الحب والحنان والأحضان من أب أو أم!

فهـرس

مثله تماما ولكنك عريان

صفحة

الحب قبل الحرية والحنان قبل الحب

كتب للمؤلف

(ا) مقالات :

١ ـ وحدى.. مع الآخرين
٢ ـ عذاب كل يوم
٣ ـ طريق العذاب
٤ ـ يسقط الحائط الرابع
٥ ـ كرسى على الشمال
٦ ـ ساعات بلا عقارب
٧ ـ مع الآخرين
٨ ـ بقايا كل شىء
٩ ـ نحن أولاد الغجر
١٠ ـ من نفسى
١١ ـ شىء من الفكر
١٢ ـ حتى أنت يا أنا
١٣ ـ لو كنت أيوب
١٤ ـ أضواء وضوضاء
١٥ ـ كل شىء نسبى
١٦ ـ الحنان أقوى
١٧ ـ إنها الأشياء الصغيرة

(ب) قصص :

١٨ ـ عزيزى فلان
١٩ ـ هى.. وغيرها
٢٠ ـ بقايا كل شىء
٢١ ـ يوم بيوم
٢٢ ـ يا من كنت حبيبى
٢٣ ـ قلوب صغيرة..
٢٤ ـ شارع التنهدات
٢٥ ـ فوق الركبة

(ج) دراسات

٢٦ ـ الوجودية
٢٧ ـ الخبز والقبلات
٢٨ ـ التاريخ أنياب وأظافر
٢٩ ـ من أول نظرة
٣٠ ـ الحائط والدموع
٣١ ـ الصابرا (الجيل الجديد فى اسرائيل)
٣٢ ـ وجع فى قلب إسرائيل
٣٣ ـ ديانات أخرى
٣٤ ـ على رقاب العباد
٣٥ ـ الخالدون مائة : أعظمهم محمد رسول الله
٣٦ ـ دراسات فى الأدب الأمريكى
٣٧ ـ دراسات فى الأدب الايطالى
٣٨ ـ وداعا أيها الملل
٣٩ ـ الذين هبطوا من السماء

٤٠ ـ الذين عادوا إلى السماء
٤١ ـ أرواح وأشباح
٤٢ ـ القوى الخفية
٤٣ ـ لعنة الفراعنة
٤٤ ـ أوراق على شجر
٤٥ ـ فى السياسة (جزءان)
٤٦ ـ وكانت الصحة هى الثمن
٤٧ ـ ألوان من الحب..
٤٨ ـ اظافرها الطويلة

(د) ترجمة ذاتية :

٤٩ ـ طلع البدر علينا
٥٠ ـ فى صالون العقاد : كانت لنا أيام
٥١ ـ قالوا
٥٢ ـ ..إلا قليلا

(هـ) رحلات :

٥٣ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم (الحائز على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٣)
٥٤ ـ بلاد الله خلق الله
٥٥ ـ اليمن.. ذلك المجهول
٥٦ ـ أطيب تحياتى من موسكو
٥٧ ـ غريب فى بلاد غريبة
٥٨ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات :

٥٩ ـ مدرسة الحب
٦٠ ـ الأحياء المجاورة
٦١ ـ حلمك يا شيخ علام
٦٢ ـ جمعية كل واشكر
٦٣ ـ مين قتل مين ؟
٦٤ ـ سلطان زمانه
٦٥ ـ العبقرى
٦٦ ـ كلام لك ياجارة
٦٧ ـ ترجمة «رومولوس العظيم» تأليف ديرنمات
٦٨ ـ ترجمة «هبط الملاك فى بابل» تأليف ديرنمات
٦٩ ـ ترجمة «الشهاب» تأليف ديرنمات
٧٠ ـ هى وعشاقها تأليف ديرنمات
٧١ ـ ترجمة «أمير الأراضى البور» تأليف ماكس فريش
٧٢ ـ ترجمة «من أجل سواد عينيها» تأليف جيرودو
٧٣ ـ ترجمة «بعد السقوط» تأليف أرثر ميللر
٧٤ ـ ترجمة «فوق الكهف» تأليف تنسى وليامز
٧٥ ـ ترجمة «الامبراطور جونز» تأليف يوجن أونيل